مُحَاضَرَاتٌ فِي الدَّعْوَةِ وَالدُّعَاةِ

تأليف

عبد العظيم بن بدوي الخلفي



بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

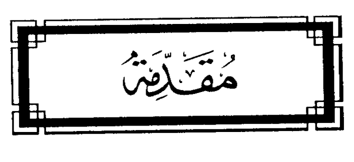
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

الخلفي، عبد العظيم بن بدوي . كتاب / محاضرات في الدعوة والدعاة
تاليف / عبد العظيم بن ب الخلفي بدوي - ط١- ٢٠٠٦ .
دار الصفا و المروة للنشر و التوزيع ١٧ * ٢٤
ردمك 5 – 20 – 6168 – 977
١- الأسلام دعوة - مصر ٢ – الدعوة الأسلامية
٣ – الدعوة و الدعاة (الشيعة)
العنوان ديوي ٢١٣

رقم الإيداع	٢٠٠٦ / ٨٠٣٦

الناشر
دار الصفا والمروة
للنشر والتوزيع

١٨٥ ش جمال عبد الناصر – سيدي بشر نهاية النفق – الإسكندرية – ج م ع
ت: ٥٤٩٦١٠٧ / ٠٣ ، فاكس : ٥٥٦٧١٣٤ / ٠٣



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرور أنفُسِنا وسيئاتِ أعْمالنا، من يهْدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هاديَ له.

وأشهَدُ أن لا إلهَ إلاَّ الله، وحدَه لا شريكَ له، وأشْهَدُ أَنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾

[الأحزاب].

أمّا بعد ...

فإنَّ أصدقَ الحديث كلامُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النار.

وبعد ، فهذه « **محاضرات في الدعوة والدعاة** » ألقيتها في خطبةِ جمعة أو محاضرةٍ عامة ، في أوقاتٍ مختلفة ، ثم رأيت أن أجمعَ هذا الشتات في موضع واحد ، لعلّ الله أن ينفع به قارئه ومستمعه ، فجاءت هذه المجموعة من المحاضرات .

واللهَ عزَّ وجلَّ أسأل أن ينفَع بها ، وأن يكتُبَ لي أجرَها وثوابَها ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

وكتبه

عبد العظيم بن بدوي الخلفي

ضحى الأحد ٧ / ٨ / ١٤٢٦هـ

١١ / ٩ / ٢٠٠٥م

بمنزلي الكائن بالشين / قطور / غربية

دستور الدعوة

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[النحل: ١٢٥]

هذه آيةٌ قد تضمَّنتْ على وَجازتها دستورَ الدَّعْوَةِ إلى الله عزوجل، ولذلك قال الرازي بعد أن ذكَر مباحثَها: " واعلم أنَّ هذه المباحثَ تدلُّ على أنه تعالى أدرج في هذه الآيةِ الكريمةِ هذه الأسرارَ العاليةَ الشريفة، مع أن أكثرَ الخلْق كانوا غافلين عنها، فظهر أنَّ هذا الكتابَ الكريم لا يَهْتَدِي إلى ما فيه من الأسرار إلا مَنْ كان مِنْ خواص أولي الأبصار "[1].

والمباحثُ التي في هذه الآية هي:

ماهي الدَّعوة؟ وما فضْلُها؟ وما حُكْمُها؟ إلى ما تكون؟ وسائلها.

أما الدَّعوة فهي " لغةً مأخوذةٌ من الدُّعاء، وهو النِّداءُ لجمْع النَّاس على أمرٍ ما، وحثِّهم على العمل له، قال تعالى: ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ﴾ [يونس: ٢٥].

والدَّعْوَةُ في اصطلاحِ العُلماء: جَمْعُ النَّاسِ على الخيْر ودلاَلَتُهم على الرُّشْد، بأمْرِهم بالمعْروف ونَهْيِهم عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]"[2].

والدَّعوةُ إلى الله تعالى وظيفَةُ المصْطَفَيْنَ الأخْيار من النَّبيين وأتباعهم المؤمنين.

---

(١) التفسير الكبير (١٤١/ ٢٠).

(٢) أسس الدعوة: د. محمد السيد الوكيل (ص ٩).

قال تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى الله عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف:١٠٨].

وفضْلُ الدَّعْوةِ عظيم، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّنْ دَعَا إِلَى الله وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ ﴾[فصلت:٣٣].

ففي هذه الآيةِ التَّنبيهُ على شَرفِ الدُّعاةِ والثَّناءِ عليهم، وبيانُ أنَّهم أحْسَنُ النَّاسِ قوْلاً، لأنهم يدعون النَّاسَ إلى الله ويُرْشِدُونهم إلى اتِّباع الحقِّ واجتناب الباطل، وفِعْلِ الخيْر وتَرْكِ المنكر.

وقال النبي ﷺ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»[١].

وقال ﷺ: « مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلاَلَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا »[٢].

ويومَ خيبر أعطى النبيُّ ﷺ الرايةَ لعليٍّ وقال له: « انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ الله تعالى، فَوَالله لأَنْ يَهْدِيَ الله بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرُ النَّعَمِ »[٣].

فتخيّل أيها المسلم عظمةَ الأجر الذي يأتيك بسبب الدعوة إلى الله، تخيَّل إذا هدى الله على يديْك مائة أو ألفًا كم يأتيك من الأجر؟ فكيف لو هدى الله على يديْك ملايين؟ فهنيئًا لك أيها الدَّاعية هذا الخيرُ العظيم، فكيف تنشغل أيُّها المسلم عن الدَّعوة إلى الله

---

(١) م (١٨٩٣/ ١٥٠٦/ ٣) ، د(٥١٠٧/ ٣٧/ ١٤)، ت(٢٨١٠/ ١٤٧/ ٤) .

(٢) م(٢٦٧٤/ ٢٠٦٠/ ٤)، ت(٢٨١٤/ ١٤٩/ ٤)، د(٤٥٨٥/ ٣٦٢/ ١٢)، جه(٢٠٦/ ٧٥/ ١).

(٣) متفق عليه : خ (٣٧٠١/ ٧٠/ ٧) ، م(٢٤٠٦/ ١٨٧٢/ ٤) .

وتتركُ هذا الخيْرَ العظيم؟! أما علمت أنك حين تنشغل بالدَّعوةِ إلى الله تنام ويأتيك أجر، وتموت ويأتيك أجر؟! أفلا يحملك هذا الفضلُ العظيم على ألا تدّخر وسعًا ولا تألوا جهدًا إلا بذلته في الدعوة؟ ألا يحملك هذا الفضلُ العظيم أن تدعُوَ الناس سرًا وجهارًا، وليلاً ونهارًا؛ طمعًا في هذا الأجر العظيم الذي هو خيرٌ لك من الدنيا ومافيها؟

أنسيتَ قولَ الله تعالى: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ [يونس:٥٨]. وأيُّ فضلٍ عليك أعظم من أن يصْطَفِيكَ الله ويجْتَبيكَ للعمل في الدَّعوة إليه؟ أما تعلم أنَّ هذا العملَ عملُ المرسلين الذين اصطفاهم الله من خلقه، وعملُ المصطفْين من أتباعهم؟ فكما اصطفى الله الأنبياءَ من جملة الخلْق للقيام بواجب الدعوة إليه اصطفى سبحانه من جملة الأتباع من يقوم بهذا الواجب أيضا.

إنك والله لو عقِلْتَ لبكيتَ على عدم كوْنك من الدعاة، لأنك لست من المصطفْين، إذا كان النبيُّ ﷺ يقول: « **مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ** »[1] فَفُهِمَ منه أنَّ من لم يتفقَّه في الدِّين لم يُرد الله به خيرا، فكيف بمن تفقّه في الدين وفقّه الناس فيه؟ كيف بمن تعلّم وعلّم؟ إنه والله لمغبوط، كما قال ﷺ: « **لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ الله مَالاً فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ وَرَجُلٌ آتَاهُ الله الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا** »[2].

ثم اعلم يا عبْدَ الله أنَّ الدَّعوةَ إلى الله عز وجل من فروض الدِّين وواجباته الكفائيَّة، التي تجب على عموم الأمة، فإنْ قام بها من يكفي سقط الإثمُ عن الباقين، وإن اتَّفَقُوا على تَرْكها، أو قام بها من لم يكف قيامُه بها أثموا أجمعون.

---

(١) متفق عليه: خ (٣١١٦/ ٢١٧/ ٦)، م(١٠٣٧/ ٧١٨/ ٢)، جه(٢٢٠/ ٨٠/ ١).

(٢) متفق عليه: خ(٧٣/ ١٦٥/ ١)، م(٨١٦/ ٥٥٩/ ١)، جه(٤٢٠٨/ ١٤٠٧/ ٢).

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وإنما لُعن بنو إسرائيل وطُرِدُوا من رحمة الله وباءوا بغضبٍ من الله بتَرْكِهِمُ القيامَ بواجب الدَّعوة إلى الله، قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

ولذا حذّر النبيُّ ﷺ من الاتِّفاقِ على تَرْك القيام بواجب الأمْرِ بالمعروف والنَّهْيِ عن المنكر، فقال ﷺ: « مَثَلُ الْقَائِمِ فِي حُدُودِ الله وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فصار بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، وَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ تركُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا »[١].

وقال أبو بكرٍ ﷺ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقول: « إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ الله بِعِقَابٍ مِنْهُ »[٢].

---

(١) متفق عليه: خ(٢٤٩٣/ ١٣٢/ ٥)، ت(٢٢٦٤/ ٣١٨/ ٣).

(٢) صحيح: [ص.د: ٣٦٤٤]، د(٤٣١٦/ ٤٨٩/ ١١)، ت(٥٠٥٠/ ٣٢٢/ ٤)، جه(٤٠٠٥/ ١٣٢٧/ ٢).

فالدَّعْوَةُ إلى الله من فروض الكفاية إذا قام بها من يكفي حاجةَ الناس سقط الحرج عن الجميع، فإذا كان بالناس حاجةٌ ولم يكف القائمون بالدَّعوة حاجتهم لم يسقط الواجب عن الأمة وتعيِّن على كلٍّ من يقوى على النهوض بهذا الواجب أن ينهض به.

وقد تتعين الدَّعْوَةُ على شَخْصٍ أو أشخاصٍ في مكانٍ لا يوجد غيرُهم يدعو إلى الله على بصيرة، فيتعيّن عليهم أن يقوموا بهذا الواجب وإلا أثموا أجمعون.

هذه هي الدعوة وفضلها وحكمها.

أمّا إلى ما تكون؟ فإنَّ الله تعالى قال في هذه الآية: ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ** ﴾ وقال في أية أخرى: ﴿ **وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ** ﴾ [القصص:٨٧].

ووصفَ النبيَّ ﷺ بكونه ﴿ **وَدَاعِيًا إِلَى الله** ﴾ [الأحزاب:٤٦]، وأمره أن يصدع بذلك، فقال: ﴿ **قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى الله** ﴾ [يوسف:١٠٨]، وقال له: ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾ [المؤمنون:٧٣].

فالدَّعوةُ لا تكون إلا إلى الله، وإلى سبيل الله، وإلى صراط الله، ولاتجوز الدَّعوةُ إلى سبيل فلانٍ أو طريق فلان، ولا إلى مذهب فلان، ولا إلى رأي فلان، ولا تجوز الدَّعوةُ إلى حزبٍ أو تنظيمٍ أو جماعة، بل يجب أن تكون الدَّعوةُ إلى الله، وإلى سبيل الله.

قال ابن تيمية – رحمه الله– : أمر الله سبحانه نبيَّه بالدَّعْوةِ إلى الله تارةً، وتارةً بالدعوة إلى سبيله، وذلك أنه قد عُلِمَ أن الداعي الذي يدعو غيره إلى أمرٍ لابد فيما يدعو إليه من أمرين:

الأول: المقصود المراد.

والثاني: الوسيلةُ والطريق الموصِّلَة إلى المقصود.

فلهذا يذكر الدعوةَ تارةً إلى الله، وتارةً إلى سبيله، فإنه سبحانه هو المقصود المراد بالدعوة.

فالدَّعوةُ إلى الله تكون بالدَّعَوةِ إلى دينه الذي هو درجاتٌ ثلاث: الإسلام، والإيمان والإحسان، والإسلام هو أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، وتقيمَ الصلاة، وتُؤْتيَ الزكاة، وتصومَ رمضان، وتحجَّ البيت.

والإيمانُ هو الإيمانُ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر.

والإحسانُ أن تعبُدَ الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك.

فهذا الدّين الذي بعث الله به محمدًا ﷺ؛ ولذا لما سأل جبريلُ النبيَّ ﷺ عن هذه الثلاثة وأجابه بما ذُكر، قال النبي ﷺ بعد انصرافه: « **ذَاكَ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أمر دِينِكُمْ** »[1].

" وأما سبيلُ الله: فهو ما رسَمُه الله سبحانه وأنْزلَه على رسوله فكان قرآنًا وكان سنَّةً، وسبيلُ الله بحسب القرآنِ الكريم والسنَّةِ الشريفة يتبلْوَرُ ويتمرْكَزُ في:

- التَّوحيد في مجال العقيدة.
- الرَّحمة في مجال الأخلاق.
- العدْل في مجال التشريع.

---

(١) م (٨/ ٣٦/ ١)، ت(٢٧٣٨/ ١١٩/ ٤)، د(٤٦٧٠/ ٤٥٩/ ١٢)، ن(٩٧/ ٨)، جه(٦٣/ ٢٤/ ١)، وقد شرحت هذا الحديث في كتاب سميته (أكمل البيان في معنى الإسلام والإيمان والإحسان) .

وسبيلُ الله كما صوّره جعفرُ بنُ أبي طالب: توحيدُ الله وعبادتُه وحده، وصدْقُ الحديث، وأداءُ الأمانة، وصِلَةُ الرَّحم، وحُسْنُ الجوار، والكفُّ عن المحارم والدِّماء، وإقامُ الصلاة، وإيتاءُ الزكاة، والصيام، والبعدُ عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة "(١).

وأما وسائل الدعوة: فإنها الحكمة، والموعظةُ الحسنة، والجدَلُ الأحسن، وإنما تنوَّعتِ الوسائلُ لتنوّعِ أصنافِ المدْعُوِّين، فالمدعوُّون – وهم النَّاس كافة – على ثلاثة أقسام:

" **الأول:** الكاملونَ الطَّالبون للمعارفِ الحقيقيَّةِ والعلومِ اليقينيَّة، وهؤلاء يُدعون بالحِكْمَةِ وهي الدلائلُ القطعيَّة اليقينيَّة.

الثاني: الذين تغْلِبُ على طباعهم المُشَاغَبةُ والمُخَاصَمةُ لا طلبُ المعرفة الحقيقيَّة والعلوم اليقينيَّة، وهؤلاء يجادلون المجادلَة التي تُفْحِمُهم وتُلْزِمُهم.

الثالث: الذين لم يَبْلُغُوا في الكمال حدّ الحكماء، ولا في النقصان حدّ المشاغبين المُخاصمين، بل هم قومٌ بَقَوْا على الفِطْرَةِ الأصيلة والسلامة الخِلْقية، وما بلغوا درجةَ الاستقراء لفَهْمِ الدلائلِ اليقينيَّة والمعارفِ الحكميَّة، وهؤلاء يُدْعَوْنَ بالموعظة الحسنة.

ولما كانت الحكمةُ أعْلَى الدلائل وأشرَفَها، والمدعوون بها هم الكاملون الطالبون للمعارف الإلهيَّة والعلوم الحقيقيَّة، وقليلٌ ماهم، جيء بها أولاً، ولكوْنِ الجَدلِ أدْنى الدلائل، إذ ليس المقصودُ منه الدَّعوة، وإنما المقصودُ إلْزَامُ الخَصْمِ وإفْحَامه، ولا يُسْتَعَملُ إلا مع الناقصين الذين تغْلِبُ عليهم المُشاغَبةُ والمُخاصَمة، وليسوا بصدَدِ

---

(١) الجهاد في الإسلام: د. عبد الحليم محمود (ص ٨-١٠).

تحصيلِ تلك العلومِ ذُكر آخرًا؛ ولكوْنِ الموعظةِ الحسنة دونَ الحِكْمةِ وفوْقَ الجدل، والمدْعوُّون بها هم المتوسّطون الذين لم يبْلُغوا في الكمال حدَّ الحكماء، ولا في النَّقْصِ درجةَ الجدال، وسِّطَتْ بيْنَ الأمريْن.

وعلى ذلك يكون معنى الآية: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ... ﴾ أي: " ادع الأقوياءَ الكاملين إلى الدِّين الحق بالحكمة وهي البراهينُ القطعيَّة اليقينيَّة، وعوامَّ الخلق بالموعظةِ الحسنة وهي الدلائلُ اليقينيَّة الإقناعيَّة الظنيَّة، وتكلَّم مع المُشاغبين بالجدل على الطريق الأحسنِ الأكمل، ولا تحْقِدْ عليه، ولا تغلظ له القول، ليعلم أن ليس غرضُكَ إهانتَه وإفْحَامَه، وإنما غرضُك إقناعُه والوصولُ به إلى الحق "[1].

وعليْك أيُّها الدَّاعيةُ أن تتفرَّس في المدعوِّين فتعرفَ بفطْنَتِك أصنافَهم والوسيلةَ التي تناسبهم، كما عليْك أن تتفرَّس فتعرِفَ بحِكْمتك ما يناسبهم فتدعوهم إليه وتذكِّرهم به، فلا تتكلم معهم في موضوعٍ لا ينفعُهم ولا تترك مايحتاجونه.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا السدادَ في الرأي، والإصابةَ في القول، وأن يرزقنا الحِكْمة، إنه وليّ ذلك والقادر عليه.

ثم قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل:١٢٥]، أي: " اشْتَغِلْ أنتَ بالدَّعْوَةِ ولا تَطْمَعْ في حُصول الهدايَةِ للكلِّ، فإنَّ ربَّك هو العالِمُ بضلالِ النُّفوسِ الضَّالَةِ الجاهلة، وبإشْراقِ النُّفوسِ المشْرِقَة الصَّافية، فلكلِّ نفْسٍ فطرةٌ مخصوصة، وماهيَّةٌ مخصوصة "[2]. " فمن كان فيه خيرٌ كفاه

(١) انظر " التفسير الكبير " للرازي (١١٠ و١٤٠/ ٢٠)، وروح المعاني (٢٥٦/ ١٤).

(٢) التفسير الكبير (١٤٢/ ٢٠).

الوعظُ القليل والنَّصيحةُ اليسيرة، ومن لا خيرَ فيه عجزتْ معه الحِيَلُ وكأنَّك تضرب في حديد بارد "[١] ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [فاطر:٨] فربُّك أعلم بهم، وإنما أمَرَك بدعوتهم قطعًا للمعْذرة، وإقامةً للحُجَّة، وإزاحةً للشُّبهة، وليس عليك إلا هذا ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾ [الغاشية:٢١- ٢٤].

وهنا لطيفة: وهي أنَّ الله تعالى قدَّم ذكر الضَّالين " لأنَّ الكلامَ فيهم، وذَكَر الضَّلالَ بصيغة الفعل " ضَلَّ " دون الاسم " الضالين " لأنَّ صيغةَ الفعل تدلُّ على حدوث الضَّلال لأنه تغييرٌ لفِطْرة الله، وإعراضٌ عن الدَّعوة، وذلك أمرٌ عارض، بخلاف الاهتداء الذي هو عبارةٌ عن الثبات على الفطرة والجَريانِ على موجب الدعوة، ولذلك جيء به على صيغة الاسم المفيد للثبات "[٢].

وهكذا تبين لنا أنَّ الله تعالى أدرج في هذه الآية هذه الأسرارَ العالية الشريفة، فسبحان من هذا كلامه.

---

(١) الكشاف للزمخشري (٢/ ٣٤٩).

(٢) روح المعاني (١٤/ ٢٥٧).

سورة نوح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ للهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا (٢٠) قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلاَلاً (٢٤) مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ

الله أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا ﴿٢٨﴾ ﴾

إنَّ أحسنَ كلمةٍ تُقال هي الدَّعْوَةُ إلى الله، وأحسنَ عملٍ يؤدّيه الإنسانُ هو الدَّعْوَةُ إلى الله، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى الله وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣]. أي لا أحدَ أحْسَنُ منه قولاً.

والدَّعوةُ إلى الله وظيفةُ المُصْطَفَيْنَ الأخْيار وأتباعِهم، قال تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى الله عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف:١٠٨].

والدَّعوةُ إلى الله لها قواعدُ وأصولٌ يجبُ على من أراد القيامَ بالدَّعْوَةِ أن يتعلَّمها أوَّلاً وقبلَ أن يخوضَ غِمارَ الدَّعوة، كما أنَّ عليه أن يستفيدَ من تجارُبِ الدُّعاةِ قبله.

وسورةُ نوحٍ من السُّوَرِ التي تضمَّنت شيئًا من قواعدِ الدَّعوةِ وأصُولها، وشيئًا من تجْربةِ الدَّاعيةِ الأول، نوحٍ عليه السلام، أوْحى الله بها إلى نبيِّه محمدٍ ﷺ، ليستفيدَ منها هو والدُّعاةُ من بعده.

استُفْتحتِ السُّورةُ ببيانِ مصْدرِ الإرْسالِ ومصْدَرِ التَّكليف بالدَّعْوَةِ ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾ [نوح: ١]، فالمرْسِلُ هو الله سبحانه، وليست هناك جهةٌ يصْدُرُ منها التَّكليفُ بالدَّعوةِ غيرُ الله سبحانه، وتتلخَّص رسالةُ نوحٍ في قولِهِ تعالى: ﴿ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [نوح: ١]، والإنذارُ هو الإعْلاَمُ المتضمِّنُ التَّخْويف، وهو المناسِبُ لقوْمِ نوح، إذ كانُوا على شفا حُفْرَةٍ من النار، لِمَا وقعوا فيهِ من

الشِّرْكِ وعبادةِ الأصنام، ولَمَّا كان الله تعالى لا يُعذِّبُ حتى يبعثَ رسولاً، فإنَّ الله تعالى بعثَ نوحًا إلى قومه، يدْعوهم إلى التَّوحيد، ويُنْذِرُهم عذابَ الله إنِ استمرُّوا على الشِّرْك، فـ ﴿قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [نوح: ٢]، أي: بيّن النِّذراةِ، ظاهِرُ الأمرِ واضحهُ، ﴿أَنْ اعْبُدُوا الله وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٣].

وهكذا يجبُ أن تكونَ الدَّعْوة، يجبُ أن تكونَ الدَّعوةُ إلى الله، إلى عبادتِه وتقواه، وإلى طاعةِ رسولِهِ واتِّباعِه، ولايجوز أن تكونَ الدَّعوةُ إلى غَيْرِ هذه الثلاثةِ أبدا، لايجوزُ أنْ تكونَ الدَّعوةُ إلى عبادةِ غيْرِ الله، ولايجوز أن تكونَ الدَّعوةُ إلى غيْرِ رسُولِ الله، لايجوز أن تكونَ الدَّعوةُ إلى مذْهبٍ، ولا إلى رأْيٍ، ولا إلى حِزْبٍ، ولا إلى جماعةٍ، ولا إلى شيخٍ، ولا إلى إمامٍ، يجبُ أن تكونَ الدَّعوةُ إلى عبادةِ الله وحْدَه، وطاعةِ رسولِهِ وحْدَه.

والذي يقرأُ القرآنَ يجدُ أنَّ الأنبياءَ جميعا وهم حَمَلةُ رايةِ الدَّعْوةِ إلى الله، قد اتَّفقوا في الدَّعْوةِ على كلمةٍ واحدة، يقولُها كلُّ نبيٍّ لقومه، وهي: ﴿يَاقَوْمِ اعْبُدُوا الله مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٥٩]، ولم يكن هذا الاتِّفاقُ من المرْسَلين أنْفُسِهم، لأنَّهم لم يجْتَمِعُوا يوْمًا ما، ولكن لما كانَتْ جِهَةُ الإرْسالِ واحدةً، وجهةُ التَّكليفِ واحدةً، وهي الله، والله وحْدَه، فقد كلَّفَ الله رُسُلَهُ أجْمعين بالدَّعوةِ إلى شيءٍ واحدٍ، وهو عِبَادَةُ الله وحْدَه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا الله وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [بالنحل:٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

﴿ أَنْ اعْبُدُوا الله ﴾ وحْدَهُ ﴿ وَاتَّقُوهُ ﴾ بفِعْلِ ما أمر، واجْتنابِ ما نَهى عنْه وزجر، ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ في كلِّ ما آمرُكم وأنْهاكم، فإنِّي لا آمرُكم ولا أنْهاكم إلا بإذْنِ الله، فطاعةُ

رسُولِ الله طاعةٌ لله، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النساء: ٨٠].

ثم رغبهم في الاسْتِجَابة، فبيَّن لهم مالهم إذا استَجابوا، فقال: ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ [نوح: ٤]، أي: إنِ استَجَبْتُم لي، وقَبِلتُم هذه الدَّعوَة، فعبدْتُم الله وحْدَه، واتَّقَيْتُم سخطَه وعذابَه بتَرْكِ الشِّرْك، فإنَّ الله ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أي يمدُّ في أعمارِكم ويدْرَأُ عنكمُ العذابَ الذي اسْتَوْجَبْتُموه بكُفْرِكم.

﴿ إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [نوح: ٤]، وهذا ترغيبٌ في الاستجابة، ومعناه: بادِرُوا بالطَّاعةِ قبلَ حلُولِ النِّقْمَة، فإنه إذا أمرَ الله تعالى بعذابكم فـ﴿ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ [الطور: ٨]، لأنَّ الله إذا قضى شيئًا فلا رادَّ لقضائه، ولا مُعَقِّب لحُكْمِه، ولاغالبَ لأمْرِه، ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾

[نوح: ٥ – ٩].

وهكذا يجبُ على الدَّاعيةِ أن يحْمِلَ هَمَّ الدَّعوةِ ليلاً ونهارا، وأن لا يفْتُرَ عن الدَّعْوةِ ولا يقْعُدَ عنْها أبدا، وأنْ لا يَيْأَسَ مِنَ الناس، وإنْ صرَّحوا له بعدَمِ اتِّباعه.

ولِمَ الإصْرارُ منْ نوحٍ على هذه الدَّعْوة؟ أيُّ مصْلَحةٍ يرْجُوها؟ وأيُّ مَكْسَبٍ يُحقِّقه، وأيُّ غايةٍ يطْمَعُ فيها؟.

إنَّه – والله – لم يكنْ يطْمَعُ في شيءٍ سِوَى أن يقومَ بما كلَّفه الله به، وأن يُشْهِدَ ربَّه أنه ما قصَّر، وأنه بلَّغ، وهذا هو الذي يمْلِكُه، ولا يمْلِكُ قُلوبَ النَّاس، ومع أنَّهم كانوا يَفرِّون منه، إلاَّ أنَّه كان دائمًا يتحيَّنُ الفُرَصَ، فيغْشاهم في مجالسهم، فإذا فاجأهم ﴿ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾ لئلا يسْمَعوا ﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ حتَّى لا يعْرِفَهم، ﴿ وَأَصَرُّوا ﴾ على الكفر، ﴿ وَاسْتَكْبَرُوا ﴾ عن الإيمان ﴿ اسْتِكْبَارًا ﴾.

ومع هذا الإصْرارِ لم يتْرُكْ نوحٌ دعْوتَهم، بل استمرَّ فيها، كما قال: ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ ﴾.

وهكذا يُعلِّم نوحٌ الدُّعاةَ الإصْرارَ على الدَّعوة، وإن أصرَّ المدعوّون على رَفْضِها، لا لشيءٍ إلا طمعًا في الأجر الذي وصفه النبيُّ ﷺ بقوله: « لأَنْ يَهْدِيَ الله بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرُ النَّعَم »[1]، وإلاَّ حِرْصًا على نجاة المَدْعوِّين – الذين يرْفُضُونَ الدَّعوة – من النَّار، لأنهم يعْلَمُونَ عِلمَ اليقين، أنَّ مَنْ رفضَ دعْوَةَ الرُّسل، فقد وجَبتْ له النَّار، كما قال النبيُّ ﷺ: « مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا فَجَعَلَ الجَنَادِبُ وَالفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا، وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي »[2].

لذلك كان نوحٌ مُصِرًّا على الاسْتِمْرارِ في الدَّعوة مع إصْرارِ قوْمِهِ على عَدمِ قَبُولها. وبهذا أمرَ الله نَبيَّنا محمَّدا ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَل إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ [فصلت: ٥]، أي: فاعْمَل أنتَ على طريقَتِكَ، ونحْنُ على طريقَتِنا، فلَن نتَّبِعَك أبدًا، ولنْ نُؤْمِنَ لك أبدا.

(١) متفق عليه: خ(٣٧٠١/ ٧٠/ ٧١)، م(٢٤٠٦/ ١٨٧٢/ ٤)، د(٣٦٤٤/ ٩٥/ ١٠).

(٢) م(٢٢٨٥/ ١٧٩٠/ ٤).

هكذا قالوا، ومعَ ذلك يأمرُ الله نبيَّه ﷺ أن يدْعُوَهم إلى التَّوْحيدِ والاسْتِقامةِ فيقولُ له عَقِبَ قَوْلِهِم ذلك: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [فصلت:٦].

وفي هذا تعليمٌ للدُّعاةِ أن لا يتْرُكوا الدَّعْوَة لمجرَّدِ قَوْلِ المَدْعُوِّين أو بعْضِهم: لنْ نُؤْمِنَ لكم. فإنَّ الأمْرَ ليس إليْهم، وقُلوبَهم ليسَتْ بأيدْيهم، وإنَّما كما جاء في الحديث: « قُلُوبُ العِبَادِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، يُقَلِّبُها كَيْفَ شَاءَ »[1]. وكم من كافرٍ حاربَ الرسول ﷺ، وحاربَ الدَّعوةَ، وقتَل المُسْلِمينَ، ثُمَّ شرَح الله صَدْرَهُ للإسْلام.

متى أسْلَمَ الفارُوقُ عمر؟ ومتى أسْلَمَ سيْفُ الله المَسْلُولُ خالد؟ ومتى أسْلَمَ أبو سُفْيانَ وابنُه مُعاوية؟ وغيرُهم مِنْ أمثالِهم كثير.

فعلى الدَّاعِيَةِ أن لا يَيْأَسَ مِنَ النَّاس أبدًا، وعليْه أن لا يهتمَّ بكَثْرَةِ الأتْباع، فإنَّ نوحًا عليه السلام، لَبِثَ في قوْمِهِ ألفِ سنَةٍ إلا خمسينَ عامًا، فما آمنَ معَهُ إلا قليل.

وقد يستعْظِمُ بعْضُ النَّاسِ هذا الجُهْدَ المتواصلَ الذي بذله نوحٌ عليه السلام، ويستقلُّ هذه النتيجةَ. جُهْدُ ألفِ سنَةٍ، ومحصِّلَتُه، ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [هود:٤٠].! ولكنَّنا نقول: إنَّ إيمانَ واحدٍ فقَطْ أعْظَمُ مِنْ جُهْدِ ألفِ سنة.

أساليب الدعوة:

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لله وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ الله سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾

(١) صحيح: [ص. ت: ٢١٤٠]، ت(٢٢٢٦/ ٣٠٤/ ٣)، جه(٣٨٣٤/ ١٢٦٠/ ٢).

وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٠-٢٠].

هـذه الآيـاتُ تُعلِّمُ الـدُّعاةَ أسـاليبَ الـدَّعْوةِ، وأنّ عـلى الدَّاعِيَـةِ أن يسْـتَخْدِمَ في الـدَّعْوةِ الأسْـلُوبَ المُناسِـبَ، فيسْـتَخْدِمُ التَّرْغيـبَ تـارةً، والترهيـبَ تـارةً أخـرى، ثُـمَّ يُرْشِدُهم إلى آياتِ الله في الآفاقِ وفي أنْفُسِهم حتَّى يتبيَّن لهم أنَّهُ الحقُّ.

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ أي كثيرَ المَغْفِرَةِ لِمَن اسْتَغْفَره، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠].

وفي الحديثِ عنِ النبيِّ ﷺ عن ربِّه أنّه قال: « يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي. يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي. يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»[1].

هذا آجِلُ ثَوابِ الاسْتِغْفار، وأمَّا عاجِلُه: ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ أي مُتَواصِلَةَ الأمْطار. فالأمْطَارُ تَحْبِسُها الذُّنوبُ، وتُرْسِلُها التَّوْبَةُ. ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ أي: إذا تُبْتُمْ إلى الله واسْتَغْفَرْتُموهُ وأطَعْتُموه كثَّر الرِّزْقَ عليكم، وأسْقَاكم من بركاتِ السماء، وأنْبَتَ لكم من بركاتِ الأرْض، وأنْبَتَ لكم الزَّرْع، وأدرَّ لكم الضَّرع، وأمدَّكم بأمْوالٍ وبنين، أي أعْطاكمُ

(١) صحيح: [ص. ت: ٣٥٤٠]، ت (٣٦٠٨/ ٢٠٨/ ٥).

الأمْوالَ والأَوْلاد، وجعلَ لكم جناتٍ فيها أنواعُ الثِّمار، وخللها بالأنهار الجارية بينها."[1]

والرَّبْط بَيْنَ الاسْتِغْفارِ وسَعةِ الرِّزْقِ قد ذُكِرَ في القُرْآنِ الكريم في أكْثَرَ من موضع، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف:٩٦].

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٦٥، ٦٦].

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

ولذا كان الأنبياءُ يأمرون أقوامَهم بالاستغفار، كما أمر به نوحٌ قومَه، قال تعالى عن هودٍ عليه السلام: ﴿ وَيَاقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ [هود: ٥٢].

وقال عن نبيِّنا محمدٍ ﷺ: ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ [هود:١-٣].

---

(١) ابن كثير (٤٢٥/ ٤).

هذا أسلوبُ التَّرغيب، ثم انتقل نوحٌ عليه السلام إلى أسلوبِ التَّرهيب فقال: ﴿ **مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لله وَقَارًا** ﴾، قال ابنُ عباس: لا تُعظِّمون الله حقَّ عظمته، أي: لا تخافون من بأسه ونقمته.

ثم انتقل بعد ذلك إلى تنبيههم إلى آياتِ قُدْرَةِ الله وعظمتِه في أنفسهم فقال: ﴿ **وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا** ﴾، وهذه الأطوار قد فُسِّرَتْ في سورة الحجِّ والمؤمنون.

قال تعالى: ﴿ **يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ البَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا** ﴾ [الحج: ٥].

وقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ تُبْعَثُونَ** ﴾ [المؤمنون:١٢-١٦].

وقال تعالى: ﴿ **فَلْيَنظُرْ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ** ﴾ [الطارق:٥].

وقال تعالى: ﴿ **وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ** ﴾ [الذاريات:٢١،٢٠].

ولَمَّا لفت أنظارَهم إلى آياتِ الله في أنفسهم، لفتَها بعد ذلك إلى مافي الكوْن من آيات، فقال: ﴿ **أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ الله سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا** ﴾ [نوح:١٥، ١٦].

كما قال تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ [الملك: ٣- ٥].

وقال تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ۝ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۝ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٣٧- ٤٠].

وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ۝ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾

[الفرقان: ٦١، ٦٢].

ثم يُلفِتُ أنظارَهم إلى النَّشْأةِ الأولى التي يستدلُّ بها على النشأة الآخرة، فيقول: ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ [نوح: ١٧،١٨]، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

وفي حديث البراءِ بنِ عازبٍ الطويل في وصف قَبْض رُوحِ المؤْمن والكافر، قال ﷺ في حقِّ العبْدِ المؤمن: « فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى ».(١)

(١) صحيح: [الجنائز: ١٥٩]، حم (٥٣/ ٧٤/ ٧)، د(٤٧٢٧/ ٨٩/ ١٣).

وقوله: ﴿ وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا ۝ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا ﴾ [نوح:١٩، ٢٠]، يعني أنَّ الله هو الَّذي جعل لكم الأرْضَ ذلولاً، ومُمَهَّدةً لِتَسْتقرُّوا عليها، وتَسْلُكوا فيها أين شِئْتُم من نواحيها وأرجائها وأقطارها.

ومُرَادُ نُوحٍ عليه السلام من ذلك كلِّه أن يجعلَهم يُقِرُّونَ بتوحيد الإلهيَّة كما كانوا مُقرِّين بتوحيد الرُّبوبيَّة، لقد كانوا مُقرِّين بأنَّ الله هو الذي خلقَ سبْعَ سمواتٍ طباقًا وأنه هو الَّذي جعل الأرْضَ بساطا، وأنه الَّذي خلقهم ورزَقهم، ثم كانوا يعبدُون مع الله الأصنامَ والأوْثان، فكان مرادُ نُوحٍ عليه السلام مِنْ لَفْتِ أنظارهم إلى دلائلِ عظَمةِ الله أن يتحصَّل منهم على الإقْرارِ بأنَّ الله يجب أن يُعْبَدَ وحده كما خلَقَ وحده.

ومع طُول المُدَّة وتنوُّعِ الأساليب، كانت النَّتيجةُ العِصْيانَ والتَّمرُّد، والتَّواصِيَ بالكفر. ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا﴾ [نوح:٢١]، اتَّبعوا سادتَهم وكبراءَهم الذين يدْعُونهم إلى النار، وعَصَوْني وأنا أدْعوهم إلى العزيز الغفار. ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [نوح:٢٢] ، مكْرًا متناهِيًا في الكِبَر، مكَرُوا لإبْطالِ الدَّعوة، وإغْلاق الطَّريق في وجْهها إلى قُلوب الناس، ومكَروا لتزْيين الكفْرِ والضَّلال والجاهليَّة التي تخبَّط فيها القوم، وكان مِنْ مَكْرِهم تحريضُ النَّاسِ عَلى الاسْتِمْسَاكِ بالأصنام التي يُسمُّونها آلهة: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ بهذه الإضافة: ﴿ آلِهَتَكُمْ ﴾ لإثارة النَّخْوَةِ الكاذبة والحَمِيَّةِ الآثمةِ في قلوبهم، وخصَّصُوا من هذه الأصنام أكْبرَها شأنا، فخصُّوها بالذِّكر لِيُهيِّجَ ذِكْرُها في قلوب المُضلَّلين الحَمِيَّةَ والاعتزاز. ﴿ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: ٢٣]، وهي أكبرُ آلهتهم التي ظلَّت تُعْبَدُ في الجاهليات بعدهم إلى عهد الرسالة المحمدية.

روى البُخاريُّ ﷺ في الصحيح بسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قال: « صَارَتِ الأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي العَرَبِ بَعْدُ، أَمَّا وَدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ كَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالجُرُفِ عِنْدَ سَبَإٍ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ، لآلِ ذِي الكَلاَعِ. أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلْمُ عُبِدَتْ ».[1]

وقولُه تعالى: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢٤]، يعني الأصنامَ التي اتَّخذُوها، أَضَلُّوا بها خَلقًا كثيرًا، فإنه استمرت عبادتُها في القرون إلى زماننا هذا في العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم، وقد قال الخليلُ ﷺ في دعائه ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦].

ولقد كان تصريحُهم في هذه الوصيَّةِ ﴿لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ إشارةٌ لنُوحٍ ﷺ أنَّ القَوْم لاخَيْرَ فيهم، بل إنَّ الله أَوْحَى إليه بما تُشِيرُ إليه هذه الوصيَّة، كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود:٣٦].

وهنا وجد نوحٌ ﷺ هذا الدُّعاءَ ينْبعثُ من قَلبه: ﴿وَلا تَزِدْ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً﴾ [نوح:٢٤].

وقبل أن يُتِمَّ الدُّعاءَ يذْكُرُ الرَّبُّ سبحانه ما أحاط بالقَومِ من العذاب فقال: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ الله أَنْصَارًا﴾ [نوح:٢٥].

(١) خ (٤٩٢٠/٦٦٧/٨).

وقد ذكر سبحانه في سورة أخرى، كيف أغرقوا فقال: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١١-١٤].

وفي قوله تعالى: ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ إشارةٌ إلى عذاب القبر، الذي يُؤْمِنُ به أهلُ السنَّة والجماعة، لمن كان له أهْلاً، كما يؤمنون بنعيم القبْرِ لمن كان له أهلا. نسأل الله أن يجيرنا من عذاب القبر وعذابِ النار، وأن يجعلَ قبورَنا روْضَةً من رياض الجنة.

ووجْهُ الاسْتِدْلال على عذابِ القبْرِ من هذه الآية: أنَّ الله رتَّب دخولَهم النَّار بعد غَرَقِهم بالفاءِ التي تفيدُ التَّرْتِيبَ مع التَّعقيب، ومعلومٌ أنّ نارَ الآخِرَة لم يدْخُلوها بعْدُ، فدلَّ ذلكَ أنَّ النَّار التي دخلوها بعدما أغرقوا هي نار القبر، أعاذنا الله وإخواننا المسلمين منها.

وممَّا يدلُّ على ذلك أيضًا، قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[الأنعام:٩٣].

وفي نهايةِ المطاف وبعْدَ هذا الجَهْدِ الذي بذلَه نوحٌ عليه السلام في دعْوةِ قومِه، يتوجَّه عليه السلام إلى ربِّه يطْلبُ منه أن يغفِرَ له، فعسى أن يكونَ قد وقعَ منه خطأٌ أو تقصير: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ فأنا بحاجةٍ لمغْفِرَتك، ولا غنى بي عن رحمتك.

وهكذا نرى نوحًا عليه السلام وهو رسولُ الله يستغْفِرُ الله، بيْنَما قومُه الكفَرةُ الفَجرةُ يرْفُضون أن يسْتَغْفِرُوا الله، وفي استغفارِه عليه السلام تعليمٌ للدُّعاةِ أن يُنِيبُوا لربِّهم دائمًا بالاسْتِغْفَار، فإنَّهم مهْمَا قدَّموا من تضْحِياتٍ، فإنَّهم مُقَصِّرون.

ولم يَنْسَ نُوحٌ عليه السلام أن يسْتَغْفِرَ لوالديْه وللمؤمنينَ والمؤمنات، فقال: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدْ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨].

ويظْهَرُ منَ اسْتِغْفاره لوالديْه أنَّهما كانا مؤمنيْن، وإلاَّ لرُوجِعَ فيهما كما رُوجع في ولدِه حين قال: ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنْ الْجَاهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٥، ٤٦].

وفي استغفارِه عليه السلام للمؤمنين عامةً ولمن دخلَ بيْتَه مؤمنًا خاصةً ارْشَادٌ وتعليمٌ للمؤمنين ولا سيَّما الدعاة منْهم أن يسْتَغْفِرُوا لأخوانِهمُ المؤمنين إذا استغفروا لأنفُسِهم، وقد قال النبيُّ ﷺ: « مَنِ اسْتَغْفَرَ لِلمُؤْمنينَ والمُؤْمِنَاتِ كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ حَسَنَةً ».[1]

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١].

---

(١) حسن: [ص. ج: ٥٩٠٢]، وعزاه السيوطي للطبراني.

مؤهلات الداعية

قِصّةُ وصُولِ موسى إلى قَصْرِ فِرْعونَ بِمِصْرَ وتربيتُه فيه معروفة: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ۝ وَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص:٧- ٩].

وسَبَبُ خُروجِهِ من مِصْرَ معروفٌ: ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ۝ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ۝ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَامُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ۝ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَامُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ۝ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

[القصص:١٥- ٢١].

وقِصَّةُ زواجِهِ في مدْيَنَ معروفة: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَاأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَاأُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [القصص:٢٣-٢٨]

فلمَّا أرادَه الله لما أرادَه له مِنْ حَمْلِ الرِّسالةِ إلى فرْعَوْنَ حبَّب إليه العوْدةَ إلى مصر، إلى القوم الظَّالمين، الَّذين فرَّ منْهم خائفًا يترقَّب، فاستأذن صِهْرَه، وسارَ بأهله، وفي ليلةٍ مُمْطرَةٍ باردةٍ ضَلَّ موسى الطريق، ﴿ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَامُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٥﴾ فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسَى ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الكُبْرَى ﴾ [طه: ١٠ - ٢٣]

وهكذا أعْلَمَ الله موسى أنَّه اختاره، وأنَّـه يجبُ أن يَعْبُدَ الله، لأنَّـه لا إلَـه إلا هـو، ويجب أن يُقِيمَ الصَّلاَة لذِكْرِ الله، ويجبُ أنْ يعْلَم أنَّ الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيهـا، وأنَّ الله يبعث مَنْ فِي القبور، وعليه أن لا يسْتَمِع لشُبهاتِ المشكِّكينَ في البعْثِ بعْدَ الموْت، فيصدَّه ذلك عن الإيمان به، ثم أرى الله موسى بعضَ الآيـات، العَصا يُلقِيَها فإذا هي حيَّةٌ تسعى، ويدُه يُدْخِلُها في جَيْبِهِ فتخرُج كَفلقَةِ القمر.

وإلى هنا لم يكنْ موسى عليه السلام يعْلَمُ ماذا بعد هذا الاختيار، وإلى من سيُكلَّف المجيء، فإذا الله يقول له: ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ [طه:٢٤]، وموسى رجلٌ تربّى في قَصْرِ فرعون، فهو يعرفه، يعرفُ بطْشَه وجبَرُوتَه، يعرفُ ظُلْمَه وطُغْيَانه، يعرف قَسْوَته وعُنْفَه، فهنالك أدْرَكَ ثِقَلَ التَّكليف، وعِبْءَ الرِّسالة، ومشقَّة التَّبليغ، وعَلِمَ موسى أنه ليْسَ له من نَفْسِه إلا الضَّعْفُ والعَجْزُ، وأنَّه لابدَّ له من مُعينٍ يُعينُه، وناصرٍ ينصُره، وليس إلا الله، فتوجَّه موسى إلى ربِّه الذي اختاره بالدُّعاء، وسأله أن يمْنَحَهُ من المؤهِّلات مابه يجرُؤ على طَرْقِ بابِ فرعون، ومابه يثْبُتُ أمام هذا الطَّاغية، وهو يبلِّغُه رسالةَ ربِّه. **فما هي المؤهِّلاتُ التي طلَبها موسى؟**.

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ [طه:٢٥- ٣٥].

وفي طلب موسى عليه السلام من ربِّه سبحانه هذه المؤهِّلاتِ تعليمٌ للدُّعاة أن لايعتمدوا على قواهم، لا البدنيَّة، ولا اللِّسانيَّة، ولا العلميَّة، وأن يكونَ الدَّاعِيَةُ دائمًا

مُسْتعينًا بربِّه ﷻ، عالِمًا أنه ليس له من نَفْسِه عَوْنٌ ولا نَصْرٌ، وإنَّما العوْنُ والنَّصْرُ والمَدَد والتَّثْبيتُ من الله سبحانه وتعالى، فإذا خرج الدَّاعِيَةُ لدَرْسٍ أو موْعظَةٍ أو محاضرَةٍ أو مُناظَرةٍ أو لزيارةٍ فعليه أن يتوجَّه إلى الله بقَلبٍ سليم، يسأله أن يُمِدَّه بمدَدِه، وأن يَفْتَح عليه، وأن يشْرَح صدْرَه ويُيَسِّرَ أمْرَه.

﴿ **قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي** ﴾ وسِّعْ صَدْرِي حتى أتحمَّل الأذى القَوْلِيَّ والفِعْلِيَّ، ولا أَضيقَ صَدْرًا بما أسمع من أذى، ولا بما ينالُني من أذى، وسِّعْ صدْري حتَّى يسَع كلَّ ما ألقاه من الناس، من الأذى والتكذيب، والسبِّ والشَّتْم، وغَيْر ذلك، فلا يضرُّني أذًى، ولا أضيقُ صدْرًا به، ولا يُصِيبُني هَمٌّ ولا غَمٌّ، فإنَّ واسعَ الصَّدْرِ لا يَحْزَنُ ولا يغْتَمُّ لكلمةٍ يسْمَعُها، أو أذيَّةٍ تُصيبُه، وإنما يتلقَّى الأذى على الرَّحْبِ والسَّعةِ والصَّبْر، ابتغاءَ مرْضَاةِ الله سبحانه وتعالى.

والدَّاعِيَةُ حينَ يضيقُ صَدْرُه يعْجَزُ عن مُواصَلَةِ دَعْوته، والدَّاعِيَةُ الذي يضيقُ صَدْرُه لأقلِّ كلمةٍ يسْمَعُها، وأدنى أذيَّةٍ يُؤْذَاها، داعيةٌ غيْرُ ناجح في دعْوَتِه، ولايمكنُ أبدًا أن يجْنَي ثمرةً من دعوته، لأنَّ النَّاس لا يلتفُّون حوْلَ من يضيقُ صدْرًا بهم، فطبيعةُ النَّاس الزَّلل، وطبيعتُهم الخطأ، وطبيعتُهم التَّقصير، فإذا ضاقَ صدْرُ الدَّاعية لشيءٍ من هذا انصرفَ النَّاس عنه، ولذا كان النبيُّ ﷺ كما وصفه ربُّه: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾ [آل عمران:١٥٩]، ولو كنتَ فظًّا، غليظَ القلب، ضيِّقَ الصَّدْرِ، لا تتحمَّلُ أذَى المؤْذِي، ﴿ **لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾، وكم منْ مُؤْذٍ مُسيءٍ صارَ صديقًا حميمًا، حين رأى الدَّاعيَةَ يتحملُه؟ وكم منْ مُبْغِضٍ صار مُحِبًّا حين رأى الداعيَةَ واسِعَ الصَّدْرِ، حليمَ القلب.

﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ ﴾، اعْفُ عمَّن أساء إليك، اعْفُ عمَّن ظلمك وأذاك، ولا تكْتَفِ بالعَفْوِ، بل ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وسَلِ الله أن يهديَهم، ﴿ خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٩]، ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَالله يُحِبُّ المُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٣، ١٣٤]، ﴿ وَلا تَسْتَوِي الحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت:٣٤]، وهذه مَنْزِلَةٌ عاليَةٌ، ودرَجَةٌ رفيعة، ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت:٣٥].

ولقد كان الحِلم خُلقًا أساسيًّا في أخلاق النَّبيين والمُرْسلين، وتأكد هذا الخُلق في حقِّ نبيِّنا ﷺ، وكلُّنا يعلم أنَّه ﷺ لَقِيَ مِنْ قُرَيْشٍ الكثيرَ الكثيرَ من الأذى، كُذِّب، وأُوذي، وسُبَّ وشُتِمَ، وخُنِقَ حتى كاد يموت، ومع ذلك لما جُعِلَ إليه أَمْرُ هَلاكِهِم لَمْ يأذَنْ فيه.

عَنِ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ : هَل أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: « لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُهُ يَوْمَ العَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَاأَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ عليه السلام، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ الله قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ الله قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الجِبَالِ،

وَقَدْ بَعَثَنِي رَبِّي إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ: إِنْ شِئْتَ أُطْبِقْتُ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا »[1].

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: « كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً، فَنَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ البُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ ! مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ فَالتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ »[2].

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ [طه: ٢٥، ٢٦]، اجْعَل لي من أمري يُسْرًا، فلا أطرُق بابًا إلا يُسِّر لي، ولا أسلُكُ طريقًا إلا يُسِّرَ لي، ومن لم يُيَسِّرِ الله له أمرَه فلا مُيسِّرَ له.

ومِنْ أسبابِ تيْسيرِ الأمُورِ تَقْوَى الله، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]، فإذا تعسَّرَتْ عليكَ الأمورُ، وأُغْلِقَتْ دُونَك الأبوابُ، فاعلم أنَّما أوتيتَ من قِبَلِ نَفْسِك، فراجِعْ حسابَاتِك، وتُبْ إلى ربِّك، وأكْثِرْ من الاستغفارِ، ييسِّرِ الله أمرَك.

ومن تيْسيرِ الله للدَّاعِيَةِ أن يُيَسِّرَ له إتْيانَ البُيوتِ من أبْوابِها، وأن يُيَسِّر له مُخاطَبَة كلِّ إنسانٍ بما يليقُ به، فالنَّاسُ لَيْسُوا سواءً، والأسلوبُ الذي ينْفَعُ مع هذا قد لا ينْفَع مع ذاك، والذي ينْفَع مع الثاني قد لا ينْفَع مع الثالث، فمن تيسير الله للدَّاعِيَة أمْرَه أن يُلهِمَه التَّوفيقَ ليعْرِفَ كيْفَ يُخاطِبُ النَّاس، وكيف يطرُقُ قلوبَهم، وكيف يصلُ إليها.

---

(١) متفق عليه: خ (٣٢٣١/ ٣١٢/ ٦)، م (١٧٩٥/ ١٤٢٠/ ٣).

(٢) متفق عليه: خ(٥٨٠٩/ ٢٧٥/ ١٠)، م (١٠٥٧/ ٧٣٠/ ٢).

وكان في لسانِ موسى عليه السلام شيء، وعَلِمَ أنَّ هذا الشيءَ قد يُعِيقُه عن تَبْليغ الدَّعوة، لأنَّ الدَّعوةَ تحتاجُ إلى لسانٍ طَلْقٍ فصيح، ولُغَةٍ سليمة، فكان من المؤهلاَت التي سألها موسى ربَّه: ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ [طه:٢٧،٢٨]، فلم يسأل عليه السلام ربَّه أن يَحُلَّ جميعَ العُقَد، وإنَّما سأله أن يَحُلَّ عُقْدةً واحدة، حتَّى يفْقَه عَنْه فِرْعَوْنُ وقَوْمُه، وفي هذا تعليمٌ للدَّعاةِ أن يَرْضَوْا بما قسَم الله، وأن لا يسْأَلُوا أكْثَر من الحاجة، فكما قيل: قليلٌ يكْفِيكَ خَيْرٌ من كثيرٍ يُطْغِيك.

وأدرك موسى أنَّ الحِمْل ثقيل، والعِبْء شاقٌّ، فسأل الله أن يشدَّ أزْرَه بأخيه هارون، يُرْسِلُه معه، فقال: ﴿ وَاجْعَل لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴾ [طه:٢٩،٣٠]، قال العلماء: ما كانَ أخٌ أمنّ على أخيه من موسى على هارون.

﴿ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ [طه:٣٢،٣١]، الذي كلَّفتني به، وحمّلتني إياه، كما قال في موضع آخر: ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ [القصص:٣٤].

ثم ذكر موسى العلَّةَ من سؤاله هذا فقال: ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴾ [طه:٣٤،٣٣].

وفي هذا تعليمٌ للدُّعاةِ أن يكونوا أكْثَرَ النَّاسِ ذِكْرًا لله، فالله تعالى أمرَ المؤمنينَ جميعًا أن يذْكُروه ذِكْرًا كثيرا، فقال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا الله ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٤١]، وأوْلى النَّاسِ بذلكَ الدُّعاة، الدُّعاةُ أحْوَجُ النَّاسِ إلى الإكْثَارِ من ذِكْرِ الله، ﴿ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ [طه:٣٥]، ترى ضَعْفَنَا وعَجْزَنَا، وتَعْلَمُ أنَّنا لا نستطيعُ مُجَابهةَ هذا الطَّاغية إلاَّ أن تمدَّنا بمددك، ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى ﴾ [طه:٣٦].

﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ [طه:٤٢]، لا تَفْتُرَا في ذكري، اذكرا قولَك ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴾.

وفي هذا تعليمٌ للدُّعاةِ أن يكونَ الدَّاعِيَةُ مرتبطَ القلبِ بالله ﷻ في كلِّ وقتٍ، وخاصةً عند المُواجَهةِ والقيامِ بواجب الدَّعوة من البيانِ والإرْشاد والتَّعليم، فيتكلَّم لسانُه، وقلبُه يذكرُ الله، ويذكرُ أنَّ قلوبَ العباد بيد الله، وأنَّ هدايتَهم بإذنه، فليُكْثِرْ من ذِكْرِ الله بقلبه أثناءَ خُطْبته ودَرْسه، رجاءَ أن يفتحَ الله له قلوبَ الحاضرين، وينفَعهم بكلامه.

﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۝ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه:٤٣،٤٤]، فالقوْلُ اللَّيِّنُ لا يثير العزَّةِ بالاثم، ولا يُهيِّجُ الكبرياءَ الزائفَ الذي يعيش به الطُّغاة، ومِنْ شأنهِ أن يوقظَ القلبَ فيتذكَّرَ ويخشى عاقبةَ الطغيان.

وفي هذا تعليمٌ للدُّعاة أن يكونَ الدَّاعِيَةُ هيِّنا ليِّنا، إذا تكلَّم تكلَّم بكلامٍ رقيق لين، سهْلٍ رفيق، ليكون أوْقَعَ في النُّفوس وأبلغَ وأنْجع، كما قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥]، ولقد كان ﷺ يحثُّ على الرِّفْق دائمًا ويأمر به.

عَنِ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: بَالَ أَعْرَابِيٌّ فِي المَسْجِدِ فَقَامَ النَّاسُ إِلَيْهِ لِيَقَعُوا فيه، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « دَعُوهُ وَهَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلاً مِنْ مَاءٍ أَوْ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ »[1].

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « إِنَّ الله رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَى العُنْفِ، وَمَا لاَ يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ »[2].

(١) خ (٢٢٠/٣٢٣/١).
(٢) م (٢٥٩٣/٢٠٠٣/٤).

وعَنْهَا أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: « **إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ، وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ** »[1].

وَعَنْ جَرِيرِ بنِ عَبْدِ الله رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: « **مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الخَيْرَ كُلَّهُ** »[2].

وقولُه تعالى: ﴿ **لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** ﴾ [طه: ٤٤]، لعلَّه يتذكَّر أنَّ ما جئتُما به ينفعُه فيقبَله منكما، أو يَخْشَى عذابَ الله إنْ أعرضَ عنكما فيؤمنَ لكما.

وفي هذا تعليمٌ للدُّعاة أن يكونَ الدَّاعيةُ قويَّ الرَّجاء، كبيرَ الأملِ، لا ييأسُ من إيمانِ كافرٍ، ولا يقنطُ من توبةِ عاصٍ، فإنَّ الأملَ والرَّجاءَ هما اللَّذان يُحرِّكانِ الدَّاعيةَ، ويدْفعَانِه إلى بذْلِ الجُهْدِ والتَّضحية، بينما اليأسُ والقنوطُ يُقْعِدَانِ الدَّاعيةَ عن دعْوتِه ويصُدَّانه عنها.

إنَّ للدَّعوةِ ثلاثةَ أهداف:

الهدف الأول: إقامةُ حُجَّةِ الله على العباد، كما قال تعالى عن رسله: ﴿ **رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى الله حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ** ﴾ [النساء: ١٦٥].

الهدف الثاني: أداءُ مافرضَ الله علينا منَ الأمْرِ بالمعْروفِ والنَّهْيِ عن المنكر، كما قال تعالى، حكايةً عن أصحاب السبت: ﴿ **وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا الله مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ** ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

الهدف الثالث: هدايةُ المدْعُوِّين، وهذا يقولُ الله فيه لنبيِّه ﷺ: ﴿ **لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ الله يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

---

(١) م(٢٥٩٤/٢٠٠٤/٤).

(٢) م(٢٥٩٢/٢٠٠٣/٤).

فإذا لم يحصل هذا الهدفُ فلا يتركُ الدَّاعيةُ الدَّعوة، فإنَّ الله فرضَ عليه الدَّعوة ولم يجعل الهدايةَ إليه، فليؤدِّ هو ما عليْه، وليترك ما لله لله، ولا ييأس، ولا يقنط، ولينظر في متأخري الإسلام من الصحابة وموقفِهم من رسول الله ﷺ، متى أسلم عمرُ الفاروق؟ ومتى أسلم سيْفُ الله خالد؟ ومتى أسلم عمرُو بنُ العاص وابنُه عبدالله؟ ومتى أسلم أبوسفيان وابنُه معاوية؟ كلُّ هؤلاء حاربوا رسول الله ﷺ، ولكن انظر كيف كانت عاقبتُهم؟ فليكن الدَّاعِيَةُ دائمًا قويَّ الرَّجاء، كبيرَ الأمل.

﴿ قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴿٤٥﴾ قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه:٤٥، ٤٦]، لا تخافا إنَّني معكما، ومن كان الله معه فلن يُغْلَبَ أبدًا، ولذا لما أتبع فرعونُ موسى بجنوده ﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[الشعراء:٦١، ٦٢].

ولما قال أبو بكرٍ رضي الله عنه للنبيِّ ﷺ إذ هما في الغار: لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُم تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَرَآنا قال ﷺ ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ الله مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]، ومقتضى هذه المعيَّةِ النَّصْرُ والفَوْزُ والغَلَبةُ والتَّمكين، ولذا كتبَ بعْضُ السَّلفِ إلى أخٍ له رسالةَ قال فيها: « يا أخي، إذا كان الله معكَ فمَنْ تخاف، وإذا كان الله عليْك فمَنْ ترجو ».

فعلى الدَّاعيَةِ أن يكون دائمًا مطمئنًا واثقًا من نصْرِ الله له، فليبلِّغ دينَ الله ولا يخْشَى لومَةَ لائم، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ الله وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ الله وَكَفَى بِالله حَسِيبًا﴾ [الأحزاب:٣٩].

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [طه:٤٧، ٤٨].

وهكذا علَّم الله موسى وهارونَ أسلوبًا من أساليب الدَّعْوة: ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ العَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [طه:٤٨]، ومعنى هذا الأسلوبِ أنَّ الداعيةَ لا يجوز له أن يُوجِّه الخطابَ مباشرةً إلى مَنْ يدْعوه، مادام الخطابُ غيرُ المباشرِ يؤدِّي الغرض، فلا تَقُل لتاركِ الصَّلاةِ -مثلاً- يا كافر، تاركُ الصَّلاة ملعُون، فأنْتَ ملعُون، وإذا لم تَتُبْ وتصَلِّ تَصْلَى جهنَّم وساءت مصيرا، لا.. لا.. ليس هذا من أساليب الدَّعوة، وإنما كما علَّم الله موسى وهارونَ: ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ العَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾.

وهكذا أخي الدَّاعية تكونُ الدّعوةُ، فاحْرِصْ على توفيرِ هذه المؤهّلاَتِ في نَفْسِك، واحرص على الانتفاع بهَدْيِ القُرْآن ﴿ إِنَّ هَـذَا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

سورة المدثر

﴿ يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾

سورةٌ مكيَّةٌ: وهِيَ مِنْ أوَّل ما نزلَ مِنَ القرآن، بل هي ثاني سورة بعد العلَق، فَعَنْ جَابِرِ بنِ عَبْدِ الله: أنَّه سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يُحدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الوَحْيِ:« **فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصَرِي قِبَلَ السَّمَاءِ فَإِذَا المَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءِ الآنَ قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ فَخَشِيتُ مِنْهُ حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ فَجِئْتُ أَهْلِي فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي فَزَمَّلُونِي، فَأَنْزَلَ** الله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا المُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ** ﴾ ».[1]

وقد استُفْتِحَتْ بأمْرِ النبيِّ ﷺ، بتَرْكِ النَّوْمِ والفراش، وأنْ يُنْذِرَ قَوْمَهَ مِنْ قبْل أن يأتيَهم عذابٌ أليم، بما وقعوا فِيه من الشِّرْك. ثم وجَّهَتْ ﷺ إلى بعْضِ الأمورِ التي يستعين بها على ما كُلِّفَ به من دَعْوَةِ قوْمِه، وذكَّرَتْهِ ببعْض أهوالِ يوم القيامة، وما يلقاه الكافرون عمُومًا، والوليدُ بنُ المغيرةِ خصوصًا، من العذاب الأليم في سقر، التي جعل الله ﴿**عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ**﴾ [المدثر: ٣٠] من الملائكةِ لحكْمةٍ بيَّنَتْها الآيات.

ثم ذكَرَتِ السُّورَةُ مايكونُ مِنْ أهلِ الجنَّةِ منْ سؤال أهْلِ النَّار: ﴿**مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ**﴾ [المدثر: ٤٢]. وجوابِ أهْلِ النَّارِ على هذا السؤال.

وختمت الآياتُ بالإنْكارِ على المشركين إعراضَهم عن التَّذْكِرَةِ لا لشيءٍ، إلا أنَّهم: ﴿**يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً**﴾ [المدثر: ٥٢].

(١) متفق عليه: خ (٤٩٢٥/ ٩٧٨ و ٩٧٩/ ٨)، م (١٦١/ ١٤٣/ ١).

وليس للإنسان ما تمنى فـ ﴿الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقد أنزل الذِّكْرَ على محمَّدٍ ﷺ ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ۝ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ الله هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ المَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٥،٥٦].

﴿ يَاأَيُّهَا المُدَّثِّرُ ﴾ أي: المتغطِّي بثيابه ﴿قُمْ ﴾ فليْسَ الوقْتُ وقْتَ نَوْمٍ، وليسَ الوقْتُ وقْتَ كسَلٍ ودعة، ﴿قُمْ ﴾ فقد انتهى وقْتُ النَّوْم والرَّاحةِ، وجاء وقْتُ الجُهْدِ والمشقَّة، ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ قومَكَ ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: ١]، فقد صاروا على شفا حُفْرَةٍ من النار، بما هم مقيمُونَ عليه منَ الشِّرْك، واسْتَعِنْ على هذه المُهِمَّةِ الثَّقيلَةِ الشَّاقَّةِ بهذه الأمور:

الأمر الأول: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ فإنَّ الله هو العليُّ الكبير، وكلُّ شيءٍ سواه حقير، وهذه حقيقةٌ من أعظم الحقائق التي يجب أن يستَشْعِرَها الدَّاعية.

يجبُ على كل داعيَةٍ أن يسْتَشْعِرَ دائمًا جلالَ الله، وعظمتَه وكبرياءَه، حتى يشْعُرَ بحقارةِ كلِّ شيءٍ دونه، فلا يهتمُّ به، ولا يكْتَرِثُ به، ولا يخشاه، إنما يخشى الله وحده، ومتى استشعرَ الدَّاعِيَةُ، هذهِ الحقيقةَ مضى في طريقه يُبلِّغ دعْوةَ ربِّه، لا يخاف لومةَ لائم، لأنَّه يعْلَمُ أنَّ ربَّه وحْدَه هو الكبيرُ الذي يستحقُّ أن يكبِّرَه ويُعظِّمَه ويُمجِّدَه، وأن ماسوى الله فشيءٌ صغيرٌ صغيرٌ صغير، لايملك لنفْسِه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نُشُورا.

وهكذا الأنبياءُ عليهم السلام، فهذا نوحٌ عليه السلام يقولُ لقومه: ﴿يَاقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ الله فَعَلَى الله تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١].

وهذا هودٌ عليه السلام، لَمَّا قال له قومُه: ﴿قَالُوا يَاهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ الله وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى الله رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٣-٥٦].

ونبيُّنا محمَّدٌ ﷺ، لما خرج مهاجرًا مع صاحبه أبي بكر، دخلا الغار، وجاء القوْمُ في طَلبهما، حتى انْتَهوا إلى الغار، حتَّى قال أبوبكرٍ: يارَسُولَ الله لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمْ تَحْتَ قَدَمِه لَرَآنَا، فَمَا كانَ مِنْه ﷺ، إلاَّ أنْ قَالَ لأَبِي بَكْرٍ مُطَمْئِنًا: «مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ الله ثَالِثُهُمَا، يَا أَبَا بَكْرٍ لاَتَحْزَنْ إِنَّ الله مَعَنَا»[1] ولَمَّا قيل له ﷺ وللمؤمنين معه يوْمَ حَمْرَاءِ الأَسد: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران:١٧٣]، لم يزدْهم ذلك إلا إيمانًا، كما قال تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣].

الأمرُ الثاني: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ قال المفسِّرون: العربُ تريدُ بطهَارَةِ الثَّوْبِ النَّزاهَة والعِفَّةَ، فتقول: فُلاَنٌ ذَيْلُه طاهِرٌ، يعْنُونَ أنَّه رجلٌ عفيف، وفُلاَنٌ ذَيْلُه نَجَسٌ، يعنون أنه ملطَّخٌ بالقاذورات والفواحش، وعلى هذا فالطَّهارةُ هنا معنويَّة، والمقصود: طهِّر قلبَك، وطَهِّرْ نِيَّتَك، وطهِّرْ صدْرَك، وطهِّرْ أعمالَك، ولا يمنع من أن يكون المرادُ بالآيةِ الطَّهارةَ الحسيَّة، فيكونَ المرادُ طهارةَ الثِّيابِ حتَّى تصحَّ الصَّلاةُ فيها، والله أعلم.

الأمرُ الثالث: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾، المُرادُ بالرُّجْزِ: الأصنامُ والأوْثان، كما قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج:٣٠]، والمعنى: اهْجُرِ الأصنامَ، ولا تقعْ في عبادتها كما وقع قومُك.

وهو ﷺ كان هاجرًا للأصنام منْ صِغَرِه ولم يكن يكْرَهُ شيئًا في حياته كُرهَهُ لها، فالأمرُ بهَجْرِها أمرٌ باستمرار هَجْرِها، ولا يلزم منْ أمْرِه بهَجْرِها أن يكونَ غيرَ هاجِرِها، وإنما هذه الآيةُ كقولِهِ تعالى لنبيّه ﷺ ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ ﴾ [الأحزاب:١]، مع أنَّه ﷺ أتْقَى النَّاسِ لله وأخشاهم له، وكقولِ المؤمنين في صلاتهم: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦]، مع أنَّهم مهتدون.

الأمرُ الرابع: ﴿ وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾، لا تُعطِ العطاءَ تستكثره، سواءٌ ماتُعْطِيه لله، أوْ مَا تُعْطِيه لعبادِ الله. لا تَسْتَكْثِرْ جُهْدًا تُقدِّمه من أجْلِ الله في الدَّعْوَةِ إليه، ولا تستكثِرْ تضحيةً تُضحِّي بها لمصلحة الدعوة، فكلُّ ما تقدِّمُه صغيرٌ وصغيرٌ وصغير، فعليْك وعلى الدُّعاةِ من بعدِكَ أن تَعْلَمُوا أنَّ كلَّ جُهْدٍ تُقدِّمُونه، وكلَّ تَضْحِيَةٍ تبْذُلونها، فبتَوْفِيق الله، ولوْلاَ الله ما قدَّمتُم شيْئًا، فلا تمنُّوا بما تُقدِّمُونه، بل اشْكرُوا الله أنْ هداكم لما تُقدِّمُونه، فهو الذي وفَّقكم، وهو الذي أعانكم، وهو الذي اجْتباكم واصْطفاكم لهذه الوظيفة، فاشْكُروا لله سبحانه، وغُضُّوا أبصَارَكم عمَّا تُقدِّمُونه، فإنَّ الإنسانَ إذا نظرَ مايقدِّمه اسْتَكْثَره، وإذا استَكْثَره تَركَ العطاء وبَخِلَ به، والدَّعوَةُ بحاجةٍ إلى عطاءٍ مستمرٍّ، وإذا أعطيْتَ أحدًا شيئًا من مالك، أو شيئًا من عِلمك، أو شيئًا من وقْتِك، فلا تستَكْثِرْه ولا تمنَّ به عليه، ولا تُعْطِ رجاءَ أن تأخذ أكثرَ مما أعطيت، وليكن عطاؤك لله لا لشيءٍ سواه.

الأمر الخامس: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾، اصْبِرْ على مشاقِّ الدَّعوة، فإنَّها ثقيلةٌ جدًّا، وشاقَّةٌ جدًّا، واصْبِرْ على ما يعْترِضُك من عقَباتٍ وصِعاب، واصْبِرْ على أذى المدعوِّين وتكذيبِهم لك، وليكنْ صَبْرُك لله، لا لشيءٍ آخر، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ [الرعد:٢٢].

سورة المزمل

سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ، مِنْ أَوَّل ما نزل على النبيِّ ﷺ، ذكر الله تعالى فيها لنبيِّه ﷺ وللدُّعاةِ بعْدَه وسائِلَ الإعْدَادِ الجَسدِيِّ والرُّوحِيِّ للدُّعاةِ إلى الله، فالدَّعْوَةُ إلى الله صَعْبَةٌ وشاقَّة، ولابُدَّ لكلِّ من أرادَ القيامَ بها أن يُهيِّءَ نفسَه لها، جسديًّا ورُوحيًّا قبل أن يخوضَ غِمارَها.

والوسائلُ التي ذكرتْها السورةُ الكريمةُ هي:

١- قيامُ الليل.

٢- ترتيلُ القرآن.

٣- الذِّكْرُ الخاشِعُ المتبتِّل.

٤- الاتِّكالُ على الله وحْدَه.

٥- الصَّبْرُ على الأذى والتَّكذيب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمْ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً (٦) إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً (٧) وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً (٩) وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً (١٤) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى

فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴿١٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴿١٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

استفتح الله سبحانه السُّورةَ بهذا النِّداءِ اللَّطيفِ الذي يفيض محبَّةً ومودَّةً من الله لرسوله ﷺ: ﴿يَاأَيُّهَا المُزَّمِّلُ﴾ يا أيها الملفوفُ بثيابه، المتغطِّي بها ﴿قُمْ﴾ فليس الوقتُ وقتَ نَوْمٍ، وليس الوقتُ وقتَ راحةٍ، وليس الوقتُ وقتَ كسَلٍ وخُلودٍ إلى الفراش، قُمْ فإنَّ أمامكَ طريقًا شاقًّا ستركَبُه ابتغاءَ وجْهِ الله، فَقُمْ وهَيِّئْ نفسَك له بما نأمرك به: ﴿قُمْ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ القُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ وهكذا يأمر الله نبيَّه ﷺ بقيام الليل، ويحدِّدُ له الوقتَ: ﴿ قُمْ اللَّيْلَ ﴾ كلَّه ﴿ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ ﴾ أي من النِّصف ﴿قَلِيلاً﴾ فيكون المرادُ الثّلث ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ على النِّصْفِ قليلا، فيكون المراد الثلثين، فلا حرَج عليك بأن تنقُصَ من النِّصْفِ قليلاً، أو تزيدَ عليه قليلا.

ولقد استجاب ﷺ لأمر ربِّه، فقام اللَّيْلَ كما أمره، وحافظ عليه حتَّى بعْدَ نَسْخِ هذا الأمر، حتَّى قالتْ عَائِشَةُ ﵂: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ. فَقُلْتُ لَهُ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ الله، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا

تَأَخَّرَ؟ قَالَ: « أَفَلاَ أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا».[1]

فعلى الدُّعاةِ أن يُحافِظُوا على قيامِ اللَّيلِ فإنَّه عُنْوانُ التَّقْوى، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات: ١٥-١٩].

وهو عُنْوانُ الإيمانِ بآياتِ الله، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَاأُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٥-١٧].

وقد فرَّق الله سبحانه بيْنَ من يقومُ اللَّيْلَ ومن لا يقومُه، ونَفَى التَّسْوِيَةَ بيْنَهما، فقال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٩].

وكان النبيُّ ﷺ يرغِّب في قيامِ اللَّيلِ ويحثُّ عليه، فكانَ يقول: « عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، فَإِنَّهُ دَأَبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ قُرْبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ، وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ وَمَنْهَاةٌ لِلإِثْمِ ».[2]

وقال ﷺ: « أَتَانِي جِبْرِيلُ فَقَالَ يَامُحَمَّدُ: عِشْ مَاشِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَأَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، واعْمَل مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ به، واعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ الْمُؤْمِنِ قِيَامُ اللَّيْلِ،

---

(١) متفق عليه: خ (٤٨٣٧/ ٨٤/ ٥٨٤/ ٨)، م (٢٨٢٠/ ٢١٧٢/ ٤).

(٢) حسن صحيح: [ص. ت: ٣٥٤٩]، ت (٣٦١٩/ ٢١٣/ ٥).

وعِزَّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ ».[1]

وقَالَ ﷺ عَنْ عَبْدِ الله بن عُمَرَ بنِ الخَطَّاب: « **نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ الله، لَوْ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ** ».[2]

وقال ﷺ لعبدِ الله بنِ عَمرْو بنِ العَاصِ: « **يَا عَبْدَالله لا تَكُنْ مِثْلَ فُلانٍ كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ** ».[3]

وقوله تعالى: ﴿ **وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً** ﴾ أي اقرأْهُ على تمهُّل، فإنه يكون عونًا على فهم القرآن وتدبُّره، وهكذا كان يقرأ ﷺ، حتى أنه كان يقرأ السُّورةَ فيرتِّلُها حتى تكون أطْوَلَ من أطولَ منها، كما قالت أمُّ المؤمنين حَفْصَةُ ﵂[4].

وعَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قِرَاءَةِ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: كَانَتْ مَدًّا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيم ﴾ يَمُدُّ بِسْمِ الله، وَيَمُدُّ الرَّحْمَنِ وَيَمُدُّ الرَّحِيم[5] .

وقال ﷺ: « **يُقَالُ لِقَارِئ القُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْقَ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا** ».[6]

فعلى الدُّعاةِ أن يحْرِصُوا على تلاوةِ القُرْآنِ وتَرْتيله، وفي القيام وغيره، فإنَّ قراءةَ القُرْآنِ قُرْبَةٌ مِنْ أعْظَمِ القُرَبِ، وعبادَةٌ مِنْ أَجَلِّ العِبَادَات، يُعطى الله عليها مالا يُعْطِى على غَيْرِها، من الأجْرِ والثواب.

---

(١) حسن: [س.ص:٨٣١]، طس (٤٢٧٨/ ٥٠١/ ٤)، ك(٣٢٤ و٣٢٥/ ٤).

(٢) متفق عليه: خ(١١٢١ و١١٢٢/ ٦/ ٣)، م(٢٤٧٨ و٢٤٧٩/ ١٩٢٧/ ٤).

(٣) متفق عليه: خ(١١٥٢/ ٣٧/ ٣)، م(١١٥٩-١٨٥-/ ٨١٤/ ٢)، ن(٢٥٣/ ٣)، جه(١٣٣١/ ٤٢٢/ ١).

(٤) م (٧٣٣/ ٥٠٧/ ١)، ت(٣٧١/ ٢٣٢/ ١)، ن(٢٢٣/ ٣).

(٥) خ (٥٠٤٩/ ٩١/ ٩) واللفظ له، وروى الجملة الأولى منه: د(٤١٥٢/ ٣٣٩/ ٤)، ن(١٧٩/ ٢).

(٦) حسن صحيح: [ص. ت: ٢٩١٤]، ت (٣٠٨١/ ٢٥٠/ ٤)، د(١٤٥١/ ٣٣٨/ ٤).

وقد بيَّن النبيُّ ﷺ عظمة هذا الأجْرِ بقوله: « **مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ الله فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا لاَ أَقُولُ الم حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلاَمٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ** »(١).

والداعية الأحفظُ للقرآن، والأحْسَنُ ترتيلاً له، هو الأمْلَكُ لقلوب السامعين، والأكْثَرُ تأثيرًا فيهم، فعلى الدُّعاةِ أن يكونَ القرآنُ في صدْرِ أحدهم كالمُصْحَفِ في يديه، فإن القرآنَ هو سلاحُ الدَّاعية، وزادُه الذي لا ينفد.

ثم كشف الله تعالى لنبيِّه ﷺ عمَّا بعد هذا الجهاد من الحِكْمة فقال: ﴿ **إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً** ﴾ يحتاج إلى استعدادٍ طويل، وهو هذا القرآن، إنَّه ثقيلٌ في تكاليفه، ثقيلٌ في أوامره، ثقيلٌ في نواهيه، وكان ثقيلاً عليه ﷺ ساعةَ نزوله، حتى **قَالَتْ عَائِشَةُ** ﵂: « **وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الوَحْيُ فِي اليَوْمِ الشَّدِيدِ البَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا** »(٢).

وقال زيدُ بنُ ثابتٍ: " **أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وَفَخِذُه عَلَى فَخذِي فَكَادَتْ تَسْحَقُ فَخِذي** "(٣).

فإن قيل: فهلاَّ اكتفى في استعدادِه لهذا الأمْرِ بالصَّلاةِ وقراءةِ القرآن في النَّهار بدلاً من اللَّيل؟

فالجواب: ﴿ **إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً** ﴾، فَرْقٌ كبيرٌ بيْنَ العبادةِ في اللَّيْلِ والعِبادَةِ في النَّهار.

---

(١) صحيح: [ص. ت: ٢٩١٠]، ت(٣٠٧٥/٢٤٨/ ٤).

(٢) متفق عليه: خ(٢/ ١٨/ ١)، م(٢٣٣٣/ ١٨١٦/ ٤)، ت(٣٧١٣/ ٢٥٨/ ٥)، ن(١٤٦/ ٢).

(٣) ابن كثير (٤٣٥/ ٤).

فالعبادَةُ أقْرَبُ ما تكونُ إلى الخُشوع، حيثُ يقومُ لها الإنسانُ بعْدَ نَوْم، فيكونُ قد استراحَ من تعبِ النَّهارِ وكَدْحِه فيه، وأيضًا سُكُونُ اللَّيلِ يُعينُ على الخُشوع، فيستطيعُ أن يجْمَعَ قلبَه، ويُقْبِلَ بكليَّتِه على الله تعالى، وهذا شيءٌ ملمُوسٌ ومحْسُوس، لايحتاج إلى بُرْهان.

وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً ﴾ أي تردُّدًا في حوائجِك ومعاشِك، يوجِبُ اشتغالَ قلبك، وعدمَ تفرُّغِه التَّفرُّغَ التَّام، فلتقض النَّهارَ في هذا السَّبْح والنَّشاط، ولتَنْصَبْ لعبادةِ ربكَ في الليل.

وقولُه تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ أي أكْثِرْ من ذِكره، وانقطعْ إليه، وتفرَّغْ لعبادته إذا فرْغتَ من أشغالك وما تحتاجُ إليه من أُمورِ دنْياك.

وذِكْرُ اسمِ الله، ليس هو مجرَّدَ ترديد هذا الاسمِ الكريمِ باللِّسان، على عِدَّةِ المسْبَحةِ المئوية أو الألفية، إنَّما هو ذِكْرُ القلبِ الحاضرِ مع اللسان الذاكر، أو هو الصَّلاةُ ذاتُها وقراءةُ القرآن فيها، والتَّبتُّل هو الانقطاعُ الكُلِّيُّ عما عدا الله، والاتجاهُ الكليُّ إليه بالعبادةِ والذكر، والخلوصُ من كل شاغلٍ ومن كل خاطر، والحضورُ مع الله بكامل الحسِّ والمشاعر.

فعلى الداعية أن يذكر الله ذكرًا كثيرًا، وأن لا يغفلَ عن ذكر الله أبدا، وعليه أن يكون لسانُه رطْبًا من ذِكْر الله.

عليه أن يذْكُرَ الله في سِرِّه، وأن يذكرَه في علانيته، عليه أن يذكرَ الله في خَلوته وفي اختلاطه، فإنَّ القلوبَ إنما تطمئِنُ بذكْر الله، كما قال تعالى: ﴿ أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨].

وعلى الدَّاعيـة أن يتبتَّـل إلى الله، وأن ينقطـعَ اليـه عـمَّا سـواه، فإنَّـه سـبحانه ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ وما دام كذلك ﴿ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ أي كما عبَدْتَـه وحـده، فتوكَّل عليه وحده، كما قـال تعـالى: ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هـود:١٢٣]، وكـما قـال تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥].

والدَّاعيةُ هو أحْوَجُ الناس إلى التوكُّلِ على الله، والاعتـمادِ عليـه دون سـواه، فمـن هنا يستمدُّ القوَّةَ والزادَ للعبْءِ الثَّقيل في الطريقِ الطويـل، ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق:٣].

ثم أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ بالصَّبْرِ الجميل عـلى أذَى قوْمِـه وتكـذِيبهم لـه، وصـدِّهِمُ النَّاسَ عنه، فقال تعالى ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ﴾ وهـو الهْجرُ الَّذي لا عتاب معه، ولا غضب، ولا مشادَّة، وكان ذلك في مكَّة قبل الهجـرة، وقبـل أن يأذن الله لرسوله في قتال المشركين.

ثم قال تعالى مهدِّدًا للكافرين ومتوعِّدًا لهم، وهـو العظيـم الـذي لا يقـوم لغضبـه شيء: ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي خَلِّ بيْني وبيْنهم واتْرُكْهم لي، فأنـا القـادِرُ عـلى الانتقـام منهم، ولقد كانوا أوْلى الناس بالإسلام، واتِّباعِ النبي عليـه الصـلاة والسـلام، شكرًا لله على ما حباهم من نِعَمه، ولكنَّ القوم ﴿ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم:٢٨]؛ ولذا قال تعـالى: ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ ولـو مهَّلهم الحياةَ الدُّنيا كلَّها ما كانت إلا قليلا، فما الـدُّنيا في حسـاب الله إلا يـوْمٌ أو بعْـضُ يوم، وما هي في حسابهم هم أنفسِهم حين تُطْوَى إلا كذلك، كما قال تعـالى: ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون:١١٢-١١٤].

ثم ذكر مالَهم عنْدَه من العذاب، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً ﴾ أي قيودًا، ﴿ وَجَحِيمًا ﴾ ﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم:٦]، ﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ ﴾ ينْشُبُ في الحلقِ فلا يدخُلُ ولا يخرج، ﴿ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ يتحقَّقُ لهم ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً ﴾ أيْ تصير كَكُثْبَانِ الرَّمْلِ بعْدَما كانت حجارةً صمَّاء، ثم إنَّها تُنْسَفُ نَسْفًا فلا يَبْقَى منْها شيءٌ إلاَّ ذَهَب، حتى تصيرَ الأرْضُ قاعًا صفْصفًا، لا تَرى فيها عِوَجًا ولا أَمْتًا.

ثم وجَّه الله الخطابَ إلى الذين كذَّبوا نبيَّه محمَّدًا ﷺ، فذكَّرهم بمَنْ كذَّب رسُلَه مِنْ قبلهم، وكيف كان أَخْذُه لهم فقال: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴾.

فاحْذَرُوا معْشَرَ النَّاسِ أن تَعْصَوْا رسُولَكم كما عصى فِرْعَوْنُ الرَّسولَ فيأخذَكم الله كما أخذ فِرْعون، ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود:١٠٢]، ثم قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾، وإنَّه ليومٌ عظيمٌ هَوْلُه، حيث تشيبُ من هَوْلِه الوِلدان، وتنْفطِرُ السَّماء، وتنشَقُّ الأرض، وتسيرُ الجبال سيْرًا. ومعناه: أنَّكم إنْ كَفَرْتُم، فلن يحصل لكم أمان من هَوْلِ هذا اليوْمِ العظيم، وهو كائنٌ لا محالة، لأنَّه وعْدُ الله، والله لا يُخْلِفُ الميعاد.

ثم يلمَسُ قلوبَهم لتتذكَّر وتختارَ طريقَ السَّلامة، طريقَ الله، فيقول: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ﴾ أي إن هذه السُّورةَ وما جاء فيها تذكرة ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ أي طريقًا سلكا، فإنه لا نجاةَ من هذه الأهوال التي ذكرتْها السُّورَةُ عن اليوم الآخر إلا بسلوك سبيل الله.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ هذه هي آيةُ التَّخْفيف، فلقد أُمِرَ النبيُّ ﷺ أن يقومَ اللَّيل، فقام هو والَّذين آمنوا معه سنةً كاملةً، حتى تفطَّرت أقدامُهم، ثم خفَّف الله عنهم بهذه الآية، فجعل القيامَ مندوبًا بعد ما كان واجبًا، وأمرهم أن يقرءوا ما تيسَّر من القرآن من غيْرِ تحديد، وعبَّر عن الصَّلاة بالقراءةِ لأنها الرُّكْنُ الأعظم.

ثم ذكر سبحانه أسبابَ التَّخفيف، فقال: ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ فـ ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ [الأنفال:٦٦]، فمنكم من يكونُ مريضًا لا يستطيع القيام، ومنكم من يكونُ مسافرًا في طلب رِزْق الله، ومنكم من يكون مشغولاً بقتالِ أعداءِ الله، فلذلك خفَّف عنكم.

وفي هذه الآيةِ أكبرُ دليلٍ على نبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ، حيث لم يكنِ القتالُ قد شُرِعَ بعْدُ، وأخبرهم بأن سيكونُ منهم مَنْ يقاتِلُونَ في سبيل الله، وهذا إخبارٌ بالغَيْب، لا يمكنُ أن يكونَ إلا مِنْ عنْدِ الله علاَّمِ الغيوب سبحانه.

ومرَّةً ثانيةً يكرِّر عليهم التَّخفيف: ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ بلا عُسْرٍ ولا مشقَّة، ولا إجهاد: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ أي الواجبة: ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ المفروضة، ﴿ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ يعني من الصدقات، واعلموا أنه: ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾، واعلموا أنكم دائمًا مقصِّرونَ في حقِّ الله مهما تحرَّيْتُم الصَّوابَ والاجتهاد، فلا تَمُنُّوا بما تُقدِّمون من خيْرٍ ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.

وهكذا يجبُ على الدَّاعيةِ دائمًا أن لا يرى عملَه، وأن لا يُعْجَب بجَهْدِه، وأن يتَّهِمَ نفسَه دائمًا بالتَّقصير، وليُكْثِرْ منَ الاستغفار، رجاءَ أن يعفُوَ الله عن تقصيره، وليَحذَرْ دائمًا من العُجْبِ بنَفْسه، وليحْذَرْ من الاغترارِ بجَهْدِه أو بكثْرَةِ أتباعه، وليعْلَمْ أنَّ ما به من نعمةٍ فمن الله، فليجْتَهِدْ في عبادةِ الله شكرًا لله، اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

من أصول الدعوة (١)

﴿ قُل هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى الله عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ الله وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ القُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنْ القَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:١٠٨ - ١١١].

﴿ قُل ﴾ يا رسُولَنا للنَّاس ﴿ هَذِهِ سَبِيلِي ﴾ " أي: هذه السَّبيلُ الَّتي هي الدَّعوَةُ إلى الإيمانِ والتَّوحيدِ سبيلي، أي: طريقي ومسْلكي وسُنَّتي.

ثم فسّر سبيلَه بقوْله: ﴿ أَدْعُو إِلَى الله ﴾ أي: دينهِ وتوْحيدِه، ومعرفتِه وصفاتِ كمالِه ونُعوتِ جلالِه.

﴿ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ أي: مع حُجَّةٍ واضحةٍ غيرِ عَمْياء.

﴿ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي ﴾ أي: آمن بي، يدْعُونَ إلى الله أيضًا على بصيرة لاعلى هوى.

﴿ وَسُبْحَانَ الله ﴾ أي: وأنزّه الله وأُجلّه وأُعظِّمه وأُقدّسه عن أن يكونَ له شريكٌ، أو نظيرٌ، أو عَدْلٌ أو ندّ أو ولد، أو والد أو صاحبة، أو وزيرٌ أو مشير، تبارك وتقدَّس، وتنزَّه وتعالى عن ذلك علوّا كبيرا ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء:٤٤].

﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أي: لست من أهل دينهم "[1].

وهذا القولُ الذي أمرَ الله به رسولَه ﷺ هو أحسنُ الأقوال، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى الله وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣].

وفيه مسائل:

الأولى: أنَّ قولَه تعالى: ﴿ أَدْعُو إِلَى الله ﴾ فيه بيانُ الأمْرِ الذي يجبُ أن تكون الدَّعْوَةُ إليه ﴿ إِلَى الله ﴾ لا إلى دُنْيا، ولا إلى مجد، ولا إلى عِزَّةٍ قوميّة، ولا إلى عصبيَّةٍ جاهلية، ولا إلى مغْنَم، ولا إلى سلطان، ولا إلى جاه.

﴿ إِلَى الله ﴾ لا إلى مَذْهبِ فُلان، ولا إلى رأيِ فُلان، ولا إلى حِزْبِ فلان، ولا إلى جماعةِ فلان، ولا إلى فِكْرِ فلان، ولكن: ﴿ إِلَى الله ﴾ إلى دينِ الله، إلى صراطِ الله المستقيم، الذي بعثَ الله به نبيَّه وخليلَه محمدًا ﷺ، وهذا ما دلَّ عليه القرآنُ العظيم، والسُّنةُ المطهَّرة الثابتة عن رسول الله ﷺ، وعلى رأس ذلك الدَّعوةُ إلى العقيدة الصحيحة، إلى الإخلاص لله وتوحيدِه بالعبادة، والإيمانِ به وبرسله، والإيمانِ باليوم الآخر، وبكل ما أخبر به الله ورسولُه ﷺ.

فإنَّ هذه الدعوة تبْني ولا تهْدِم، وتجْمَعُ ولا تفرِّق، وتؤلِّف ولا تخالف.

أما الدَّعوةُ المذهبيَّةُ الحزْبيَّة فإنها تهدم ولا تبني، وتفرِّق ولا تجمع، وتخالف بيْنَ القلوب ولا تؤلِّف بينها، والله تعالى قد نهانا عن الفُرقةِ والاختلاف، وأمرَنا بالاجتماع والائتلاف.

قال تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران:١٠٣].

---

(١) محاسن التأويل (٢٩٤ و ٢٩٥/٩).

وقال تعالى: ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥، ١٠٦].

يعني يَوْمَ القيامةِ تبيضُّ وجوهُ أهلِ السنَّةِ والجماعة، وتسودُّ وجوهُ أهل البدْعَةِ والفُرْقة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما [١].

الثانية: قولُه تعالى: ﴿ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي ﴾ " يجوز فيه أن يكون قولُه تعالى: ﴿ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ خبرًا مقدَّمًا، و ﴿ أَنَا ﴾ مبتدأ مؤخرًا ﴿ وَمَنْ اتَّبَعَنِي ﴾ معطوفًا عليه " [٢].

ويكون المعنى حينئذٍ: أنا ومن اتبعني على بصيرة، أي: على حُجَّةٍ وبُرْهان، لا على رأيٍ وهوى.

كما قال تعالى: ﴿ قُل إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿ قُل إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي ﴾ [غافر: ٦٦].

فالنبيُّ ﷺ والمؤمنون على بيِّنَةٍ من ربهم رأوا الحقَّ وعرَفُوه واستَيْقَنوا من مصْدَره، واتَّصلُوا بربِّهم فتَلَقْوا عنه وهم على يقينٍ مما يتلقَّوْن، غَيْرَ مخْدوعين ولا مضلَّلين، والذين كفروا زُيِّن لهم سوءُ عملهم فرأوَه حسنًا وهو سيء، ولم يَرَوْا ولم يسْتَيْقِنُوا، واتَّبعوا أهواءَهم بلا ضابطٍ يرجعون إليه، ولا أصْلٍ يقيسون عليه، ولا نُورٍ يكْشِفُ لهم الحقَّ من الباطل.

---

(١) ابن كثير: (٣٩٠/ ١).

(٢) البحر المحيط: (٣٥٣/ ٥).

فهل يستوون؟! ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [محمد:١٤].

" ويجوز أن يكونَ قولُه تعالى: ﴿ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ حالاً من ﴿أَدْعُو﴾"[1]، والمعنى: أدعو إلى الله أنا ومن اتبعني على بصيرة لا على هوىً.

ومعناه: أنه يجب عليك أيها الداعية أن تكون على بيّنة في دعْوتِك، أي على علم، لا تكن جاهلاً بما تدعو إليه، وردّد دائما: ﴿ قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ فلابُدَّ من العلم، فالعلمُ فريضة، والعلمُ قبلَ القول والعمل، وإيَّاك أن تدعُوَ على جهالة، وإيَّاكَ أن تتكلَّم فيما لا تعلم، فالجاهلُ يهْدِمُ ولا يبني، ويُفسد ولا يُصْلِح.

فاتَّقِ الله يا عبْدَ الله ! إيَّاك أن تقولَ على الله بغَيْرِ علم، فإنَّ القَوْلَ على الله بغَيْرِ عِلم مِنْ عمل الشيطان، كما قال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّبًا وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:١٦٨و ١٦٩]، ولذا كان القوْلُ على الله بغيْرِ علم من أصول المحرمات، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣].

ولقد كان المشْركونَ يُنْكِرُون أن يبعثَ الله بشرًا رسُولاً، وقالوا: ﴿ لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلاَئِكَةً ﴾ [فصلت:١٤]، فقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ "

(١) البحر المحيط: (٣٥٣/ ٥).

أي: لم نُرْسِل ملائكةً ولا غَيرهم من أصناف الخلق، فلأيِّ شيء يستغرب قومُك رسالتك "[١]، ﴿ وَما أَرْسَلنَا قَبْلَكَ مِنْ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٢٠].

﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ [الأنبياء:٨].

قال الحافظ ابن كثير ﷺ: " يُخْبِرُ تعالى أنه إنما أرْسلَ رُسُلَه من الرِّجال لا مِنَ النساء، وهذا قولُ جمهور العلماء، كما دلَّ عليه سياقُ هذه الآيةِ الكريمة، إنَّ الله تعالى لم يوح إلى امرأةٍ من بناتِ آدم وَحْيَ تشريع. أهـ"[٢].

وقولُه تعالى: ﴿ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ يعني أن الرسل كانوا رجالاً.

﴿ مِنْ أَهْلِ القُرَى ﴾: لا من أهل البادية، ليكونوا أرقَّ حاشية، وألينَ جانبًا، وأصْبَرَ على احتمال تكاليفِ الدَّعوة والهداية.

ثم يُلفِتُ الله أنظارَ مكذِّبي رسوله إلى مصارع المكذِّبين السابقين فيقول: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ ؟

والنَّظرُ في آثار الغابرين يهزُّ القلوب. حتى قلوبَ المتجبّرين. ولحظاتُ الاسْتِرْجاع الخياليِّ لحركاتِهم وسكنَاتِهم وخلَجاتِهم، وتصوُّرهم أحياءً يرُوحون في هذه الأمكنةِ ويجيئون، يَخافُون ويَرْجون، ويطْمَعُون ويتطلَّعون. ثم إذا هم ساكنون، لا حِسَّ ولا حركة، آثارُهم خاويةٌ طواهم الفناء، وانطوتْ معهم مشاعرُهم وعواطفُهم وأفكارُهم وحركاتُهم وسكناتُهم، ودُنياهم الماثلةُ للعَيان، والمستكنَّةُ في الضمائر والمشاعر.

---

(١) تيسير الكريم: (٦٣/ ٤).

(٢) ابن كثير: (٤٩٦/ ٢).

إنَّ هذه التأمّلاتِ لتهزُّ القلبَ البشريَّ هزّا، مهما يكن جاثيًا غافلاً قاسيا. ومِنْ ثَمَّ يأخذ القرآنُ بيد القوم ليوقفَهم على مصارع الغابرين بيْن الحين والحين.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ ؟ فيدركوا أنّ مصيرهم كمصيرِهم، وأنَّ سُنَّة الله الواضحة الآثار في آثار الغابرين ستنالُهم، وأنَّ عاقبتَهم في هذه الأرض إلى ذهاب.

﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ " الشِّرْكَ والشُّرورَ المحرَّمة، وآمنوا بالرسل واتَّبعوهم. وهذا خبرٌ مؤكّد بلام القسم، يفيد أنَّ نعيمَ الآخرة ليس كنعيم الدنيا.

ذلك أنَّ نعيمَ الآخرةِ البدنيَّ أعلى وأكملُ من نعيم الدُّنيا في ذاته وفي دوامه وثباته، وفي كوْنه غيرَ مشُوبٍ ولا منغَّص بشيء من الآلام، وفي كوْنه لايعقبه ثقلٌ ولا مرض، ولا إزالة أقذار.

فما القوْلُ بنعيمهِا الرَّوحاني من لقاءِ الله ورضْوانه، وكمالِ معرفته المعبّر عنه برؤيته؟

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ هذا الفرق أيها المكذبون بالآخرة؟

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ فتؤثروا النعيمَ الذي لا يفنى ولا يبيدُ على نعيمِ الدنيا الناقص الزائل؟ أما إنكم لو عقلتم لآمنتم، ولكنكم لا تعقلون.

ثم بيّن الله تعالى لرسوله ﷺ أنَّ العاقبةَ له كما كانت لإخوانه المرسلين مِنْ قبله، وِفْقَ سنّة الله عزَّ وجل التي بيّنها بقوله: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

وأنَّ هذا النَّصْرَ إنما يجيء إذا تمادى المُبْطِلُونَ في تكْذِيبهم، فقال سبحانه ":[1]
﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾.

قال الإمام ابن جرير: " يقول تعالى ذِكْرُه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ فدَعَوْا مَنْ أَرسلناهم إليهم فكذَّبوهم، وردّوا ما أتوْهم به من عند الله، حتى إذا استيأس الرسلُ من الذين أرسلناهم إليهم أنْ يُؤْمِنُوا بالله ويصدِّقوهم فيما أتَوْهم به من عنده، وظنَّ الذين أرْسلناهم إليهم من الأمم المكذِّبة، أنَّ الرسلَ الذين أرسلناهم إليهم قد كذَبوهم فيما كانوا أخبروهم عن الله مِنْ وَعْدِه إياهم نَصْرَهم عليهم جاءهم نصرُنا أ هـ"[2].

" وتلك سُنَّتُه تعالى في الأقوام، يُرسل إليهم رُسلَه بالبيِّنات ويؤيِّدهم بالمُعْجزات، حتى إذا أعْرَضوا عن الهداية، وعاندوا رُسلَ ربِّهم وامتَّدت مُدَّةُ كيدِهم وعُدْوانِهم، واشتدّ البلاءُ على الرسل صلوات الله عليهم حتى يستَشْعِرُوا القنُوطَ من تمادي التَّكذيب، وتراخي النصر، جاءهم نصرُ الله فجأة.

﴿ فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ ﴾: أي فَنجّى الرُّسلُ ومَنْ آمن بهم من أقوامهم لأنهم بحسب مشيئتِهِ وسُنَّته تعالى في عباده وحكمته، هم الذين يستحقّون النجاةَ دون غيرهم، بما يختارون من التَّوحيد على الشِّرْك، ومن الخَيْرِ على الشَّرِّ.

﴿ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾: أي: ولا يُمنع عقابُنا وبطشُنا عن القوْم الذين أجْرَمُوا فكفَرُوا بالله، وخالفوا رسُلَه، وما أتوْهم به من عنده وتلك سُنَّةُ الله في رسله مع أُممِ الدَّعْوة، يبلِّغونهم الرِّسالة، ويقيمون عليهم الحُجَّة، ويُنْذِرُونهم سوءَ عاقبة الكفْرِ والتَّكذيب، فيؤمن المهتدون، ويصرّ المعاندون، فينجّي الله الرسلَ ومَنْ آمن مِنْ أقوامهم ويُهْلِكُ المكذبين.

(١) مختصر المنار: (٥٦٧، ٥٦٨/ ٣) بتصرف.
(٢) الطبري: (٨٢/ ١٣).

ثم ختم سبحانه هذه القصَّةَ والسُّورةَ بقوله: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ ﴾ أي: يوسفَ عليه السلام وأبيه وإخوته ﴿ عِبْرَةٌ ﴾ أي: عظة ﴿ لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ ﴾ أي: أصحاب العقول الراجحة.

وإنما قال: ﴿ لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ ﴾ لأنَّ أهل البصيرة والرَّوِيَّة من العقلاء هم الذين يعتبرون بعواقب الأمور التي تدلُّ عليها أوائلُها ومقدِّماتها، بعدَ التأمُّلِ في حقيقتِها وصفاتها، وأما الأغْرَارُ الغافلون، والظالِمونَ المعانِدُون فلا يُمرّنون عقولَهم على الاستقلال في النظر، والاعتبارِ بما جرى على الأفراد والأمم، فلا يفيدهم النُّصحُ والتَّذكير، ولا سوءُ العاقبةِ والمصير.

﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ﴾ أي: ما كان هذا القرآنُ أو القَصصُ حديثًا يُختلَقُ ويُكذب، لأن هذا النوع من القصَصَ الذي أعجز حملةَ الأحاديث ورواةَ الأخبار ممَّن لم يطالع الكتب، ولم يخالط العلماء، دليلٌ ظاهر وبرهانٌ قاهر، على أنه بطريق الوحْي والتنزيل.

ولهذا قال: ﴿ وَلَكِنْ ﴾ كان ﴿ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي: من الكتب السماويَّة، التي أنزلها الله قبله على أنبيائه، كالتوراة، والإنجيل، والزبور، قبل التحريف والتبديل فيها ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي: من أمرِ الله ونهْيِه، ووعْدِه ووعيده، والإخبارِ عن الله تبارك وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاتِه العُليا، وتنزُّه عن مماثلةِ مخلُوقاتِه، وفيه العظاتُ والعِبَرُ بقصَصِ الرُّسلِ مع أقْوامهم، وسائرِ ما بالعباد إليه حاجة، ﴿ وَهُدًى ﴾ كاملاً لمن تدبّره وتلاه حقَّ تلاوته، فإنه يجذبه ببيانه وبلاغته إلى الحقِّ الذي قرَّره وعملِ الخيْرِ والصَّلاح الذي بيّن فوائدَه ومنافِعَه، ﴿ وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي: رحمة عامة للمؤمنين الذين تنتشر فيهم هدايتُه، وتنفذ فيهم شريعتُه، فهو رحمةٌ لهم في الدنيا والآخرة جميعا أ هـ بطوله من مختصر المنار[1].

(١) مختصر المنار (٥٦٧، ٥٦٨ / ٣) بتصرف.

من أصول الدعوة (٢)

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [الشورى:١٥].

هذه آيةٌ من كتاب الله ﷻ، من سُورةِ الشُّورى، اشتملتْ على عَشْرِ كلماتٍ مستقلاَّت، كلٌّ منها منْفَصِلَةٌ عن التي قبلها، حكمٌ برأسها، قالوا: ولا نظيرَ لها في القرآنِ الكريم سوى آيةِ الكرسيِّ، فإنها أيضًا عَشْرُ فصول كهذه.

وهي متَعلِّقَةٌ بما قبلها من الآيات، وهي قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ [الشورى:١٣]، ثم قال: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ﴾ فأخبر الله سبحانه أن الدّين الذي شرعه واحد، وأنَّ الناسَ اختلفوا فيه مع أنه يقتضي الاتِّفاقَ لا الاختلاف، فلذلك الدِّين الذي شرعه الله لك ولإخوانك من المرسلين، ابتداءً بنوح، وانتهاءً بك، ادْعُ النَّاس، فإنَّ الدَّعوةَ لا تكون إلا إلى الله، أو إلى سبيل الله، أو إلى دين الله.

ويحتمل أن يكون المعنى: فلأجل ما ذُكِرَ من الفُرْقة والشَّكِّ المريب ادْعُ النَّاسَ إلى إقامةِ الدِّين للقضاءِ على هذا الخلاف، وتلك الفُرْقة، فإنَّ الدَّعوةَ إلى دينِ الله هي التي تُزيلُ الخلافَ والفُرْقَة، وتجمع شملَ الأمة، كما فعلَتِ الدَّعْوةُ بالأوسْ والخزْرج، وفيهم نزل قولُ الله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٣].

﴿ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ لا كما تهوى، استقامةً موافِقَةً لأمر الله، لا تفريطَ ولا إفراط، ولا غُلُوَّ ولا تقصير، بل استقامةٌ على صراطِ الله كما أراد الله، وهذا يشمل فِعْلَ الطاعاتِ كلِّها الظاهرةَ، والباطنة، وتَرْكَ المنهيَّاتِ كلِّها كذلك، وهكذا أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ بتكْميل نفْسِه بلزُوم الاستقامة، وبتكْميلِ غيره بالدَّعوة إلى ذلك، ومن المعلوم أن أمرَ النبيِّ ﷺ أمرٌ لأمتِّهِ إذا لم يَرِدْ ما يخصِّصُه بذلك الأمر.

ومعنى ذلك أنه يجبُ على العبد أن يعْلَمَ أنَّ كمالَ نجاتِه متوقِّفٌ على تكْميلِ نفْسِه بالاستقامة، والسَّعْي في تكْمِيل غيْرِه بالدَّعوة، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر: ١-٣]، فكمَّلوا أنفسهم ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ لتكْميل غيرهم.

كما أنَّ الأمْرَ بالاستقامة عَقِبَ الأمْرِ بالدَّعوة فيه إشارة إلى أنَّه لا يليق بالدَّاعي أن يسعى في تكميل غيْرِه وينْسَى نفسَه، فإنَّ هذا لا يليق به، لأنَّ الله ذمَّ عليه، فقال: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢، ٣]. وقال تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤].

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: « يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ فِي الرَّحَى، فيأتيه الناس يَقُولُونَ: يَا فُلاَنُ مَا لَكَ؟! أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟! فَيَقُولُ: كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ »[1].

(١) متفق عليه: خ (٣٢٦٧/ ٣٣١/ ٦)، م (٢٩٨٩/ ٢٢٩٠/ ٤).

﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أي: أهواء المُنحرفين عن الدّين من الكفَرة والمنافقين، إما باتِّباعهم على بعْضِ ماهم عليه، أو بتَرْكِ الدَّعوة إلى الله ﷻ، أو بتَرْكِ الاستقامة، فإنَّك إنِ اتَّبْعتَ أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم كنْتَ من الظالمين.

فإنَّ اتَّباع الهوى ظُلمٌ عظيم وضلالٌ مبين، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠].

ولقد كَثُر في القرآن الكريم النَّهيُ عن اتِّباع الهوى وأهْلِه، قال تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة:٤٩].

وقال تعالى: ﴿يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعْ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص:٢٦].

قال الشَّعْبِيُّ: إنَّما سُمي الهوى هوًى، لأنه يهْوي بصاحبِه في النار، وقال ابنُ عبَّاسٍ: ما ذَكَر الله الهوى في كتابه إلا ذمَّه.

ولقد ضربَ الله تعالى لأهْلِ الهوى مثَلَ السَّوْء، فقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنْ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ ﴾ [الأعراف:١٧٥،١٧٦].

فإيَّاك يا عبدَ الله واتِّباعَ الهوى فإنه أعْدَى أعدائك، كما قال القائل:

إنِّي ابتُليتُ بأرْبَعٍ ما سُلِّطوا إلاَّ لِشَدَّة شِقْوَتي وعَنائِي
إبليسُ والدُّنْيا ونَفْسِي والهَوى كيْفَ الخَلاصُ وكُلُّهم أعْدائِي

واعلم أنَّ فلاحَك ونجاحَك في مخالفة هواك، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى ۞ فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى﴾ [النازعات:٤٠، ٤١].

﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ الله مِنْ كِتَابٍ﴾ هذا من أدبِ المُناظَرةِ والمجادَلة، أرشد الله إليه نبيَّه ﷺ إذا جادل أهْلَ الكتاب أن يقول لهم: أنا مؤمنٌ بالكتاب المنزَّلِ من عند الله الذي تؤمنون به، من التَّوراة والإنجيل، كما أنا مؤمنٌ بالقرآن، لا أفرِّق بيْن القرآنِ والتَّوراة ولا بيْن القرآنِ والإنجيل، كما قال تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٦].

وفي هذا تعريضٌ بهم حيْثُ إنَّهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، وهذا هو محْضُ الكُفْر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِالله وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ الله وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ۞ أُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء:١٥٠، ١٥١].

﴿وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: لأسوِّي بيْني وبيْنكم في الدَّعوة، فلا آمركم بما لا آمرُ به نفسي، ولا أخالِفُكم إلى ما أنهاكم عنه، وإنما دَعْوَةٌ واحدةٌ ألتزمها وأدْعوكم إلى الالتزام بها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ الله وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ الله فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤]

ويُحْتَمـلُ أن يكـون معنـى قولـه تعـالى: ﴿ لأَعْـدِلَ بَيْـنَكُمْ ﴾ أي: في الحُكْـم فـيما اختلفتم فيه إذا تخاصمتم إليَّ، فلا تمنَعُني عداوتُكم وبُغضُكم من العدْل بينكم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالقِسْطِ ﴾ [المائدة:٤٢].

وقال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لله شُهَدَاءَ بِالقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا الله إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة:٨].

﴿ الله رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ فلَسْتُم بأحقَّ به منا ولا أَوْلى، بل نحن أحقُّ بـه منكم وأَوْلى، ﴿ قُل أَتُحَاجُّونَنَا فِي الله وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ [البقرة:١٣٩]، وأنتم مشركون.

ولذلك لما زَعموا أنهم أحقُّ بالله منَّا وأنَّهم أولياؤه وأحبابُه أمرَ الله نبيَّه أن يكذِّبهم فقال: ﴿ وَقَالَتْ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ قُل فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَل أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [المائدة:١٨].

﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ لا ينفعكم خيرُ ما عَمِلنا، ولا يضرُّنا شرُّ ما عمِلتم، لأنه لا تَزِرُ وازرُةَ وِزْرَ أخرى، وهذا كما قال تعالى: ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُل لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس:٤١].

﴿ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ هذا إنهاءٌ للمُنَاظَرةِ والمُجادلة بعدما تبيَّنتِ الحقائق، وظهر الحقُّ من الباطل، والهدى من الضلال، وظهر عِنادُ الطرَفِ الآخر، وهذا أيضًا من أدب المناظرة والمجادلة.

﴿ الله يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ في الدنيا ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ يوم القيامة، ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي العَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ [الروم: ١٥-١٦].

التأسي بالرسول الأمين عنوان الإيمان بيوم الدين

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

بعث الله تعالى رسولَه محمدًا ﷺ شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا ، بعثه في الأمِّيين على حين فَتْرَةٍ من الرُّسل: ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

ولقد عَلِمَ الله سبحانه، وهو اللَّطيفُ الخبير، أنَّ الرسولَ المبعوثَ مِنْ قِبَلِه لابدَّ أن يكونَ موْصوفًا بصفات الكمال، منزَّهًا عن صفات النقص، مبرَّأً من كل عيْب، معْصومًا من كل ذَنْب، حتى يُقْبِلَ النَّاسُ عليه، ويتعلَّموا منه؛ لذلك وضع في شخْصِ محمَّدٍ ﷺ الصُّورةَ الكاملةَ للشَّخصِيَّةِ المسْلمةِ التي يريدُها الله تعالى، لتظلَّ دائمًا صورةً حيَّةً خالدةً مرئيَّةً لكلِّ من أراد أن ينْهجَ نَهْجَ الإسلام، ويتَّبعَ النبيَّ عليه الصلاة والسلام، وجعله الله القدْوةَ الطَّيبةَ، والأسْوَةَ الحسَنة، والمثَل الأعلى، والإمام الأعظم، فقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا ﴾.

"وقد اشتملَتْ هذه الآيةُ على ثلاثِ مسائلَ هامَّةٍ:

الأولى: اختصاصُ رسَولِ الله ﷺ بالقدْوَةِ وحْدَه وقَصْرُها عليه.

الثانية: أنَّ هذه القدْوَةَ للمؤمنين بالرَّسولِ وحْدَهم.

الثالثة: تقْييدُ الأُسْوَةِ بوَصْفِ الحسنة "[١].

وهذا القَيْدُ أفاد أنَّ " **الأسوةَ نوعان**: أسوةٌ حسنَةٌ، وأُسْوةٌ سيِّئة.

فالأسْوَةُ الحسَنةُ في الرَّسولِ ﷺ ، فإنَّ المتأسِّيَ به سالكٌ الطريقَ الموصِّلَ إلى كرامةِ الله، وهو الصِّراطُ المستقيم.

وأمَّا الأسوَةُ السيِّئةُ فهي الأسوَةُ بغَيْره إذا خالَفه، كقَولِ المشْركين إذا دُعُوا للتأسِّي بالرسول: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ**﴾ [الزخرف:٢٢]"[٢]

والتأسِّي بالرَّسولِ ﷺ نعمةٌ منَ الله ورحمةٌ يَختَصُّ بها من يشاءُ من عباده؛ ولذلك قال: ﴿ **لِمَنْ كَانَ يَرْجُو الله وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ الله كَثِيرًا** ﴾، والتأسِّي برسُولِ الله ﷺ لا يكون في جانبٍ دون جانب، ولا ناحيةٍ دون ناحية، ولا يكونُ في الدِّين دُونَ الدُّنيا، بل التأسِّي به ﷺ واجبٌ في الدِّين والدُّنيا، والعبادةِ والمُعامَلة، والأخلاقِ والآداب، والسِّلمِ والحرْب، والأمْنِ والخَوْف.

فهو ﷺ الأُسْوَةُ الحسَنة في عبادةِ الله ﷻ ، فلقد كانَ أعْلَمَ النَّاس بالله، وأتْقاهم له وأخْشاهم، ومع ذلك كان يصومُ ويُفْطِر، ويقومُ ويرْقُد، ويأتي النساء، ولم يؤثِّر ذلك في كوْنه أعْبَدَ الناس ؛ ولذلك لما « جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَتِه، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا – أي عدُّوها قليلة – فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، قَدْ غَفِرَ الله لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ ؟! فقَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ لا أُفْطِرُ، وقال الثاني: وأَنَا أقوم اللَّيْلَ لا أرقد، وَقَالَ الثالث: وأَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ

(١) السيرة النبوية العطرة ، للوالد الشيخ محمد إبراهيم شقرة (ص ٢٧).

(٢) تفسير السعدي (٢٠٨ و ٢٠٩ / ٦).

فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ، فخرَج إِلَيْهِمْ فَقَالَ: « أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلتُمْ كَذَا وَكَذَا ؟ وَاللهِ إِنِّي لأَتْقَاكُمْ للهِ وَأَخْشَاكُمْ لَهُ، ولَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وأقوم وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي »[1].

ولمَّا بلغه أنَّ عبْدَ الله بنَ عمْرٍو يصومُ النَّهار ويقومُ اللَّيل قال له: « أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ؟ ». قُلتُ: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: « فَلاَ تَفْعَل، صُمْ وَأَفْطِرْ، وَنَمْ وَقُمْ، فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ بِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ فِي كُلِّ شَهْرٍ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ صِيَامُ الدَّهْرِ»[2].

فهو ﷺ الأسوةُ الحسنَةُ في معاملَةِ الربِّ سبحانه، وهو ﷺ الأسوةُ الحسنَةُ في معاملة الخَلق ؛ هو الأسوةُ الحسَنة في معاملةِ الأزْواج.

" فلقد كان حسَن المُعاشَرةِ لأزْواجِهِ، حسَنَ الخُلق معهن، وكان يأذَنُ لبناتِ الأنصارِ في الدخولِ على عائشةَ للَّعِب معها، وكان إذا رَغِبَتْ في شيءٍ مباحٍ وافقها عليه، وكان إذا شَرِبَتْ من الإناء أخذه فوضع فمَه في موضع فَمِها وشَرِب، وكان من لُطفِه وحُسْنِ خُلُقه يريها الحبشةَ وهم يلعبون في مسْجده وهي متكئةٌ على مَنْكِبَيْه تنظر، وسابقها في السَّفر على الأقدام مرَّتيْن "[3].

ومع ذلك كان يصبر على ما يكون منْهُنَّ مما لا تسلم منه الأزواج، كما كان يصبر على ما يكون بيْنَهنَّ أنفُسِهنَّ ويعالِجُه بحكمة، وكان يقول لعائشة: « إِنِّي لأَعْلَمُ متى

(١) متفق عليه: خ (٥٠٦٣/ ١٠٤/ ٩)، م (١٤٠١/ ١٠٢٠/ ٢)، ن(٦٠/ ٦).
(٢) متفق عليه: خ(١٩٧٥/ ٢١٧/ ٤)، م(١١٥٠-١٨٢-/ ٨١٣/ ٢)، (٢١١/ ٤).
(٣) زاد المعاد: (جـ١ ص ١٥٢).

تكوني عَنِّي رَاضِيَةً ومتى تكوني غيرَ رَاضِيَةٍ ». فتقول: وكَيْفَ ذَلكَ يَارَسُولَ الله ؟ فيقول: « إن كُنْتِ رَاضِيَةً قلتِ: لا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ، وَإِن كُنْتِ غير راضية قُلتِ: لاَ وَرَبِّ إِبْرَاهِيمَ » قَالَتْ: إِي وَالله يَا رَسُولَ الله مَا أَهْجُرُ إِلاَّ اسْمَكَ.[1]

وحدَث أنَّ امرأةَ عمرَ بنِ الخطاب راجَعْته في أمرٍ ما، فأنكر عليها ذلك، فقالت: عجبًا لك يا ابن الخطاب ! ما تريد أن تراجَع أنت، وإنَّ ابنتك لتُراجِعُ رسولَ الله ﷺ حتى يظلَّ يومَه غضبان، فقام فأخذ رداءه، حتى دخل على حفصة، فقال لها: يا بُنيَّة، إنك لتراجعين رسولَ الله ﷺ ، حتى يظلَّ يومَه غضبان ؟! فقالت: والله إنا لنراجعه.[2]

عَنْ أَنَسٍ قَالَ كَانَ رسول الله ﷺ عِنْدَ بَعْضِ نِسَائِهِ فَأَرْسَلَتْ إِحْدَى أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ بِصَحْفَةٍ فِيهَا طَعَامٌ، فَضَرَبَتِ الَّتِي النَّبِيُّ ﷺ فِي بَيْتِهَا يَدَ الخَادِمِ، فَسَقَطَتِ الصَّحْفَةُ فَانْفَلَقَتْ، فَجَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ فِلَقَ الصَّحْفَةِ، ثُمَّ جَعَلَ يَجْمَعُ فِيهَا الطَّعَامَ الَّذِي كَانَ فِي الصَّحْفَةِ وَيَقُولُ: « غَارَتْ أُمُّكُمْ » ثُمَّ حَبَسَ الخَادِمَ، حَتَّى أُتِيَ بِصَحْفَةٍ مِنْ عِنْدِ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا فَدَفَعَ الصَّحْفَةَ الصَّحِيحَةَ إِلَى الَّتِي كُسِرَتْ صَحْفَتُهَا وَأَمْسَكَ المَكْسُورَةَ فِي بَيْتِ الَّتِي كَسَرَتْ.[3]

وهو ﷺ الأسْوَةُ الحسَنةُ في معاملة الأطفال:

عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ ، قَالَ: قَبَّلَ رَسُولُ الله ﷺ الحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ، فَقَالَ: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الوَلَدِ مَا قَبَّلتُ مِنْهُمْ أَحَدًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ النبي ﷺ، فقَالَ: « مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ »[4].

(١) متفق عليه: خ (٥٢٢٨/ ٣٢٥/ ٩)، م (٢٤٣٩/ ١٨٩٠/ ٤).
(٢) متفق عليه: خ (٢٤٦٨/ ١١٤/ ٥)، م(١٤٧٩/ -٣١- / ١١٠٨/ ٢).
(٣) خ (٥٢٢٥/ ٣٢٠/ ٩)، ن(٧٠/ ٧).
(٤) متفق عليه: خ (٥٩٩٧/ ٤٢٦/ ١٠)، م(٢٣١٨/ ١٨٠٨/ ٤)، ت(١٩٧٦/ ٢١٢/ ٣)، د(٥١٩٦/ ١٢٩/ ١٤).

وَعَنْ عَائِشَةَ ﵂، قَالَتْ: قَدِمَ نَاسٌ مِنَ الأَعْرَابِ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالُوا: أَتُقَبِّلُونَ صِبْيَانَكُمْ؟ فَقَالَ: « **نَعَمْ** »، قَالُوا: لَكِننا وَالله لا نُقَبِّلُ، فَقَالَ ﷺ: « **أَوَأَمْلِكُ إِنْ كَانَ الله نَزَعَ مِنْ قلوبكم الرَّحْمَةَ** »[1].

وَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ ؛ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يُصَلِّي وَهُوَ حَامِلٌ أُمَامَةَ بِنْتَ زَيْنَبَ بِنْتِ رَسُولِ الله ﷺ وَلأَبِي العَاصِ بْنِ الرَبِيعِ، فَإِذَا قَامَ حَمَلَهَا، وَإِذَا سَجَدَ وَضَعَهَا.[2]

وعَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ، فأقبل الحَسَنُ وَالحُسَيْنُ ﵄، وَعَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ، يمشيان ويَعْثُرَانِ، فَنَزَلَ رسول الله ﷺ مِنَ المِنْبَرِ، فَحَمَلَهُمَا واحدًا من ذا الشق، وواحدًا من ذا الشق، ثُمَّ صَعِدَ المِنْبَرِ فقَالَ: « **صَدَقَ الله ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾** [التغابن: ١٥]، **إِنِّي لَمَّا نَظَرْتُ إِلَى هَـذَيْنِ الغُلامَيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ لَمْ أَصْبِرْ أن قَطَعْتُ كَلامِي وَنَزَلتُ إِلَيْهِمَا** »[3].

وهو ﷺ الأسوةُ الحسنةُ في الصَّبْرِ على موْتِ الأوْلاد ؛ فلقد رُزق سبعةً من الولد؛ ثلاثةَ ذكور، وأربعَ إناث، مات الصبيانُ الثلاثةُ صغارًا، وماتت ثلاث بناتٍ في حياته ﷺ، ولم تعمِّر بعده إلا فاطمةُ ﵂، فإنها عاشت بعده ستَّةَ أشْهُرٍ، فصبَرَ على مَوْتِ أوْلادِه أجمعين، واحتَسبهم عنْد الله ربِّ العالمين.

وذاتَ يوْم أَرْسَلَتِ إليه إحدى بناته تقول: إنَّ ابْني قد احتُضر فاشهدنا، فَأَرْسَلَ إليها يَقُولُ: « **إِنَّ لله مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلٌّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فمُرْها فَلتَصْبِرْ وَلتَحْتَسِبْ** »، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ تحْلِفُ عَلَيْهِ لَيَأْتِيَنَّهَا، فَقَامَ وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ،

---

(١) متفق عليه: خ (٥٩٩٨/ ٤٢٦/ ١٠)، م(٢٣١٧/ ١٨٠٨/ ٤).

(٢) متفق عليه: خ(٥١٦/ ٥٩٠/ ١)، م(٥٤٣/ ٣٨٥/ ١)، د(٩٠٤/ ١٨٥/ ٣)، ن(٤٥/ ٢).

(٣) صحيح: [ص. د: ٩٨١]، د(١٠٩٦/ ٤٥٨/ ٣)، ت(٣٨٦٥/ ٣٢٣ و ٣٢٤/ ٥)، ن(١٠٨/ ٣)، جه (٣٦٠٠/ ١٩٩٠/ ٢).

فَرُفِعَ إِلَيه الصَّبِيُّ وَنَفْسُهُ تَتَقَعْقَعُ، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِه: مَا هَذَا يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: « **هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا الله فِي قُلُوبِ من شاء من عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ الله مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ** »[1].

وهو ﷺ الأسوَةُ الحسنَةُ في معاملةِ الجيران، وكان يقول: « **مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ** »[2]، ويقول: « **مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ** »[3]، وينْهى عن أذى الجار، فيقول: « **مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِي جَارَهُ** »[4].

وهو ﷺ الأسوةُ الحسنَةُ في معاملة الناس؛ فلقد باع واشترى، وكان سمْحًا إذا باع، سمْحًا إذا اشترى، وكان إذا استَسْلَفَ سلفًا وفَّى خيرًا منه، وكان إذا استَسْلَف من رجل سلفًا قضاه إياه ودعا له، فقال: « **بَارَكَ الله لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ إِنَّمَا جَزَاءُ السَّلَفِ الحَمْدُ وَالأَدَاءُ** »[5].

وهو ﷺ الأسوَةَ الحسنَةُ في الجودِ والكرم، فلقد كان أجْوَدَ النَّاس، وكان أجْوَدَ ما يكونُ في رَمضان[6]. وكان يُعطي عطاءَ من لا يَخْشَى الفَقْر، وما سُئل شيئًا إلا أعطاه.[7]

---

(١) متفق عليه: خ(١٢٨٤/ ١٥١/ ٣)، م(٩٢٣/ ٦٣٥/ ٢)، د(٣١٠٩/ ٣٩٦/ ٨)، ن(٢١/ ٤)، جه(١٥٨٨/ ٥٠٦/ ١).

(٢) متفق عليه: خ(٦٠١٤/ ٤٤١/ ١٠)، م(٢٦٢٤/ ٢٠٢٥/ ٤)، د(٥١٢٩/ ٦١/ ١٤)، ت(٢٠٠٨/ ٢٢٤/ ٣)، جه (٣٦٧٣/ ١٢١١/ ٢).

(٣) م (٤٨/ ٦٩/ ١).

(٤) متفق عليه: خ(٦٠١٨/ ٤٤٥/ ١٠)، م(٤٧/ ٦٨/ ١)، د(٥١٣٢/ ٦٢/ ١٤).

(٥) حسن: [ص. جه:١٩٦٨]، جه (٢٤٢٤/ ٨٠٩/ ٢)، ن(٣١٤/ ٧)، وانظر زاد المعاد (١٦٥/ ١).

(٦) متفق عليه: خ (٦/ ٣٠/ ١)، م (٢٣٠٨/ ١٨٠٣/ ٤)، ن(١٢٥/ ٤).

(٧) متفق عليه: خ (٦٠٣٤/ ٤٥٥/ ١٠)، م (٢٣١١/ ١٨٠٥/ ٤).

وهو ﷺ الأسوةُ الحسنةُ في الزُّهد في الدُّنيا والإعْراض عنها، وكان يقول: « **مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، مَا أَنَا وَالدُّنْيَا إلاَّ كَرَاكِبٍ استظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا** »[١].

وكان يمرُّ الهلالُ، ثُمَّ الهلالُ، ثُمَّ الهلالُ، ثلاثَةُ أَهِلَّةٍ في شهْرين وما يُوقَدُ في بيْتٍ من بيُوتِ النبيِّ ﷺ نارٌ، إنَّما هُمَا الأسْوَدان؛ التَّمر، والماء.[٢]

وهو ﷺ الأسوةُ الحسنةُ في التَّواضع ؛ فلقد كانت الأمَةُ من إماءِ المدينةِ تأخذُ بيده فتنطلقُ به حيث شاءت، فما يتركُها حتى يقْضِيَ لها حاجتَها.[٣]

وكان إذا دخل عليهم لا يقُومونَ له لما يعْلَمُونَ من كراهِيَتِهِ لذلك.[٤]

وهو ﷺ الأسوةُ الحسنةُ في الشَّجاعة ؛ فلقد دوَّى صَوْتٌ في المدينةِ ذاتَ ليْلَةٍ، فهرَع النَّاسُ إليه، فلَقِيَهم رسولُ الله ﷺ وهو يقول: « **لَمْ تُرَاعُوا** »[٥].

ويَوْمَ حُنَيْنٍ لَّما فاجأ المشركون المسلمين فتفرَّقوا، وفرُّوا هاربين، ثبتَ ﷺ على دابته، وجعل يقول: « **أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ** »[٦].

وهو ﷺ الأسوةُ الحسنَةُ في السِّلم والحرْب، واحْتِرَام العُهود، والوفاءِ بها؛ دخلَ ﷺ المدينةَ رافعًا رايةَ السَّلام، دخل يقول: « **يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلاَمَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الجَنَّةَ بِسَلاَمٍ** »[٧].

---

(١) صحيح: [ص ج:٥٥٤٤]، ت (٢٤٨٣/ ١٧/ ٤)، جه (٤١٠٩/ ١٣٧٦/ ٢).
(٢) متفق عليه: خ (٦٤٥٩/ ٢٨٣/ ١١)، م (٢٩٧٢/ ٢٢٨٣/ ٤).
(٣) خ (٦٠٧٢/ ٤٨٩/ ١٠).
(٤) صحيح: [ص. خد:٧٢٤]، ت(٥٩٠٢/ ١٨٣/ ٤).
(٥) متفق عليه: خ(٢٩٠٨/ ٩٥/ ٦)، م(٢٣٠٧/ ١٨٠٢/ ٤).
(٦) متفق عليه: خ(٢٨٧٤/ ٧٥/ ٦)، م(١٧٧٦/ ١٤٠٠/ ٣)، ت(١٧٣٨/ ١١٧/ ٣).
(٧) صحيح: [ص. جه: ٢٦٣٠]، جه (٣٢٥١/ ١٠٨٣/ ٢)، ت(٢٦٠٣/ ٦٥/ ٤).

وأخذ ﷺ يُرْسِي قواعِدَ السَّلام، فصالَحَ مَنْ بالمدينةِ مِنْ طوائفِ اليهود وعاهَدهم، ثم وفّى لهم، حتى كانوا هم الذين نقَضُوا وغَدَرُوا، فسار إليهم، فأجْلَى بعْضَهم وقتَل بعْضَهم.

وبالجملة فهو ﷺ الأسوةُ الحسنَةُ في كلِّ شيء، والصُّورَةُ الحيَّةُ للشخصيَّةِ المسْلمةِ كما أرادَها الله، وحسْبُنَا قولُ عائشةَ ﵂، وقد سُئِلَتْ عن خُلُقِ رسُولِ الله ﷺ فقالتْ للسَّائل: هل تَقرَأُ القُرْآنَ؟ قال: نعم، قالتْ: كانَ خُلقُه القُرْآن.[1]

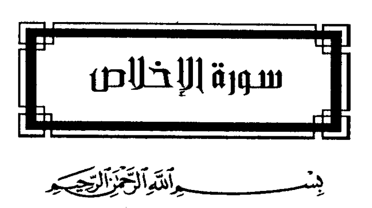
لا جرَم أمرنا الله بالتَّأسِّي به ﷺ، وجعل التَّأسِّي به من خصائص أهلِ الإيمان، فقال: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو الله وَاليَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ الله كَثِيرًا** ﴾.

فيا أيها المؤمن الرَّاجي عفْوَ ربِّه؛ إنَّ النبيَّ ﷺ موصوفٌ بصفات الكمال، منزَّه على كل نقص، مبرَّأٌ من كل عيْب، معصومٌ من كل ذنب، وقد شَهِدَ له ربُّه بالعِصْمةِ من الزَّيْغِ والانحراف والغيّ والضَّلال، فقال سبحانه: ﴿ **وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى** ﴾ [النجم: ١، ٢]، والضَّلالُ نتيجةُ الجَهْل، والغَيُّ نتيجةُ اتِّباع الهوى الذي يقْتَضِي مُخالفَةَ العلم، والله سبحانه يبرِّيء نبيَّه ﷺ من الضَّلال والغيِّ، فيشْهَدَ له بالعِلم والعمَل معًا، ممَّا يجعلُ المتأسِّيَ به دائمًا واثقًا مطمئنًا أنه لن يَزِلَّ ولن يخْزَى.

وأما غَيْرُ النبيِّ ﷺ فعِلمُه قليل، وقد يكون عَملُه أقلَّ، وهو عُرْضَةٌ للخطأ والزَّلل، وعُرْضَةٌ لغلبةِ الهوى، فمن تأسَّى به لم يكن واثقًا ولا مطمئنًا؛ لأنه تأسَّى بغير المعْصوم.

(١) م(٧٤٦/ ٥١٢/ - ٥١٤/ ١)، د(١٣٢٨/ ٢١٩- ٢٢٢/ ٤)، ن(١٩٩- ٢٠١/ ٣).

فهيّا بنا جميعًا لنتأسّى بالمعْصوم، فنكونَ على ثقةٍ من أنّنا على صراطٍ مستقيم، كما قال تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِنْ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة:١٦،١٥].



سورة الإخلاص

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

هذه هي سورةُ الإخلاص، سمّيت كذلك؛ لأنها أُخلصت لِذِكْرِ أسماءِ الله تعالى وصفاته ، أوْ لأنَّ من قرأها معتقدًا بها فقد أخلص توحيدَه لله ﷻ . وهي سورةٌ مكيَّة، ولها فضلٌ عظيم، ومن فضْلها أنّها اشتملت على اسْمِ الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب.

فعَنْ بُرَيْدَةَ ﵁ قَالَ: سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلاً يَقُولُ: اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ الأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، فَقَالَ النبي ﷺ : « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ؛ لَقَدْ سَأَلَ اللهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى** »[1].

ومن فضْلها أنَّ من أحبّها دخل الجنة، فعَنْ أَنَسٍ ﵁ أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يارسول الله إِنِّي أُحِبُّ هَذِهِ السُّورَةَ ﴿ **قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ** ﴾ فَقَالَ النبي ﷺ: « **حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الجَنَّةَ** »[2].

ومن فضْلها أنها تعْدِلُ ثُلُثَ القرآن، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ : أن النبي ﷺ قال لأصحابه يومًا: « **احْشُدُوا، فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ القُرْآنِ** » فَحَشَدَ مَنْ حَشَدَ،

(١) صحيح: [ص. جه: ٣١١١]: ت (٣٥٤٢/ ١٧٨/ ٥)، د(١٤٧٩/ ٣٦٢/ ٤)، جه(٣٨٥٧/ ١٢٦٧/ ٢).

(٢) حسن: ت (٣٠٦٥/ ٢٤٣/ ٤) وقال: هذا حديث حسن.

فخَرَجَ رسول الله ﷺ فَقَرَأَ ﴿ قُل هُوَ الله أَحَدٌ ﴾ ثُمَّ دَخَلَ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ: أَوَ لَيْسَ قَدْ قَال: سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ القُرْآنِ؟ مَا دَخَلَ إلاَّ لِخَبَرٍ جَاءَهُ مِنَ السَّمَاءِ، فخَرَجَ ﷺ فَقَالَ: « إِنِّي قُلتُ: إني سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ القُرْآنِ، إِنَّهَا لتَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ »(١).

وإنما كانت تعدل ثُلُثَ القرآن " لأنَّ القرآنَ كلَّه من أوَّله إلى آخره توحيد، فالقرآنُ إمَّا خبرٌ عن أسماءِ الله تعالى وصفاته، وهذا هو التَّوحيدُ العِلمِيُ الخبريّ، وإما دعوةٌ إلى عبادته وحده لا شريكَ له، وخَلعِ ما يُعبد من دونه، وهذا هو التَّوحيدُ الطلبيُّ الإراديّ، وإما أمرٌ ونهيٌ وإلزامٌ بطاعته، وهذا من حقوق التَّوحيد ومكمِّلاته، وإما خبرٌ عن الموحّدين وما أكرمهم الله به في الدنيا، وما أعدّه لهم في الآخرة من النَّعيم العظيم، ورضوانٌ من الله أكبر، وهذا خبرٌ عن جزاء الموحِّدين، وإما خبرٌ عن الشِرْك وأهْلِه، وما أحلّ بهم في الدُّنيا من النّكال، وما أعدّ لهم في الآخرة من العذاب، وهذا خبرٌ عن جزاءِ مَنْ حادَ عن التَّوحيد ووقَع في الشِّرْكِ، فالقرآنُ كلُّه إما حديثٌ عن التَّوحيد وأهلِه وجزائهم، وإما حديثٌ عن الشِّرْكِ وأهلِه ونكالِهم، فالقرآنُ إذن كلّه من أوّله إلى آخره توحيد "(٢).

والتوحيد ثلاثة أقسام: توحيدُ الربوبيَّة، وتوحيدُ الألوهيَّة، وتوحيدُ الأسماء والصفات، وقد أُخلصت سورةُ الإخلاص لتوحيدِ الأسماء والصفات، فلذلك كانت تعدل ثُلثَ القرآن.

وقال الغزالي: " مُهمَّاتُ القرآن معرفَةُ الله تعالى، ومعرفَةُ الآخرة، ومعرفَةُ الصِّراط المستقيم. فهذه المعارِفُ الثَلاثُ هي أهمّ المعارِفِ في القرآنِ الكريم، فهي أصْلٌ وما

(١) م(٨١٢/ ٥٥٧/ ١)، ت(٣٠٦٣/ ٢٤٢/ ٤).

(٢) شرح الطحاوية (ص٨٨).

سواها تَبعٌ لها، وسورةُ الإخلاصِ قد أُفْرِدَتْ لـذِكْرِ معرفَةِ الله تعالى بأسمائه وصفاتِه، فلذلك كانت تعْدِلُ ثلُثُ القرآن، لأنَّها اشتملت على ثُلثِ أصُول القرآنِ المهمَّة، وما سواها تبَعٌ لها، كما قال النبيُّ ﷺ «الحَجُّ عَرَفَةُ»[1]، يعني أنَّ الوقوفَ بعرفةَ هو أصْلُ أرْكانِ الحجِّ، وما سواه تَبعٌ له.

ولقد كان النبيُّ ﷺ يقرأ بهذه السُّورةِ مع سورةِ الكافرونَ في ركْعَتَي الطَّواف[2]، وركعتي الفجر (سنة الفجر)[3]، وفي الأُخْريينِ من الوِتر إذا أوتر بثلاث[4].

وأمر ﷺ بقراءتها مع المعوذَتيْن دُبُرَ كل صلاة[5] وعند النَّوْم كان يجمع كفَّيه وينفُث فيهما ثم يقرأ الإخلاصَ والمعوذَتيْن، ثم يمسح بكفَّيْه وجْهَه وما استقبل من جسده[6]، وكان إذا مَرِضَ فعل مثْلَ ذلك[7]، ولما مرِض ﷺ مرضَ الموت وعجز عن القراءة والحركة، كانت عائشةُ ل تجمع كفَّيه ﷺ فتنفثُ فيهما وتقرأ، ثم تمسَحُ بهما جسدَ رسُولِ الله ﷺ[8].

كما أمر النبيُّ ﷺ بقراءة الإخلاصِ والمعوذَتَيْن في الصَّباح والمساءِ ثلاثًا ثلاثًا[9].

---

(١) صحيح: [ص. جه: ٢٤٤١]، ت(٨٩٠/ ١٨٨/ ٢)، د (١٩٣٣/ ٤٢٥/ ٥)، جه (٣٠١٥/ ١٠٠٣/ ٢)، ن(٢٦٤/ ٥).

(٢) م (١٢١٨/ ٨٨٦/ ٢).

(٣) م (٧٢٦/ ٥٠٢/ ١)، د(١٢٤٣/ ١٣٥/ ٤)، ن(١٥٦/ ٢)، جه(١١٤٨/ ٣٦٣/ ١).

(٤) صحيح: [ص. ن: ١٦٠٧]، ن (٢٣٦/ ٣)، ت (٤٦١/ ٢٨٨/ ١).

(٥) صحيح: [ص. د: ١٣٤٨]، د(١٥٠٩/ ٣٨٥/ ٤)، ن(٦٨/ ٣).

(٦) خ (٥٠١٧/ ٩٢/ ٩)، ت(٣٤٦٢/ ١٣٩/ ٥).

(٧) م(٢١٩٢- ٥١-/ ١٧٢٣/ ٤)، ط(١٧١٠/ ٦٧٣)، د(٣٨٨٤/ ٣٩٥/ ١٠).

(٨) متفق عليه: خ(٥٧٣٥/ ١٩٥/ ١٠)، م(٢١٩٢/ ١٧٢٣/ ٤)، د(٣٨٨٤/ ٣٩٥/ ١٠).

(٩) حسن: [ص.د: ٥٠٨٢]، د(٥٠٦١/ ٤٢٧/ ١٣)، ت(٣٦٤٦/ ٢٢٧/ ٥).

﴿ قُل ﴾ هذا خطابٌ للنبيِّ ﷺ ولكلِّ من صلَح للخطاب، يعني قل قولاً جازمًا معتقدًا له بقلبك، عارفًا به عالما، ﴿ هُوَ الله أَحَدٌ ﴾ أحدٌ في ذاته فلا ثانِيَ له، وأحدٌ في صفاته، فلا شبيهَ له، ولا نظير، ولا ندّ ولا عديل، وأحدٌ في أفعاله فلا رادَّ لقضائه، ولا مُعقِّبَ لحُكْمه، ولا غالبَ لأمره، ﴿ وَالله يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ [الرعد:٤١]، ﴿ وَالله غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾ [يوسف:٢١]، ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢].

ودليلُ أحديَّته قوْلُه تعالى: ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي البَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ الله مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:١٦٣،١٦٢].

فخَلقُ السَّمواتِ والأرْض، واختلافُ اللَّيْلِ والنَّهار، والفُلكُ التي تجري في البحر، والسَّحابُ الذي يجْري في السماء، وإحياءُ الأرْضِ الميْتة بالماء، كلُّ ذلكَ دليلٌ على أحدَيَّةِ الله ﷻ، ذلكَ أنَّ الله وحده هو الذي دبّر هذا كلَّه، وصرّفه وِفق مشيئته وإرادته، لا رادّ لقضائه، ولا مُعقب لحُكْمِه ﴿ هَذَا خَلقُ الله فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَل الظَّالِمُونَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ﴾ [لقمان:١١].

فالله سبحانه وتعالى هو الَّذي خلقَ السَّمواتِ والأرْض ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان:٦٢].

وهو الذي تجري الفلكُ في البحْر بأمره: ﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنْ الرِّيحَ فَيَظْلَلنَ رَوَاكِدَ

عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى:٣٣،٣٤].

وهو الذي ينزِّل الماءَ من السَّماء فيُحْيِي به الأرضَ بعد موْتها، ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ [الحج: ٥-٧].

ولذا قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَءِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَءِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَءِلَهٌ مَعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَءِلَهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل: ٦٠ - ٦٤].

فواعجبًا كيف يُعصى الإلهُ أم كيف يجْحدُه الجاحِدُ
وفي كل شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنهُ واحِدُ

﴿ اللهُ الصَّمَدُ ﴾ قالوا في معنى الصَّمد: الذي لا جوْفَ له، الباقي بعد فناء خلقه، الذي يَقْصِدُه الخلائقُ كلُّهم في حوائجهم ومسائلهم، السيّد الذي بلغ الكمالَ في سُؤْدُدِه، والشَّريفُ الذي بلغ الكمالَ في شرَفه، والعظيمُ الذي بلغ الكمالَ في عظمته،

والحكيمُ الذي بلغ الكمالَ في حكمته، والعليمُ الذي بلغ الكمالَ في علمه، والحليمُ الذي بلغ الكمالَ في حلمه.(١)

والصَّحيح أنَّها كلَّها أقوالٌ متقاربةُ المعنى، ولا تعارضَ بينها، ولا تبايُنَ ولا اختلافَ، فالله الأحد ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ﴾ [الحديد:٣]، وهو الغفورُ الحليم، وهو العليم الحكيم، وهو الغَنِيُّ الذي ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ [طه:٦]، ولذلك يقصده الخلائِقُ كلُّهم في حوائجهم ومسائِلهم، لشدَّةِ غناه وشِدَّة فقرِهم إليه، ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الرحمن:٢٩]، وسؤالُهم إيَّاه دليلُ فقْرِهم وكثْرةِ غناه، فلَوْلا أنَّهم إليه فقراء ما سألوه، ولوْلاَ أنه غنيٌّ ما سألوه، ولوْلا أنه مُطَّلِعٌ على كل شيءٍ ما توجَّهوا إليه.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي البَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٦٧]، ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ الله أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ الله تَدْعُونَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:٤٠، ٤١] فالله تعالى هو الصمد، يقصِدُه الخلائِقُ كلُّهم بحوائجِهم ومسائِلِهم، وما مِنْ إنسانٍ تصيبُه شِدَّةٌ، أو تنزِلُ بِه مصيبةٌ، برًّا كان أو فاجرًا، مُطيعًا كان أو عاصيًا، مؤمنًا كان أو كافرًا، غنيًّا كان أو فقيرا، مامن إنسانٍ تصيبُه شِدَّةٌ، أو تنْزِلُ به مصيبةٌ إلا وجد نفسَه لاجئًا إلى الله مضطرًا إليه، يلهجُ بدُعائه وسؤاله: يا ألله ! يا ألله ! يا ألله ! ياربّ ! ياربّ ! ذلك أن الله فطر النَّاسَ على توحيده، فاجتالتْهم الشَّياطين، وعلا الرانُ القلوبَ فغطَّاها وغلّفها، فإذا جاءتْ شدّةٌ أزالت الرّانَ عن الفطرة فتوجَّه الإنسانُ بفطرته إلى الله يسأله أن يكشِفَ عنه السُّوء ويجيب الدُّعاء.

---

(١) روح المعاني (٣٥٠/ ٣٠).

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَءِلَهٌ مَعَ الله قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل:٦٢].

﴿ قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ ۝ الله الصَّمَدُ ﴾. " أدخلت " ال " على " الصمد " ولم تدخل على " أحد " لأنه ليس في الأعْيان مَنْ يسمى بأحدٍ في الإثبات إلا الله تعالى، بخلاف النفي وما في معناه كالشرط والاستفهام، فإنه قد يدخل فيه لفظ أحد، تقول: ما في الدار أحدٌ، هل في الدار أحد؟ إن جاءني أحدٌ من طرفك أكرمْتُه. ولكن لا يطلق لفظ " أحد " في الإيجاب إلا على الله تعالى، ولذلك قال: ﴿ قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ ﴾ ولم يقل: قل هو الله الأحد.

أما الصَّمدُ، وهو المقصودُ الذي يُقْصَدُ في الحوائج والمسائل، فإن بعض الخَلقِ قد يُقْصَدُ في الحوائج مِنْ بعْضِ الخَلق، فلم يقل الله تعالى: الله صَمدٌ، لأن هناك من الخلق من يُصْمَدُ عليه ويُقصد في الحوائج وإنما قال: ﴿ الله الصَّمَدُ ﴾ ليعلم عبارة أن الذي يجب أن يصمد عليه ويقصد في الحوائج والمسائل كلّها هو الله وحده دون غيره "[1].

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ نفى الله عن نفسه سبحانه الولد، كما نفى عن نفسه سبحانه الوالد، والعكس هو الأصل، فكان الأصلُ أن يقدِّم نفْيَ الوالِدِ على نفي الولد؛ لأنَّ الولد يكون من الوالد، ولكن لمَّا لم يُسمع في الناس ألبتة من يدّعى لله والدًا، وإنما سُمِعَ من الناس من ادَّعى لله الولد، قدَّم الله سبحانه في النَّفي ذِكْرَ الولد على الوالد فقال: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾[2].

---

(١) مجموع فتاوي ابن تيمية (٢٣٥-٢٣٩/ ١٧).

(٢) انظر " التفسير الكبير " للرازي (١٨٣/ ٣٢).

ولقد كثُر في القرآن الكريم نَفْيُ الولد عن الله ﷻ، وذمُّ الذين نسبوا إليه الولد، قال الله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لله الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ الله وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴾ [الكهف: ١-٥].

وقال سبحانه: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٨٨-٩٣]، فإذا كان كلُّ من في السموات والأرض عبيدَه فما به من حاجةٍ إلى اتخاذ ولدٍ من عبيده.

وقال تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ الله مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وقال تعالى: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ الله وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ [يونس: ٦٨].

فالله غنيٌّ عن اتخاذ الولدْ، أما الإنسان فهو الذي يحتاج إلى الولد، الإنسان يحتاج إلى الولد ليبقى ذِكْرُه في الناس بولده بعد موته، والله حيّ لايموت، لا يحتاج إلى ولد يحمل اسمه بعد موته لأنه لا يموت.

الإنسان يحتاج إلى الولد ليأكلَ من كسْبِه ويسْتَغْنِيَ بماله، والله سبحانه وتعالى هو الذي يُطعِم ولا يُطعَم، وهو الرزّاق ذو القوة المتين، وهو الغنيُّ، ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾ [طه: ٦].

والإنسان يحتاج إلى الولد ليستَكْثِرَ به من قِلَّة، ويقْوَي به من ضَعْف، والله تعالى هو القدير، وهو القادر، وهو القويُّ، وهو الغالب، وهو القاهر، وهو الجبَّار، وهو المنتقم، وهو المتكبر، فليس بالله حاجةٌ إلى اتخاذ الولد، ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾.

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ لم يكن لله ألبتةَ نِدٌّ، ولا نظير، ولا شبيه، ولا عديل، وهذه الآيةُ كقوله سبحانه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ليس كمثله شيءٌ في ذاته، وليس كمثله شيء في صفاته، وليس كمثله شيء في أفعاله، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾.

وهكذا كانت سورةُ الإخلاص ثُلثَ القرآن، لأنَّ القرآن كلّه - كما بيَّنا - توحيد، والتَّوحيد ثلاثةُ أقسام: توحيد الربوبيَّة، وتوحيد الألوهيَّة، وتوحيد الأسماء والصفات، وقد أُفردت له سورة الإخلاص.

أما توحيد الربوبيَّةِ فمعناه: الإيمانُ الجازمُ مع الإقرارِ بأنّ الله هو ربّ العالمين، خالقُ الخلق، ومالكُ الملك، ومدبّر الأمر، يحيي ويميت، ويعزّ ويذلّ، ويعطي ويمنع، ويرفع ويضع، ويتصرَّف في ملكه كيفما يشاء، ولا مصرّف للكون غيرُه، ولا مدبّر للكون سواه.

أما توحيد الألوهيَّة فمعناه: الاعتقادُ الجازُم مع الإقرار بأنَّ الله ربّ العالمين هو إله العالمين، فكما لا ربّ للعالمين غيرُه، لا إلَه لهم سواه، وهذا معنى قولنا: لا إلهَ إلا الله، أي: لا معبودَ بحقٍّ إلا الله.

والتَّوحيد الأوَّل - توحيد الربوبيَّة - لا يُسْمِنُ ولا يُغْنِي من جوع بدون توحيد الألوهيَّة، فمن أقرّ بأنَّ الله ربّ العالمين، مالك الملك، ومدبّر الأمر، ولم يقرّ بأن الله هو الإله المستحقُّ للعبادة دون سواه، لم ينفعه الإقرارُ بأن الله ربّ العالمين، فالمشركون كانوا

يقرُّون بأن الله ربّ العالمين: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف:٨٧]، ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [العنكبوت:٦١]، ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ الله ﴾ [يونس:٣١]، فما أغنى عنهم إيمانُهم بأنَّ الله ربُّ العالمين.

فلابدَّ أن يعتقدَ كلُّ مسلمٍ اعتقادًا جازمًا أن الآلهة كلَّها سوى الله آلهة باطلة، وأنه لا يستحقُّ العبادةَ أحدٌ إلا الله، ويجب على كلِّ مسلم أن يعرفَ معنى هذه الكلمةِ الطيّبة التي يردُّدها على لسانه في اليوم مرَّات: لا إلهَ إلا الله، وأن يعلم أنَّ معناها: لا معبودَ بحقٍّ إلا الله.

أما توحيدُ الأسماء والصفات، الذي أُخلصت له سورةُ الإخلاص فمعناه: أن نُثْبِتَ لله تعالى من الأسماء والصفات ما أثْبتَه الله لنفسه في مُحْكَمِ كتابه، أو فيما صحّ على لسان رسولِه، من غير تكْييفٍ ولا تحريف، ولا تمثيلٍ ولا تعطيل، وقوفًا عند قوله سبحانه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] فـ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ردّ على المشّبهة، ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ ردّ على المعطلة، وسبيلُ الحق بيْنهما لأهل السنَّة والجماعة، إثباتٌ من غير تكْييفٍ ولا تحريف، ولا تمثيلٍ ولا تعطيل، فنثبت لله تعالى كلَّ ما أثبته الله لنفسه في محكم كتابه، أو فيما صحّ على لسان رسوله من الأسماء والصفات، ونفوِّض العِلمَ بالكيفيَّة إلى الله ﷻ، لأنه لم يُعْلِمْنا كيف هو؟ فنثبتُ الصِّفةَ ونحن نعلم معناها، أما كيفيّتُها فنردُّ علمَها إلى الله، ومثال ذلك، أنَّا نقول في قولِ ربِّنا: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه:٥] الاستواءُ معلوم، وهو العلوُّ والارتفاع، فربّنا على العرْش استوى، أي: علا وارتفع لا كاستوائنا، وإنما استواءٌ يليق بجلاله

وعظمتِه وكبريائه، أما كيْفَ استوى؟ فهذا يجب أن نسكُتَ عنه، لأنَّ الله لم يخبرْنا عنه ولا رسولُه ﷺ.

وكما يجب أن نُثْبِتَ لله تعالى ما أثبته لنفسِه من الأسماء والصِّفات يجب أيضًا أن نَنْفِيَ عنه سبحانه من النقائص والمعايب ما نفاه الله عن نفسه، وأن نعلم أنَّ أسلم طريقةٍ في النَّفْي هي طريقة القرآن، حيث يُجْمِلُ في النَّفْي، ويفصّل في الإثبات، يقول الله ﷻ: ﴿ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلعَبِيدِ ﴾ [فصلت:٤٦]. ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ ﴾ [يونس:٦١].

هذه طريقةُ القرآنِ في النَّفي، أما طريقتُه في الإثْبات فهي التفصيل: ﴿ هُوَ الله الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ الله الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلاَمُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ الله عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ الله الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ [الحشر:٢٢-٢٤].

وهذه الطَّريقةُ القرآنيَّةُ تخالف الطَّريقةَ الكلاميَّة التي تُجْمِلُ في الإثبات وتفصّل في النفي، فيقولون: ليس بجسم، ولا شبح، ولا كذا ولا كذا، وهذه طريقةٌ مذمومة لمخالفتها الطريقةَ القرآنيَّة الحكيمة، ولذلك قال السلف: إذا أجْمَلتَ في النَّفْي فقد أجْمَلتَ في الأدب [1].

نسأل الله تعالى أن يفقهّنا في دينه، وأن يؤدِّبنا بأدب القرآن، وأن يُخلِّقنا بأخلاق القرآن، وأن يرزقَنا سلامة التَّوحيد، وسلامةَ العبادة، إنه وليّ ذلك والقادر عليه.

(١) شرح الطحاوية (ص١٠٩).

دلائل التوحيد

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لله أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٢،٢١].

«لمَّا أمر الله تعالى النَّاس كافةً بعبادته وحده لا شريك له بيَّن لهم أنَّ هذا حَقُّه عليهم لا يستَحِقُّه غيرُه، لأنَّه خلقَهم وخلَق آباءهم الأولين، وما يعبدون من دونه لا يخلقُون شيئاً وهم يُخلقون، ومن لا يَخْلُق يكون عاجزاً، والعاجزُ لايصلح أن يكون إلهاً»[1].

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلُوبُ ۝ مَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ يعني حين عبَدوا معه غيرَه مِنْ خلقه العَجَزة الضَّعفَة، ﴿إِنَّ الله لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج:٧٣، ٧٤].

فهو المستحِقُّ وحدَه للعبادة، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ۝ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُورًا ﴾[الفرقان:١-٣].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (٨٧).

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا الله رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَالَى الله عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾[الأعراف:١٨٩-١٩٢]

فالذي خَلَق هو الذي يجبُ أَن يُعبَد، ولذلك أنكر الأنبياءُ على المشركين عبادةَ المخلوقين من دون الله ربِّ العالمين فقال الخليلُ إبراهيم: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَالله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[الصافات: ٩٥، ٩٦].

وقال إلياس: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ الله رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ [الصافات:١٢٥،١٢٦].

ومن دلائل التوحيد: خَلقُ السموات والأرض ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا﴾[البقرة:٢٢] سهلاً ممهَّداً مرُيحاً، قد يتركُ الإنسانُ الفُرُشَ المرفوعةَ وينام على الأرضِ الموضوعة، فيجد عليها راحتَه بل إنَّ الإنسانَ قد يمرض فيكون من العلاج أن ينام على الأرض، ولكنَّ الناسَ ينْسَوْن هذا الفراشَ الذي مهَّده الله لهم لطولِ ما أَلِفُوه، ينْسَوْنَ هذا التوافُقَ الذي جعلَه الله في الأرض ليمهِّد لهم وسائِلَ العَيْش وما سخَّره لهم فيها من وسائل الرَّاحة والمتاع، ولولا هذا التوافُقُ ما قامت حياتُهم على هذا الكوكب في مثل هذا اليُسْرِ والطُّمأنينة.

والذي جعل الأرضَ فِراشاً هو الذي جعل ﴿السَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة:٢٢]، فيها متانةُ البناء وتنسيقُ البناء، والسَّماءُ ذاتُ علاقةٍ وثيقةٍ بحياة الناس في الأرض

وبسهولةِ هذه الحياة، وهي بحرارتها وضَوْئها وجاذبيَّة أجرامها وتناسُقها وسائر النِّسب بين الأرض وبينها تُمهِّد الحياةَ على الأرض وتُعين عليها.

ومن دلائل التوحيد: المَطَر: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾[البقرة:٢٢].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤-٣٢].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل ١٠، ١١].

فالماءُ النَّازلُ من السماء هو مادَّةُ الحياة الرئيسيَّة للأحياء في الأرض جميعاً، فمنه تنشأُ الحياةُ بكلِّ أشكالها ودرجاتها كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، سواءٌ أنبت الزَّرعَ مباشرةً حين يختلط بالأرض أو كوَّن الأنهارَ والبُحيْرات العذبَةَ أو انساح في طبقاتِ الأرض فتألَّفت منه المياهُ الجوفيَّة، التي تتفجَّر عُيوناً أو تُحفَر آباراً، أو تُحفَر بالآلات إلى السطح مرة أخرى.

فهذا الماء النَّازلُ من السماء آية من آيات التوحيد ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة:٦٨-٧٠].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾ [الملك: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

ومن دلائل التوحيد في سورة البقرة قولُه تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[البقرة:١٦٣، ١٦٤]، فزاد على ما ذكرنا اختلافَ اللَّيل والنَّهار بالطُّول والقِصَر ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ فيطول النهارُ ويقصر ُاللَّيل﴿ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴿١٣﴾ ﴾ [فاطر:١٣] فيطولُ اللَّيلُ ويقصرُ النَّهار، ويخلُف كلُّ منهما الآخر بنظامٍ ثابتٍ لا يتغيَّر.

كلُّ ذلك من دلائل التوحيد قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦١، ٦٢].

وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٣٧-٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَا ءَايَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء:١٢].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

[القصص:٧١-٧٣].

ومن دلائل التوحيد: السُّفنُ التي تجري في البحر بأمره، فَمَن الذي علَّم الإنسان صُنْعَها؟ ومَن الذي سخَّرها وسيَّرها؟ ومن الذي يحفظُها مِنَ الغَرق ؟

﴿الله الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي البَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ﴾[إبراهيم:٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ الجَوَارِي فِي البَحْرِ كَالأَعْلاَمِ ﴿٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٢-٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الفُلْكِ المَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ [يس:٤١-٤٤].

ومن دلائل التوحيد: الرِّياحُ والسَّحابُ المسخَّرُ بين السماء والأرض ليكونَ المطرُ متى شاء الله، كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان:٤٨].

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور:٤٣].

وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم:٤٨].

ولَمَّا بيَّن سبحانه وتعالى أَنَّه المستَحِقُّ للعبادة وحده نهاهم عن الشِّرْكِ به فقال تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾[البقرة:٢٢] أيْ: « أشباهاً ونُظراءَ من المخلوقين فتعبدُونهم كما تعبدُون الله وتُحِبُّونهم كما تُحِبُّون الله، وهم مِثْلكُم مخلُوقون مرزُوقون مدبَّرون لا يملكون مثقالَ ذرةٍ في الأرض ولا في السماء ولا ينفعونكم ولايضرون»[١].

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم:٤٠]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢] جملةٌ حاليَّةٌ متعلقة بالنهي الذي قبلها والمعنى ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ «أنَّ الله ليس له شريكٌ ولا نظيرٌ، لا في الخلق والرزق والتدبير ولا في الألوهية والكمال»[٢].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥٨/ ١).

(٢) المرجع السابق.

وذلك أنَّهم كانوا يعلمون أنَّ الله هو الخالقُ الرازقُ المدبِّر، وكانوا يُقِرُّون بذلك ويعترفون به كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف:٨٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَيَقُولُنَّ الله فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ۝ الله يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ الله قُلِ الحَمْدُ لله بَل أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت:٦١-٦٣].

وقال تعالى: ﴿قُل مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ الله فَقُل أَفَلاَ تَتَّقُونَ ۝ فَذَلِكُمُ الله رَبُّكُمُ الحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ۝ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ۝ قُل هَل مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الخَلقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ الله يَبْدَأُ الخَلقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [يونس:٣١-٣٤].

ومع ذلك جعلوا له أنداداً كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ الله أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله﴾ [البقرة:١٦٥]، وهذا من أعْجَب العجب كما قال القائل:

فواعجبًا كيف يُعصى الإلهُ ... أم كيف يجْحدُه الجاحِدُ
وفي كل شيءٍ له آيةٌ ... تدلُّ على أنهُ واحِدُ

ولذلك جاء هذا التعجُّب في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِالله وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٨، ٢٩].

وتكرَّر مثلُ هذا الإنكار في مواضعَ منها: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت:٩-١٢].

وفي مطلع سورة النحل عدَّد الله نِعَمه وآياتِه الكونيَّةَ والإنسانيَّةَ ثم قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[النحل:١٧]، وكذلك فعلَ في مَطْلعِ سُورة الزُّخرف ثم قال منكراً على المشركين ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾[الزخرف:١٥]، وقال في مَطْلَعِ سورة لقمان: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان:١٠-١١].

وهكذا «جمعتْ هذه الآيةُ بين الأمرِ بعبادة الله وحده والنَّهْيِ عن عبادة ما سواه، وبيانِ الدليل الباهر على وجُوبِ عبادته وبُطلانِ عبادة ما سواه. وهو ذِكْرُ توحيد الرُّبوبيَّة المتضمِّنِ انفرادَه بالخلق والرِّزق والتدبير، فإذا كان كلُّ أحدٍ مقرًّا بأنَّه ليس له شريكٌ في ذلك فكذلك فليكن الإقرارُ بأنَّ الله ليس له شريكٌ في عبادته، وهذا أوضحُ دليلٍ عقليٍّ على وحدانيَّة الباري تعالى وبُطلان الشرك»[1].

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥٨).

إنَّ جَعْلَ الأنداد لله أكبرُ الكبائر وأعظمُ الذنوب:

عَنْ عَبْدِ الله قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ الله؟ قَالَ: « **أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ** » (١).

وَعَنْهُ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « **مَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ** » (٢).

واتِّخاذُ النِّد على قسمين:

الأول : شِرْكٌ أكبر لا يُغْفَرَ: وهو أن يجعلَ العبدُ لله شريكاً في المحبّة والرَّجاء والخوْفِ والدُّعاء، والتعظيم والإجلال، والتوكُّلِ والإنابة، والخَشْيةِ والاستعانة، قال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ الله أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله**﴾ [البقرة:١٦٥]، « فأخبرَ سبحانَه أنَّ من أحبَّ مع الله شيئاً غيرَه كما يُحِبُّه فقد اتّخذه نِداً من دونه، وهذا هو العَدْلُ المذكور في قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**﴾ [الأنعام:١]، أيّ: يعدلون به غيرَه في العبادة فيسوُّون بينَه وبين غيرِه في الحُبِّ والعبادة، وقد أخبر سبحانه أنَّهم سيندمون على هذه التسوية فقال تعالى: ﴿**فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الشعراء:٩٤-٩٨].

ومعلومٌ أنَّ هذه التسويةَ لم تكن بينَهم وبين الله في كونِهم خَالقيهم فإنَّهم كانوا مقرِّين بأَنَّ الله وحده هو ربُّهم وخالقُهم، وإنَّما كانت هذه التسويةُ بينهم وبينَ الله في المحبَّة والعبادة، فمن أحبَّ غيرَ الله تعالى وخافه ورجاه وذلَّ له كما يُحبُّ الله ويخافُه ويرجوه فهذا هو الشِّرْكُ الأكبر الذي لا يغفره الله» (٣).

---

(١) متفق عليه: خ(٤٤٧٧/ ١٦٣/ ٨)، م(٨٦/ ٨٠/ ١)، ت(٣٢٣٢/ ١٧/ ٦)، د(٢٢٩٣/ ٤٢٢/ ٦).

(٢) خ (١٢٣٨/ ١١٠/ ٣).

(٣) محاسن للتأويل (٢١و٢٢/ ٣).

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٣٤].

ولذلك كانت أركانُ العبادة ثلاثةً: المحبَّةُ والرَّجاءُ والخوف، فمن رجي شيئاً أو خافه دون أن يُحِبَّه ويخضعَ له ويَذلَّ فليس عابداً، فكانت المحبة هي الأصل ولذلك خصَّها بالذكر.

الثاني: شركٌ أصغر ومنه: الرِّياء، وقولُ الرَّجُل للرَّجُل ما شاءَ الله وشئتَ، عن ابن عباس في قول الله ﷻ: ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾ قال: الأنداد هو الشِّرك، أخْفَى من دبيب النَّمل على صفاةٍ سوداءَ في ظلمةِ الليل، وهو أن يقول والله، وحَياتِك يا فلان، وحَياتي، ويقول لولا كلبةُ هذا لأتانا اللصوصُ البارحةَ، وقولُ الرَّجلُ لصاحبه ما شاء الله وشئتَ، وقولُ الرَّجُل لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلاناً هذا كلُّه به شرك»[1].

---

(١) ابن كثير (٥٧ و ٥٨/ ١).

السنة هي الحصن الحصين

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ عَمْرٍو السُّلَمِيُّ وَحُجْرُ بْنُ حُجْرٍ قَالاَ : أَتَيْنَا العِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ - وَهُوَ مِمَّنْ نَزَلَ فِيهِ ﴿ **وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ...** ﴾ الآيـة [التوبـة :٩٢] - فَسَلَّمْنَا وَقُلنَا: أَتَيْنَاكَ زَائِرِيْنَ وَعَائِدِيْنَ وَمُقْتَبِسِيْنَ ، فَقَالَ العِرْبَاضُ : صَلَّى بِنَا رَسُولُ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ، ذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ ، فَقَالَ قَائِلٌ : يَا رَسُولَ الله ! كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا ؟ فَقَالَ : « **أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا ، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ ، تَمَسَّكُوا بِهَا ، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ** »[1].

قوله : " وهو ممّن نزل فيه ﴿ **وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ...** ﴾، نزلت هذه الآيةُ وما قبلها في حقِّ فقراء المسلمين الذين عجَزُوا عن تجْهيز أنفسهم للخُروج إلى تبوك ، ولم يجد النبيُّ ﷺ ما يُساعِدُهم به على التجهيز ، وكانت هذه الغزوةُ في شهرِ رجبَ سنة تسْعٍ من الهجرة ، وكانت في زمن عُسْرَةٍ من الناس ، وجدْبٍ من البلاد ، وحين طابت الثمار، والنَّاسُ يحبُّون المقامَ في ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون شُخوصَهم على تلك الحال .

وكان ﷺ قلّما يخرج في غزوةٍ إلا كنّى عنها وورّى بغيرها ؛ إلا ما كان من غزوة

(١) صحيح : [ص. د : ٣٨٥١] ، د (٤٥٨٣/ ٣٥٨/ ١٢) والسياق له، وروى المرفوع فقط : ت(٢٨١٦/ ١٤٩/ ٤)، جه (٤٢/ ١٥/ ١) .

تبوك ، لبُعد الشُّقَّةِ وشدّة الزمان . (١)

وأخذ ﷺ يحثُّ على الجهاز ، ويرغّب الأغنياءَ في تجهيز الفقراء ، وجاء البكّاءون وهم سبعة، منهم العِرْباض، يسألون رسولَ الله ﷺ أن يحْمِلَهم، فقال: لا أجدُ ما أحْمِلُكم عليه فتولّوا وأعينُهم تذرف الدَّمْعَ على عجْزِهم عن تجهيز أنفسهم .

وخرج ﷺ والمسلمون ، وتخلّف الذين لا يجدون ما يُنْفِقُون ، حتى إذا رجع ﷺ قال لِمَنْ معه : « **إنَّ أقْوَامًا بِالمَدِينَةِ خلفَنَا مَا سَلَكْنَا شِعْبًا وَلاَ وَادِيًا إلاَّ وَهُمْ مَعَنَا فِيهِ حَبَسَهُمُ العُذْرُ** »(٢)، وفيهم نزلَ قولُ الله تعالى : ﴿**لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى المَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لله وَرَسُولِهِ مَا عَلَى المُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَالله غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنْ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ**﴾ [التوبة: ٩١، ٩٢] .

قال عبدُ الرحمن وحُجر : " فسلّمنا " أي لما دخلا على العرباض ، لأمر الله ﷻ بذلك ، حيث قال : ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ [النور: ٢٧] ، وقال تعالى : ﴿**فَإِذَا دَخَلتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ الله مُبَارَكَةً طَيِّبَةً**﴾ [النور: ٦١] .

فلما سلّما قالا للعرباض : أتيناك زائريْن وعائديْن ومقتبسيْن : فيه إشارةٌ إلى استحباب زيارةِ أهْلِ الخير ومجالستِهم والاستفادة منهم ، ولقد كان ﷺ يحثُّ على الزيارة والعيادة فيقول : « **مَنْ عَادَ مَرِيضًا أَوْ زَارَ أَخًا لَهُ فِي الله ، نَادَاهُ مُنَادٍ أَنْ طِبْتَ**

(١) زاد المعاد (٣/ ٥٢٦) .

(٢) صحيح : خ (٦/ ٤٦/ ٢٨٣٩) .

وَطَابَ مَمْشَاكَ ، وَتَبَوَّأْتَ مِنَ الجَنَّةِ مَنْزِلاً »(١).

وعَنْ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « قَالَ الله تبارك وتعالى : وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ وَالمُتَجَالِسِينَ فِيَّ وَالمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ وَالمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ »(٢).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « إِنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى ، فَأَرْصَدَ الله لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا ، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ : أَيْنَ تُرِيدُ ؟ قَالَ : أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ القَرْيَةِ ، قَالَ : هَل لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا ؟ قَالَ : لاَ ، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي الله . قَالَ : فَإِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكَ بِأَنَّ الله قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ »(٣).

فتزاوروا يا عبادَ الله في الله ولله ، أحْيوا هذه السنَّة العظيمةَ سنّة التّزاوُرِ في الله ، على غيْرِ أرحامٍ ولا أنساب، ولا مصالحَ دُنْيويَّة ، فإنَّ التّزاورَ اليومَ أكثره للمصلحةِ فإذا انتهت انتهى التزاور.

وقولها : ومقتبسيْن : الاقتباسُ في الأصْلِ أخْذُ القبَسِ من النار، والمراد به هنا الأخذ من العلم والأدب .

وفي هذا دليلٌ على استحباب قَصْدِ العلماء في بيُوتِهم للأخْذِ عنهم والاستفادةِ من علمهم وأدبهم .

ولقد حضّ الله تعالى على الخروج في طلب العلم والتفقه في الدين فقال: ﴿ وَمَا كَانَ المُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢] .

(١) حسن : [ص. جه : ١١٨٤] ، ت (٢٠٧٦/ ٢٤٦/ ٣) ، جه (١٤٤٣/ ٤٦٤/ ١) .

(٢) صحيح : [ص. ج:٤٢٠٧] ، ما(١٧٣٥/ ٦٨٠)، أ(٣٢/ ١٥٧/ ١٩)، كم(١٦٩/ ٤).

(٣) صحيح : م (٢٥٦٧/ ١٩٨٨/ ٤).

وكان النبي ﷺ يحثُّ على ذلك ويُرغِّب فيه فيقول : « **مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلمًا سَلَكَ الله بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ ، وَإِنَّ المَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ العِلمِ** »(١).

ولذلك كانت الرِّحْلَةُ في طلب العلم دأبَ الأوَّلين ، وكانوا يركبون اللَّيالِيَ والأيامَ في طلب الحديث الواحد ، حتى قال الشَّعبيّ : لو أنَّ رجلاً سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن ليسمَع كلمةَ حكمةٍ ما رأيتُ أن سفرَه ضاع .(٢)

ونحن نرى في المسلمين اليوم رغبةً عن العلم ، وإعراضًا عن الفقه ، وزهدًا فيه ، وهو بيْن أيديهم ، لا يكلّفهم شيئا ، وهذا إن دلّ على شيء فإنَّما يدلُّ على الجهل العظيم بقيمة العلم ، ولو أنَّهم علموا أن تعلّم العلم عبادة ، ومدارستَه تسبيح ، والبحثَ عَنْهُ جهاد (٣)، لحَرَصوا على مجالس العلم .

ولو أنهم سمعوا قولَ النبي ﷺ : « **وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الله، يَتْلُونَ كِتَابَ الله تعالى ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ ، إلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ ، وَحَفَّتْهُمُ المَلاَئِكَةُ ، وَذَكَرَهُمُ الله فِيمَنْ عِنْدَهُ** » (٤) . لحرصوا على مجالس العلم، ولو أنهم علموا أن خروجَهم من المسجد وتركَهم الجلوسَ في حلقةِ العلم بلا عُذْرٍ إعراضٌ عن الله ﷻ لما أعرضوا عن حلقات العلم أبدا:

عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي المَسْجِدِ وَالنَّاسُ مَعَهُ إِذْ أَقْبَلَ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ ، فَأَقْبَلَ اثْنَانِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَذَهَبَ وَاحِدٌ ، فَوَقَفَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ ،

---

(١) صحيح : [ص.ت:٢٦٨٢]، ت(٢٨٢٣/ ١٥٣/ ٤)، د(٣٦٢٤/ ٧٢- ٧٤/ ١٠)، جه(٢٢٣/ ٨١/ ١) .

(٢) جامع بيان العلم وفضله (٩٥/ ١) .

(٣) من كلام معاذ بن جبل ، ويروى مرفوعا ولا يصح . انظر " جامع بيان العلم وفضله " (٥٤/ ١).

(٤) م(٢٦٩٩/ ٢٠٧٤/ ٤)، ت(٤٠١٥/ ٢٦٥/ ٤) .

فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَرَأَى فُرْجَةً فِي الحَلقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا ، وَأَمَّا الآخَرُ فَجَلَسَ خَلفَهُمْ ، وَأَمَّا الثَّالِثُ فَأَدْبَرَ ذَاهِبًا ، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ الله ﷺ قَالَ : « **أَلاَ أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلاَثَةِ ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى الله فَآوَاهُ الله ، وَأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا الله مِنْهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ الله عَنْهُ** » (١).

فينبغي لكل من مرّ على حلقَةٍ علمٍ أن يأويَ إليها وأن يحرصَ عليها، وألاَّ يتركها إلا لعذر ، فقد قال ﷺ : « **إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الجَنَّةِ فَارْتَعُوا** » . قَالُوا : وَمَا رِيَاضُ الجَنَّةِ ؟ قَالَ : « **حِلَقُ الذِّكْرِ** » (٢)، أي مجالس العلم مجالس الحلال والحرام ، كيف تشتري وتبيع، وتُصلي وتصوم ، وتنكِحُ وتُطلِّق ، وتحجُّ وأشباه ذلك. قاله عطاء. (٣)

فلما أخبرا العرباضَ بما جاءا له قال : صلّى بنا رسولُ الله ﷺ ذاتَ يومٍ ثم أقبل علينا بوجهه ، فوعظَنا موعظةً بليغةً ، ذرفتْ منها العيون ، ووجلَتْ منها القلوب:

الموعظةُ عبارةٌ عن الأمْرِ والنَّهْيِ، الأمْرِ بالخيْر مع بيان فضائله ترغيبًا فيه، والنَّهْيِ عن الشرّ مع بيان ضرره تحذيرًا منه، فهي أمرٌ ونهْيٌ، ترغيبٌ وترهيب، وعدٌ ووعيد، وكلُّ مواعظه ﷺ بليغة، لأنه خُصَ بجوامع الكلم، فالكلمةُ الواحدةُ منه ﷺ تُشرح من غيره في خُطب ومحاضرات، وقد قالوا : البلاغة الإيجاز ، ولكنَّ العرباضَ خصّ هذه الموعظةَ بالبلاغة لما اخْتُصَّتْ به من القوَّة ، وإن كانت كلُّ مواعظه ﷺ بليغة .

وقوله : " ذَرَفَتْ منْها العُيون ، ووَجِلَتْ منها القلوب " ، أراد أنهم لما سَمِعُوا هذه الموعظَة تأثّروا بها تأثّرا ، حتى دخل الخوفُ قلوبَهم ، وسال الدَّمْعُ من عيونهم، وهكذا كانوا رضي الله عنهم دائما ، كلما سمعوا منه ﷺ موعظة :

(١) متفق عليه : خ (٦٦/ ١٥٦/ ١)، م(٢١٧٦/ ١٧١٣/ ٤)، ت(٢٨٦٨/ ١٧١/ ٤) .
(٢) حسن : [س. ص : ٢٥٦٢] ، ت(٣٥٧٧/ ١٩٤/ ٥) .
(٣) الأذكار للنووي (ص٩) .

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ : خَطَبَ رَسُولُ الله ﷺ خُطْبَةً مَا سَمِعْتُ مِثْلَهَا قَطُّ فقَالَ : « لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا » . قَالَ : فَغَطَّى أَصْحَابُ رَسُولِ الله وُجُوهَهُمْ لَهُمْ خَنِينٌ [(١)] (والخنين هو صوت البكاء).

فَقَالَ رَجُلٌ : يارسُولَ الله كأنَّ هذه موعِظَةُ مودّع ، فماذا تَعْهدُ إلينا ؟ ، فَهِمَ ذاك الرجل أنَّ تلك الموعظَة موعظةُ مودِّع مما سمعه من مبالغته ﷺ فيها أكثرَ من غيرها، لأن المُودِّعَ يحرص على الوصيَّةِ ويبالغ فيها أكثر من غَيْرِها فلما بالغ ﷺ في هذه الموعِظَةِ فَهِمَ ذلك الرَّجلُ أنَّها وصيَّةُ مودّع ، فقال : فماذا تعهد إلينا؟ أي فبماذا توصينا ؟

الوصية الأولى :

فقال ﷺ « **أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله** »:

إنَّما وصاهم أولاً بتقوى الله لأنَّها وصيَّةُ الله للأوَّلين والآخرين، كما قال تعالى : ﴿**وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا الله**﴾ [النساء:١٣١] .

وكانت عادته ﷺ أن يوصِيَهم بها في المحافل العامَّة والمجامع العظيمة، كما كان يوصي بها الخاصَّة أيضًا ، لأنَّ تقوى الله هي سبب النَّجاة في الدُّنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ **وَيَوْمَ القِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى الله وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوَى لِلْمُتَكَبِّرِينَ ۝ وَيُنَجِّي الله الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لاَ يَمَسُّهُمْ السُّوءُ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [الزمر: ٦٠، ٦١] .

وقال تعالى : ﴿ **وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا** ﴾ [مريم :٧١، ٧٢] .

(١) متفق عليه : خ(٤٦٢١/ ٢٨٠/ ٨)، م(٢٣٥٩/ ١٨٣٢/ ٤) .

وتَقْوى الله هي سببُ الفلاح والنجاح والفَوْزِ والسعادة في الدُّنيا والآخرة، قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِعْ الله وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ الله وَيَتَّقِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الفَائِزُونَ ﴾ [النور : ٥٢] .

" وجماع التَّقْوى القيامُ بالواجبات وتَرْكُ المحرَّمات ، كما قال طلقُ بن حبيب : التَّقْوى أن تعملَ بطاعةِ الله ، على نُورٍ من الله ، ترجو رحْمَةَ الله ، وأن تتركَ معْصِيَةَ الله ، على نُورٍ من الله ، تخشى عِقابَ الله ، وقال الآخر :

خلِّ الذُّنوبَ صغيرَها وكبيرَها ذاك التُّقى
واصْنَع كماشٍ فوْقَ أرْضِ الشَّوْكِ يحذَرُ مايرى
لا تحقرنَّ صغيرةً إن الجبال من الحصى "[1]

الوصية الثانية :
« وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا » :

أي عليكم بالسَّمْع والطَّاعة لمن ولاَّه الله أمرَكم ، حتى لو تسلَّط عبْدٌ حبشيٌّ على الإمارة ، وتولاَّها على كراهيةٍ منكم ، فاسْمَعُوا له وأطيعوا ، ولاتنازعوه الأمر، فإنَّ في منازعته الأمر مافيه من الفساد الذي يؤدي إلى إزْهاق الأرواح وسفْك الدماء ، وسلب الأموال ، وانْتهاك الأعراض، وإشاعةِ الفوضى والاضطراب ، بينما في طاعةِ الأمير صيانَةُ الأرواح، والأعراض والأموال، واستْتباب الأمن واستقرارُ الأمان، ولذلك كثُرتْ وصاياه ﷺ بطاعة أولى الأمر ، منها قوله ﷺ : « مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ الله وَمَنْ

(١) جامع العلوم والحكم (١٣٨) .

عَصَانِي فَقَدْ عَصَى الله ، وَمَنْ يُطِعِ الأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي وَمَنْ يَعْصِ الأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي »[١].

وقوله ﷺ : « **عَلَى المَرْءِ المُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ أَوكَرِهَ ، إِلاَّ أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ فَإِن أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلاَ سَمْعَ وَلاَ طَاعَةَ »**[٢].

وقوله ﷺ : « **عَلَيْكَ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ ، وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ ، وَأَثَرَةٍ عَلَيْكَ »**[٣].

ولذلك اتَّفقت كلمةُ الأئمةِ الأعلام على طاعةِ الأمراءِ وعدَمِ الخُروجِ عليهم مهما ظَلَمُوا، فقال الإمامُ الطَّحاويُّ رحمه الله :

"ولا نرى الخروجَ على أئمَّتِنا ووُلاةِ أمورِنا ، وإن جاروا ، ولا ندعوا عليهم ، ولا ننزع يدًا من طاعتهم ، ونرى طاعتَهم من طاعةِ الله عز وجل فريضةً مالم يأمروا بمعصية"[٤].

الوصية الثالثة :

« **فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا ، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ »**:

لقد أرسل الله رسولَه بالهدى ودينِ الحق ليظهرَه على الدِّين كله، وفرضَ علينا طاعتَه واتِّباعه وقبولَ ماجاء به ، فقال تعالى : ﴿ **وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا** ﴾ [الحشر :٧] .

---

(١) متفق عليه : خ (٧١٣٧/ ١١١/ ١٣)، م(١٨٣٥/ ١٤٦٦/ ٣)، نس(١٥٤/ ٧)، جه(٢٨٥٩/ ٩٥٤/ ٢).

(٢) متفق عليه : خ(٧١٤٤/ ١٢١/ ١٣)، م(١٨٣٩/ ١٤٦٩/ ٣)، ت(١٧٥٩/ ١٢٥/ ٣)، د(٢٦٠٩/ ٢٩٠/ ٧)، نس(١٦٠/ ٧)، جه(٢٨٦٤/ ٩٥٦/ ٢).

(٣) صحيح : م(١٨٣٦/ ١٤٦٧/ ٣)، نس(١٤٠/ ٧) .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية (٤٢٨).

وقد جعل طاعتَه طاعةً له ، فقال : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ﴾ [النساء:٨٠] .

وجعل اتِّباعه عنوانَ محبَّته، فقال : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي ﴾ [آل عمران:٣١] .

وجعل طاعتَه واتِّباعه من موجباتِ الهداية فقال: ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ [النور:٥٤].

وقال : ﴿ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٨] .

ولذلك قال الإمامُ الجُنَيْدُ رحمه الله : إنَّ الله تعالى قال لنبيّه : وعزَّتي وجلالي ، لو أتَوْني من كلِّ طريق ، واستفتحوا من كل باب ، ما فتحتُ لهم حتى يدخلوا خلفك [١].

فالسنَّة هي حصنُ الله الحصين ، الذي من دخله كان من الآمنين، وهي البابُ الأعظم الذي من دخله كان إليه من الواصلين ، ولا سبيلَ للوصُولِ من غير طريقِ الرَّسُول ولذلك وصَّى ﷺ باتباعه شفقةً منه على أُمَّته ، فقال ﷺ : « كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ أَبَى » قَالُوا : وَمَنْ يَأْبَى يَا رَسُولَ الله ! قَالَ: « مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى »[٢].

وقال ﷺ : « مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا ، فَجَعَلَ الجَنَادِبُ وَالفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا ، وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي»[٣].

وقوله ﷺ : « فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا » عَلَمٌ من أعلام

(١) طريق الهجرتين (١١) .

(٢) صحيح : خ (٧٢٨٠/ ٢٤٩/ ١٣) .

(٣) صحيح : م(٢٢٨٥/ ١٧٩٠/ ٤) .

نبوَّتِه ، حيث أخبر عن الاختلاف قبلَ وقوعه ، ثم وقع كما أخبر، وهذا من دلائل نبوَّته ﷺ ، كما قال تعالى : ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى** ﴾ [النجم : ٣، ٤] .

وقد ابتُلينا في هذا الزَّمانِ بكثرة الاختلاف وشدّة الفُرْقة ، كما أخبر ﷺ، ولا مخرَج لنا من هذا الاختلاف إلا بالتمسُّك بسنَّته ﷺ كما وصَّى ، « **فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي** » والتَّوصِيَةُ بسنَّةِ الخلفاء إنما هو تأكيد معنويٌّ للتوْصِيَة بسنّته ﷺ لأنَّ الخلفاء الراشدين المهديين لا يمكن أن تكون لهم سنَّةٌ إلا سنّته ﷺ كيف وقد شهد لهم بالرُّشد والهداية ؟

وهل يكون الرُّشد والهدايةُ إلا في اتّباعه ﷺ وطاعته !

وقوله ﷺ : « **عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ** » : النواجذ هي الأضراس التي بعد الناب، وهذا مثَلٌ في شِدَّة الاستمساك بالأمر، لأن العض بالنواجذ عضّ بمعظم الأسنان التي قبلها والتي بعدها ، والمراد استمسكوا بالسنة لا تفوتنكم ولا تخالفوها.

الوصية الرابعة :

« **وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ** » :

هذا تحذيرٌ منه ﷺ لأمّته من الوقوع فيما ليس من سنَّته ، والبدْعَةُ طريقةٌ في الدين مُخْتَرعة، تُضاهِي الطَّريقةَ الشَّرعيَّةَ، يُقْصَدُ بها التقرُّب إلى الله تعالى [١] كمن يبتدع صلاةً معيّنة، بكمٍّ معين، وكيْفٍ معين، في ليلة معيَّنة، كأن يقول: صلّوا أوّلَ ليلةٍ من رجب اثنتى عشر ركعة اقرءوا في كل ركعةٍ كذا وكذا.

---

(١) الإبداع في مضار الابتداع : ٢٦ .

وكمن يبتدع صيغةً معيَّنةً للصلاة على النبي ﷺ ويزعم أنَّ لها من الأجر كذا وكذا.

فكلُّ هذه البدع بدعٌ ضلالة ، وكلُّ ضلالةٍ في النار، أي هي وصاحَبها ، لأنَّ هذا المبتدع لا يخلو من أمورٍ ثلاثة :

فإمَّا أن يكونَ نصَّبَ نفسَه مشرّعًا مع الله ، والله تعالى يقول : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ الله ﴾ [الشورى : ٢١] .

وإمَّا أن يكونَ رأى في الدِّين نقصًا فأراد أن يُتِمَّه بهذه البدعة ، والله يقول: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة :٣] .

وإمَّا أن يكون ظنّ أن النبيَّ ﷺ لم يبلّغ ما أمره الله به ، فهو يرى بدْعَته خيرًا يقرّب من الله لم يرشد النبيُّ ﷺ أمته إليه فهو يُرْشد إليه - زعم - والسَّيدةُ عَائِشَةَ رضي الله عنها تقول: مَنْ زَعِمَ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ كَتَمَ شَيْئًا مِمَّا أمره الله بتبليغه فَقَدْ كَذَبَ لأنَّ الله يَقُولُ : ﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَل فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [المائدة : ٦٧] . [1]

وكلٌّ واحد من هذه الثلاثة كافٍ لإهلاك صاحبه ، فكيف بها مجتمعة ؟!

فاتَّبِعُوا عبادَ الله ولا تبتدعوا ، اتَّبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفِيتم . إنَّ الله تعالى لم يتوفَّ نبيّه حتى أنزل عليه : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة :٣].

والنبيُّ ﷺ يقول : « تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لا يَزِيغُ عَنْهَا إِلاَّ هَالِكٌ »[2].

وما ترَكَ ﷺ شيئًا يقرِّبُكم من الله والجنّةِ إلا أرشدكم إليه ، وما ترك شيئًا يُقرِّبُكم من النار إلا حذَّركم منه، فعليكم بالسنَّة فهي طريقُ الوصولِ إلى دار السَّلام ، وإيَّاكم والبدْعَةَ فهي طريقُ الوصُولِ إلى دار البوار .

---

(١) خ (٤٦١٢/ ٢٧٥/ ٨)، م(١٧٧/ ١٥٩/ ١)، ت(٥٠٦٣/ ٣٢٨/ ٤).

(٢) صحيح : [ص. جه: ٤١]، جه (٤٣/ ١٦/ ١) .

ومن الجدير بالذِّكر - إزالةً لما يحدث في الأفهام من لَبْسٍ - أنَّ البدعَةَ كما عرّفناها ما أُحدث في الدِّين ، فلا يدخل فيها قلناه ما أُحدث في الدُّنيا، لكنَّ مُحْدَثاتِ الدُّنيا نوعان نافعةٌ وضارة ، فنافِعُها محْمُودٌ ، والضَّارُّ منها مذْموم .

إبطال دعوى الاستغناء عن السنة بالقرآن

عَنِ المِقْدَامِ بْنِ مَعْدِ يكَرِبَ أَنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ : « **يُوشِكُ الرَّجُلُ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يُحَدَّثُ بِالحَدِيثِ مِنْ حَدِيثِي فَيَقُولُ : بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللهِ ﷻ ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلاَلٍ اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ، أَلاَ وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللهِ** »(1).

في هذا الحديث عَلَمٌ من أعلام النُّبوة، وشاهدُ صدقٍ على أن محمدًا رسولُ الله، إذ أخبر ﷺ في هذا الحديث أنه سيخرجُ رجلٌ من أُمَّتِه يدعو إلى الاستغناء بالقرآنِ عن السنَّة، يُحدّث بالحديثِ عن رسولِ الله ﷺ فيه الحلالُ والحرامُ فيقولُ لا أعرفه، وما يُدْريني أن رسولَ الله ﷺ قاله، وفي الأحاديث الصحيحُ، والضعيف، والموضوع، دَعُونا من هذه الأحاديث، وأتونا بكتاب الله ﷻ، فما وجدناه في كتابِ الله من الحلال استحْللناه، وما وجدنا فيه من الحرام حرّمناه، فإنَّ كتابَ الله محفوظٌ بحِفْظِ الله قال ﷺ : « **أَلاَ وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللهِ** ».

وقد ظهر هذا الرجلُ مُصَدِّقًا لقول النبيِّ ﷺ، وخرج من الهند من نحو مائتي سنة وحَكَم عليه عُلماءُ عصرِه بالإلحاد والزندقة، والخروج من الدِّين، والأمر كما قالوا.

ومنذ ذلك التاريخ وهذه الدعوةُ الخبيثةُ تُطلُّ على الناس بقرونها بين الحين والحين، تريد العلوَّ والظهورَ، ويأبى الله إلا أن يُتمَّ نوره ولو كره الكافرون.

ويدلُّ على مكْرِ هذه الدَّعْوةِ وخُبثِها أنَّ أهلها يزعمون العملَ بالقرآن وحده دون السنة، لأنَّ القرآن كما زعموا محفوظ، وأما السُّنَّةُ فقد دخل فيها ما ليس منها.

(١) صحيح: [ص. جه: ١٢]، جه (١٢/ ٦/ ١)، ت (٢٨٠٢/ ١٤٥/ ٤)، د(٤٥٨٠/ ٣٥٤- ٣٥٦/ ١٢).

ولو عقل هؤلاء ما قالوا الذي قالوه، ولو كانوا يعقلون لعلموا أنَّ القرآن يوجب العملَ بالسنَّة، فلو كانوا صادقين في دعواهم العملَ بالقرآن لعلموا أنَّ القرآن قد ألزم بالعمل بالسنة، بحيث لايكون الرجلُ أبدًا عاملاً بالقرآن حتى يكون عاملاً بالسنَّة.

فإنَّ الله تبارك وتعالى بعث محمدًا ﷺ بالحقِّ بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وشهد له بالرسالة فقال: ﴿ **وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا** (٢٨) **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ** ﴾ [الفتح :٢٨، ٢٩].

وقال سبحانه : ﴿ **وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتَابِ** ﴾ [الرعد: ٤٣].

وشهد سبحانه وتعالى له بصِدْقِ ما أنزل عليه، فقال سبحانه : ﴿ **لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا** ﴾ [النساء: ١٦٦].

وبيَّن أن الذي أنزله على رسوله ﷺ هو القرآن والسنَّة، فقال سبحانه : ﴿ **وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ** ﴾ [النساء :١١٣]، والحكمة هي السنَّة، بدليل قوله سبحانه لنساء النبيِّ ﷺ : ﴿ **وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالحِكْمَةِ** ﴾ [الأحزاب :٣٤] ولا يُتلى في بيوتهنَّ غَيْرُ القرآنِ والسنَّة، فكانت الحكمةُ هي السنَّة، وكُلُّ حِكْمَةٍ قُرنت بالقرآن الكريم في القرآنِ الكريم فالمرادُ بها السنَّة، وبهذا فسَّرها كثيرٌ من السلف، حَمَلَةُ العلم عن رسول الله ﷺ.

وبيَّن سبحانه أنه حافظٌ ما أنزله على رسوله ﷺ فقال ﷻ : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [الحجر:٩]، وهذا اللفظ يشمل أوَّل ما يشمل القرآنَ الكريم، يشملُ القرآنَ بالأصالة، ويشمل السنَّة بالتبعية، فلابدَّ من حفظ القرآن ومن حفظ

السنَّة، فلا يكون القرآنُ محفوظًا إذا ضاعت السنَّة، لأنَّ السنَّة هي المبيِّنة للقرآن، فلابدَّ من حفظها إكمالاً لحفظ القرآن.

ولذلك قيَّض الله تبارك وتعالى للحديث مَنْ يحفظه، ويميِّز بين الثَّابتِ منه عن رسول الله ﷺ وبيْن المشكوكِ في ثبوته، وبيْن المكذوب عليه ﷺ.

فالأحاديثُ الصحيحةُ معروفة، والحسنَةُ معروفة، والضَّعيفةُ معروفة والموضوعةُ المكْذُوبة معروفة، حتى إن التاريخَ حفِظَ لنا أن رجلاً من أهل الزندقة حُكِمَ عليه بالإعدام، فلما وُضِعَ على الخشبة ليُصلب، قال دعوه ليبيِّن لكم ما كذَب على رسولِ الله، فقد كذَب على رسولِ الله أربعة آلاف حديث، فقال الأميرُ يومئذٍ : اقتلوه ويبقى لها الجهابذة.

ولقد شهد الله لرسوله ﷺ بأنه على الحقِّ وعلى صراط مستقيم فقال ﷻ : ﴿ فَتَوَكَّل عَلَى الله إِنَّكَ عَلَى الحَقِّ المُبِينِ ﴾ [النمل:٧٩].

وقال سبحانه : ﴿ يس ۝ وَالقُرْآنِ الحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ ۝ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [يس : ١ - ٤].

وشهد الله تبارك وتعالى لنبيّه ﷺ أنه يدعو النَّاسَ إلى ما هو عليه من الحقِّ والصِّراطِ المستقيم، فقال ﷻ : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[المؤمنون:٧٣]، وقال سبحانه : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ صِرَاطِ الله الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ [الشورى :٥٢، ٥٣].

وهذا وحده كافٍ لوجوب طاعتِه ﷺ واتِّباعه، عملاً بقول مؤمن آل يس وقد نصح قومَه: ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا المُرْسَلِينَ ۝ اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [يس: ٢٠- ٢١].

لكنَّ الله سبحانه وتعالى قد أكثر في التَّنزيل الذي أنزله على رسوله ﷺ من الأمر بطاعته واتِّباعه واقتفاءِ أثره، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ [النساء:٥٩].

وقال سبحانه : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمد :٣٣].

وقال سبحانه : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا الله وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران :٣٢].

وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [النور :٥٤].

وقال تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا الله وَالرَّسُولَ ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وقال سبحانه : ﴿وَأَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [المائدة :٩٢].

وجعل سبحانه وتعالى طاعةَ نبيِّه طاعةً له، فقال سبحانه : ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ الله ﴾ [النساء:٨٠].

وجعل سبحانه وتعالى طاعةَ الرَّسول من موجبات الهداية فقال : ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ [النور:٥٤]، كما جعل اتباعه من موجبات الهداية فقال : ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨]، وجعل طاعتَه واتِّباعَه ﷺ من موجبات الرحمة والمغفرة فقال ﷻ : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ الله وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَالله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران :٣١].

وقال سبحانه : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور:٥٦].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[آل عمران: ١٣٢].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ﴾ [التوبة: ٧١].

وقال ﷻ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧].

وجعل سبحانه وتعالى الفلاحَ والنجاحَ والفوزَ خاصًا بالمتّبعين رسولَه المطيعين له، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

وحذَّر سبحانه وتعالى من مخالفة أمر رسوله وعصيانه، فقال ﷻ: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢]، وقال سبحانه: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وحكم عليهم بالضلال المبين، فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

وتوعّد عُصَاةَ رسوله بالعذاب المهين، فقال ﷻ: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

وأخبر سبحانه وتعالى أنَّ عُصاة الرسول سينْدَمُون يوم القيامة أشدَّ الندم ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا الله وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب :٦٦- ٦٧].

وقال ﷻ : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ الله حَدِيثًا﴾ [النساء :٤٢].

لذلك كُلِّه وغيرِه تلقَّتِ الأُمَّةُ السُّنَّةَ بالقبول، وأجمعت على أنَّ السُّنَّةَ هي المصْدَرُ الثاني للتشريع، وأنه لا غنىً أبدًا للمسلمين عن السنة ولو استغنوا بالقرآن.

وأخبارُ أصحابِ رسولِ الله ﷺ من الخلفاءِ الرَّاشدين ومَنْ بعدهم مِن الصحابة والتابعين في ذلك كثيرةٌ وكثيرة.

من ذلك قولُ خليفة رسول الله أبي بكر الصديق ﷺ : لستُ تاركًا شيئًا مما كان رسولُ الله ﷺ يعمله أن أزيغ.

ولذلك لما امتنع نفرٌ من المسلمين عن أداءِ الزَّكاة إلى أبي بكر متأوِّلين قولَ الله تعالى لنبيّه ﷺ : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ [التوبة :١٠٣]، فقالوا : أمر الله رسولَه بأخذها، وقد مات رسولُ الله، فلا يحقَّ لأحدٍ أن يأخذها بعده، فَهَمَّ أبوبكر ﷺ بقتالهم، فقال له عمر مُراجعًا فيما هَمّ به من قتالهم : كيف تقاتل النَّاسَ وقد قال رسولُ الله ﷺ : « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لا إِلَهَ إِلاَّ الله فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى الله ».

فقال أبو بكرٍ رضي الله عنه : والله لأقاتلنَّ مَنْ فَرَّق بيْن الصَّلاةِ والزَّكاة، فإنَّ الزَّكاةَ حقُّ المال، والله لو منعوني عنَاقًا كانوا يؤدُّونها إلى رسولِ الله لقاتلتهم عليها.[1]

ومن ذلك قولُ أميرِ المؤمنين عمرُ رضي الله عنه، الذي طار في الآفاق، واشتهر عند الجميع، عند العامة فضلاً عن الخاصة، حين أراد أن يُقبّل الحجرَ الأسودَ قال له : والله إنّي لأعلم أنّك حَجرٌ لا تضرُّ ولا تنفع، ولَوْلاَ أني رأيتُ رسولَ الله ﷺ يُقبّلك ما قبّلتُك.[2]

وعن عثمانَ بنِ عفّانَ رضي الله عنه أنه قعد على المقاعد - يعني : مقاعد الوضوءِ - فتوضأ ثمَّ دعا بطعام مما مسَّته النار فأكل منه، ثم قام إلى الصَّلاة، فصلَّى، ثم قال عثمان : قعدتُ مقعدَ رسولِ الله ﷺ، وأكلتُ طعامَ رسول الله ﷺ، وصلَّيت صلاةَ رسول الله ﷺ.

وعن عليّ رضي الله عنه قال : كنت أرى باطنَ القدمين أحقَّ بالمسح من ظاهرِهما، حتى رأيتُ رسولَ الله ﷺ يمسح ظاهِرَ القدمين.[3]

وعنه رضي الله عنه أنه قال في القيام للجنازة : قام رسولُ الله فَقُمْنَا، وقَعد فَقَعْدنا[4] - يعني أن الأمْرَ بالقيام للجنازة عند مرُورِها منسوخ، وقد قُمْنَا حين قام، وقَعْدنا لمَّا قعد، وهذا هو عَيْنُ الاتباع - .

وعن عبدِ الله بنِ مسعود رضي الله عنه أن امرأةً جاءته فقالت : بلغني أنَّك تَنْهي عن الواصلة ؟ قال : نعم. قالتْ : أشيءٌ وجدتَه في كتابِ الله أم سمِعْتَه من رسولِ الله ﷺ ؟

---

(١) متفق عليه : خ(١٣٩٩/ ١٤٠٠/ ٣٦٢/ ٣)، م(٢٠/ ٥١و ٥٢/ ١) ، ت(٢٧٣٤/ ١١٧/ ٤)، د(١٥٤١/ ٤١٤ و ٤١٥/ ٤) ، ن(١٤/ ٥).

(٢) متفق عليه : خ (١٥٩٧/ ٤٦٢/ ٣). (١٢٧٠/ ٩٢٥/ ٢).

(٣) صحيح : [ص. د : ١٥٠] ، د (١٦٣/ ٢٧٩/ ١).

(٤) متفق عليه : خ(٤٨٨٦/ ٦٣٠/ ٨)، م(٢١٢٥/ ١٦٧٨/ ٣)، د(٤١٥١/ ٢٢٥ - ٢٢٧/ ١١).

قال : وجدتُه في كتابِ الله وسمعتُه من رسولِ الله. قالت المرأة : لقد قرأتُ ما بين دفَّتي المصحف فما وجدتُ الذي تقول ؟ قال لو قرأتيه لوجدتيه، أما قرأتِ قولَ الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر :٧] ألا وإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يَنْهَى عَنِ الوَاصِلَةِ، والوَاشِمَةِ، والمُتَنَمِّصَة.(١)

ولقد كانوا رضوانُ الله عليهم يَجْهَرُون بعداوةِ من يردُّ السنَّة وينكرُها، وكانوا يهْجُرونه في الله ﷻ، ويمتنعونَ عن كلامه.

عَنْ سالِمِ بنِ عَبْدِ الله بنِ عُمَرَ ﵄، أنَّ عَبْدَ الله بنَ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « لاَ تَمْنَعُوا النِّسَاءَ إِذَا اسْتَأْذَنُوكُمْ إلى المَسَاجِدِ »، فَقَالَ بِلاَلُ بنُ عَبْدِ الله بنِ عُمَرَ : وَالله لنَمنَعَهُنَّ، قَالَ سَالِمُ بنُ عَبْدِ الله : فَسَبَّهُ عَبْدُ الله بنُ عُمَرَ سبّاً سَيِّئًا، ما سَمِعْتُهُ سَبَّهُ مِثْلَهُ قَطُّ، وقَالَ : أَقُولُ لَكَ قَالَ رَسُولُ الله : لاَ تَمْنَعُوهُنَّ وَتقول : والله لنَمنَعَهُنَّ !.(٢)

وعَنْ عَبْدِ الله بنِ مُغَفَّل ﵁ أنّه رَأَى قَرِيبًا لَهُ يَخْذِفُ، فَقَالَ : نَهَى رَسُولُ الله ﷺ عَنِ الخَذْفِ وقَالَ: « إِنَّهُ لاَ يَصِيدُ صَيْدًا وَلاَ يَنْكَأُ عَدُوًّا وَإِنَّمَا يَفْقَأُ العَيْنَ وَيَكْسِرُ السِّنَّ » ثُمَّ لَقِيَهُ بعْدَ ذلكَ فَرآهُ يَخْذِفُ، فَاشْتَدَّ غَضَبُه عَلَيْهِ، وقَالَ : أقولُ لَكَ نَهَى رَسُولُ الله ﷺ عَنِ الخَذْفِ ثُمَّ عُدْتَ تَخْذِفُ، وَالله لاَ أُكَلِّمُكَ أبدًا.(٣)

وَعَنِ ابنِ عبَّاسٍ ﵄ أَنَّهُ كانَ يُفتِي بجَوازِ التمتُّع بالعُمْرَةِ إلى الحجِّ فيقال له : لكنَّ أبا بكرٍ وعمَر يقولان بخلافِ قولك، فيشتدُّ غضبُه ويقول : يوشَكُ أن تُرجَمُوا بحجارةٍ من السماء، أقول : قالَ الله، قالَ رسولُ الله، وتقولون : قال أبو بكرٍ وعمر ؟!.(٤)

(١) متفق عليه : خ (٤٨٨٦/ ٦٣٠/ ٨)، م(٢١٢٥/ ١٦٧٨/ ٣).
(٢) متفق عليه : خ (٥٢٣٨/ ٣٣٧/ ٩)، م(٤٤٢/ ٣٢٦/ ١).
(٣) خ (٥٤٧٩/ ٦٠٧/ ٩).
(٤) جامع بيان العلم وفضله : (١٩٥ و ١٩٦/ ٢).

وعن الإمام الشَّافِعيِّ رضي الله عنه: أن رجلاً سأله مسألةً، فقال: قال: رسولُ الله ﷺ كذا وكذا، فقال السائل: فما تقولُ أنتَ يا شافعي؟ فاشتدَّ غضبُ الإمامِ رضي الله عنه، وقال: أتراني في كنيسة؟ أتراني في صومعة؟ أترى على وسطي زنارًا؟ أقول: قال رسول الله وتقول: ما تقول أنت.[1]

فالسُّنةَ، السُّنةَ! الزموها تفوزوا «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ** من بعدي، **عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**»[2].

وهكذا ظهر لنا، وثبتَ لديْنا بطلانُ دَعْوى الاستِغْناءِ عن السنَّةِ بالقرآن من القرآن نفسه.

وبقيت فائدةٌ وهي: ما منزلةُ السنَّةِ من القرآن؟ ما هي النِّسْبَةُ بين أحكام السنَّة وأحكامِ القرآن؟

والجواب: إنَّ الله تبارك وتعالى أنزل على رسوله ﷺ القرآن تبيانًا لكل شيء ووكلَ إلى رسوله ﷺ أن يبين للناس ما أنزل ربهم إليهم، كما قال تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾ [النحل:٤٤].

فالنِّسْبَةُ بين السُّنَّةِ والقرآن: أنَّ السُّنَّةَ إمَّا أن تكون مقرِّرةً ومؤكِّدةً لما جاء في القرآنِ من الأحكام، وذلكَ مِثْلُ أمْرِ الله تبارك وتعالى بالمُحافَظةِ على الصَّلاةِ والصِّيام والزَّكاة والحجِّ، وجاءت الأحاديثُ تأمرُ بالصَّلاة والصِّيام والزكاة والحج.

(١) شرح الطحاوية: (٣٩٩).

(٢) صحيح: [ص. د: ٣٨٥١]، د(٤٥٨٣/ ٣٥٨/ ١٢)، ت(٢٨١٦/ ٢/ ١٤٩/ ٤)، جه(٤٢/ ١٥/ ١).

ونهى الله تبارك وتعالى عن عُقوقِ الوالديْن، وقطيعةِ الرحم، وسوءِ الجوار، ونهى النبيُّ ﷺ أيضًا عن قطيعةِ الرحم، وعقوقِ الوالدين، وسوءِ الجوار.

وإمَّا أن تكون السُّنة مبيِّنةً لأحكامٍ جاءت في القرآن مُجْمَلةً، وذلك مِثْلُ قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة:٤٣] وقوله تعالى: ﴿وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران:٩٧].

كم تصلي ؟ وكيف تصلي ؟ ومتى تُسِّر ؟ ومتى تجهر ؟ هل بيَّن الله ذلك في القرآن ؟

لا ، إنَّما بيَّنته السُّنة.

أنصبةُ الزكاة، والمقاديرُ الواجبُ إخراجها، هل بيَّنها الله في القرآن ؟

لا، إنَّما بيَّنتها السنة.

الحجُّ لمن استطاع إليه سبيلاً، ما هي الاستطاعة ؟ ومتى يجب الحج ؟ وما هي المناسك ؟ هل بيَّن الله ذلك في القرآن ؟

لا، إنَّما بيَّنته السُّنة.

وإما أن تكونَ أحكامُ القرآن مبْهَمةً وتفسِّرُها السنَّة، قال تعالى : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة :٣٨].

إلى أين تُقْطَعُ يد السارق ؟ إلى الرسغ ؟ أم إلى المرفقين ؟ أم إلى المنكبين، مبهم، فقطع رسولُ الله ﷺ يدَ السارق إلى الرُّسغ، قطع الكفَّ، فعلمنا أن المُبْهمَ في قوله تعالى : ﴿ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ المرادُ به الكفُّ.

وإما أن تكونَ أحكامُ القرآن مطلقةً فتقيّدُها السنة، وذلك مثل قول الله تعالى في المواريث : ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ [النساء :١١].

لم يحدّد القرآنُ مقدارَ الوصية، فحدّده النبيُّ ﷺ بقوله:«**والثُّلُثُ كَثِيرٌ**»[1].

وقد تجيء السُّنةُ بأحكامٍ زائدةٍ على أحكامِ القرآن :

قال الله تبارك وتعالى في المحرَّمات من النساء ﴿ **وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ** ﴾ [النساء :٢٣] نهى الله تبارك وتعالى أن ينكح الرجلُ أُختين معًا في وقت واحد، أما أن ينكح إحداهما بعد الأخرى فلا حرج، لكن لايجمع الرجلُ بين الأختين في وقت واحد.

فزاد رسولُ الله ﷺ على ذلك أن يجمع الرجلُ بين المرأةِ وعمّتها وبين المرأة وخالتها، فقال ﷺ :« **لاَ يُجْمَعُ بَيْنَ المَرْأَةِ وَعَمَّتِهَا وَلاَ بَيْنَ المَرْأَةِ وَخَالَتِهَا**»[2].

أما أن يطلّق المرأةَ ثم يتزوَّجَ عمَّتها فلا حرج، أو يطلّقها فيتزوَّج خالتَها فلا حرج، لكن لا يجمع الرجلُ بيْن المرأةِ وعمَّتِها ولا بيْن المرأةِ وخالتِها.

خذ كذلك مثلاً من المحرمات من الأطعمة :

« **نَهَى النبيُّ ﷺ عَنْ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ وَعَنْ كُلِّ ذِي مِخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ** »[3]

و« **نهى عن الحُمر الأهلية** »[4]، وهذه محرمات لم تذكر في القرآن الكريم.

---

(١) متفق عليه : خ (٢٧٤٢/ ٣٦٣/ ٥) ، م(١٦٢٨/ ٢٥٠/ ٣)، د(٢٨٤٧/ ٦٤/ ٨).

(٢) متفق عليه: خ(٥١٠٩/ ١٦٠/ ٩)، م(١٤٠٨/ ١٠٢٨/ ٢)، د(٢٠٥٢/ ٧٢/ ٦)، ن(٩٨/ ٦).

(٣) م (١٩٣٤/ ١٥٣٤/ ٣) ، د(٣٧٨٥/ ٢٧٧/ ١٠).

(٤) متفق عليه : خ (٥٥٢٨/ ٦٥٣/ ٩) ، م (١٩٤٠-٣٥-/ ١٥٤٠/ ٣).

وقد تكونُ السُّنَّةُ مخصِّصةً لعامِّ القرآن، فقد قال تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ ﴾ [المائدة:٣]، فخصَّصت السُّنة هذا الحكمَ واستَثْنَتْ منه أشياء، فقال ﷺ : « أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ : السَّمَكُ وَالجَرَادُ وَالكَبِدُ وَالطِّحَالُ »[1].

وصدقَ رسولُ الله ﷺ حيث قال : « أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ القُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ أَلاَ وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رسُولُ الله مِثْلُ مَا حَرَّمَ الله ».

فاحذروا يا أتباعَ رسُولِ الله أعداءَ الإسلام، والدُّعاةَ الذين هم على أبواب جهنم، احذروا هذه الدَّعْوَةَ الخبيثةَ الماكِرةَ الباطلة.

احذروا الدَّعْوَةَ إلى الاستغناءِ عن السنَّة بالقرآن، فإنَّ القرآنَ مُحتاجٌ إلى السنَّةِ أشدُّ من حاجةِ السنَّةِ إلى القرآن، لا غنى للقرآنِ عن السنَّة أبدًا، وهما متلازمان مقترنان متّحدان مجتمعان لن يتفرّقا أبدًا بإذن الله، كما قال رسولُ الله ﷺ : « تَرَكتُ فِيكُمْ شيئين لَنْ تَضِلُّوا مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِما : كِتَابُ الله وسُنتي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ »[2].

أجمعت الأمة على أنَّ السُّنَّةَ هي المصدرُ الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم، فلا تقبلوا مَنْ خالف الجماعة وشذَّ عنها، فقد قال تبارك وتعالى: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء:١١٥].

نعوذ بالله من الخذلان ونسأله الهداية والتوفيق.

---

(١) صحيح : [ص. ج : ٢١٠]، حم (٩٦/ ٢٥٥/ ١)، هق(٢٥٤/ ١).

(٢) صحيح : [ص. ج : ٢٩٣٤].

اللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه اللهم ارزقنا حُبَّك، وحُبَّ كتابك، وحُبَّ نبيك، وحُبُّ سنة نبيك ﷺ اللهم ارزقنا الاستمساك بالكتاب والسنة ما أحييتنا، اللهم توفنا على الكتاب والسنة، وشَفِّع فينا الكتاب والسنة، يارب العالمين.



قواعد ذهبية من قواعد الدعوة الربانية (١)

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال : قال رَسُولُ الله ﷺ لِمُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ: « **إِنَّكَ ستَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أن يشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنَّ محمدًا رَسُولُ الله، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ بِذلك فأَخْبِرْهُم أَنَّ الله قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ بِذلك فأَخْبِرْهُم أَنَّ الله قَدِ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدَّ على فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ بِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّه لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله حِجَابٌ** »[1].

هذه وصيَّةٌ عظيمةٌ من الدَّاعيةِ الأوَّلِ محمَّدٍ رسولِ الله ﷺ لكل الدُّعاةِ من بعده.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال : " قال رَسُولُ الله ﷺ لِمُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ " : أي داعيًا ومعلّمًا، ومبلّغا ومفقّها وحاكما، وهذا يدل على ضرورةِ إرسال العلماء وإيفاد الدُّعاة إلى دُوَلِ الكفر ليدعوهم إلى الإسلام، ويرغّبوهم في دين الله، ويعبّدوهم لله ﷻ.

فلما بعث النبيُّ ﷺ معاذًا وصّاه وصيّة ينتفع بها في دعوته ومواجهة المدعوِّين، مما يدلُّ على ضرورة تعليم البِعْثاتِ التي تُبعث إلى سائر الدول، وتفقيههم حتى يكونوا دُعاةَ خيْرٍ ورُسُلَ هدى، وإلاَّ فإنَّ العاملَ بغير علم كالسّالك على غير طريق، والعاملَ بغير علم يضرّ ولا ينفع، ويُفْسِدُ ولايُصْلح، وفَاقِدُ الشيء لايعطيه.

قال ﷺ لمعاذ : « **إِنَّكَ ستَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ** »، فهو ﷺ يبصّره بحال المدعوِّين، ويُوقِفُه على طبيعتهم حتى يستعدّ للمواجهة، ويتأهَّل للدَّعوة، ويُعِدَّ العدّةَ اللازمةَ

(١) متفق عليه : خ (١٤٩٦/ ٣٥٧/ ٣)، م(١٩/ ٥٠/ ١)، ت(٦٢١/ ٦٩/ ٢)، د(١٥٦٩/ ٤٦٧/ ٤)، جه(١٧٨٣/ ٥٦٨/ ١)، نس(٥٥/ ٥).

لمخاطبة هؤلاء الناس، لأنَّهم أهْلُ علم، ومخاطبتُهم تختلف عن مخاطبةِ غيْرهم من الأُميِّين.

وإنما خصّ النبيَّ ﷺ أهلَ الكتاب بالذِّكر مع أنَّ باليمن غيرَهم، لأنهم كانوا أكثرَ من مشركي العرب، وليتأهَّب معاذٌ لمناظرتهم ومجادلتهم بالَّتي هي أحسن، كما قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥].

قال تعالى: ﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ [العنكبوت:٤٦].

ثم أرشده ﷺ إلى ما ينبغي أن يبدأ به دعوته فقال: « فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أن يشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنَّ محمدًا رَسُولُ الله » وصرّح في رواية أخرى بالأوّليّة فقال: « فليكن أوّلَ مَاتَدْعُوهُمْ إِلَيه شهادةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَأَنَّ محمدًا رَسُولُ الله ».

تلك البداية التي بدأ بها كلُّ الدُّعاةِ من الأنبياء والرسل دعوتَهم، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا الله مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف:٥٩]، وقال تعالى: ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا الله مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف:٦٥]، وقال تعالى: ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا الله مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف:٧٣]، وقال تعالى: ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا الله مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف:٨٥]، ولقد لَبِثَ نبيّنُا محمَّدٌ ﷺ عشْرَ سنين يدعو قومه إلى هذه الكلمةِ لا إله إلا الله، لأنَّها أوَّلُ واجبٍ على المكلَّف، وأوَّلُ ما يدخل به في الإسلام.

ولم يكن هذا الاتفاقُ على هذه البداية من الرُّسلِ أجمعين عن اجتهاد ونظر، وإنَّما كان عن وحْي يُوحي، فهي إذَنْ شَرْعُ الله ومنْهَجُه الذي رسمه لأنبيائه، ولا شكَّ أنَّ الدُّعاة إلى الله هم أتباع الأنبياء، وأنه يجب عليهم اتباعُ منْهَجهم، وسلوكُ طريقتهم، ولاسيَّما وقد وصّى رسولُ الله ﷺ جميعَ الدُّعاة في شخص معاذٍ بهذه الوصية: « **فَلْيَكُنْ أوّل مَاتَدْعُوهُمْ إلَيه شَهادَةَ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ الله، وَأنَّ محمدًا رَسُولُ الله** »، فإنَّ هذه الشهادةَ كالأساسِ وما بعدها كالبناء، ولايُمكن رفْعُ البناء دونَ أساس، والتَّأسيسُ هو المشْكلة الكبرى، متى فُرِغَ منه سَهُلَ مابعده، حتى في البناء الحسّي، يقولون لكلِّ من أراد بناءَ بيْتٍ : إذا طلعتَ من الأرض انتهيت، يعني إذا فرغْتَ من الأساس فقد انتهى البناء، باعتبار أنَّ العقبَة الكؤودَ في البناء هي الأساس.

وهذا ماحدث من رسولِ الله ﷺ ومعه، انشغل ﷺ مدَّةَ ثلاثَ عشْرَةَ سنةً في تأسيس العقيدة في نفوس هذه العُصْبَةِ القليلة التي آمنت معه، وترسيخ الإيمان بالله واليوم الآخر في قلوبهم، وتعميقِ فِكْرَةِ الحساب والجزاء في نفوسهم.

وظلّ هذه المدَّةَ الطويلةَ يُجاهد في سبيل ذلك جهادًا كبيرًا كما أمره ربُّه سبحانه، حتى إذا هانَتْ عليهم أنفسُهم وأموالُهم، بل هانت عليهم الدُّنيا كلُّها، وعاشوا للآخرة وحدها، هاجروا إلى المدينة تاركين ديارَهم وأموالَهم، فنزل الحلالُ والحرام، وفُرِضَتِ الفرائض، فلم يجد النبيُّ ﷺ في دعوتهم إلى الالتزام بها أيَّةَ مشقَّة، ذلك أنه كان قد أسّس الأُسسَ وقعّد القواعد، وأرسى في القلوب معنى الألوهيَّة والعبودية، وأن الإلهَ له الأمر، وعلى العبد السَّمْعَ والطَّاعةُ والتَّسليم والرِّضا، ولذلك كانوا إذا نزَل الأمرُ قالوا سمِعْنا وأطعْنا غُفْرانَك ربَّنا، وإذا نزل النَّهْيُ قالوا انْتَهيْنَا ربّنا.

ولذلك قالتْ عَائِشَةَ رضي الله عنها : كان أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْ الْقُرْآنَ آيَاتٌ مِنَ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلاَمِ نَزَلَ الحَلاَلُ وَالحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ لاَ تَزْنُوا، لَقَالُوا لاَ نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ لاَ تَشْرَبُوا الخَمْرَ، لَقَالُوا لا نَدَعُ الخَمْرَ أَبَدًا.[1]

ويقول جُندبُ بنُ عبْدِ الله البَجِليُّ رضي الله عنه : تَعلَّمْنَا الإيمانَ ثُمَّ تَعلَّمْنَا القُرْآنَ فازْدَدْنَا إيمانًا.[2]

ويقول عَبْدُ الله بنُ عُمَرَ رضي الله عنهما : لَقَدْ عِشْنَا بُرْهَةً مِنَ الدَّهْرِ وإنَّ أَحَدنا يُؤْتَى الإيمانَ قَبْلَ القُرْآنَ، وتَنْزِلُ السُّورَةُ فَنتعلَّمُ حلاَلَهَا وحَرامَها، وزَواجِرَها وأوامِرَها، وما يجبُ أن نَقِفَ عِنْدَه منْها.[3]

وما لبث المسلمون في المدينة إلا فترةً قليلةً حتى جمع الله بيْنَهم وبيْنَ قُرَيْشٍ على غير ميعاد سابق، ومكّن لهم من عدوِّهم، وأظهرهم عليهم، فكان هذا النَّصْرُ حركةَ تحوُّلٍ كبير في نظر المجتمع الدوليّ إلى هذه الدَّوْلَةِ المسلمة، وتتابعت اللقاءاتُ وتوالى النَّصر، حتى دخل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مكَّةَ فاتحًا بعد ثمانِ سنينَ من هجْرتِه منها.

وما كان شيءٌ من ذلك كلِّه ليتمَّ إلا بسبب هذه البدايةِ المباركة، بدايةِ الدَّعْوَةِ بالتَّوحيد، ورَفْعِ الدَّعْوَةِ رايةً واحدةً هي رايةُ التَّوحيد.

ولقد تمّ هذا كلّه لأنَّ الذين أقاموا هذا الدِّينَ في صورةِ دوْلَةٍ ونظام، وشرائعَ وأحكام، كانوا قد أقاموا هذا الدِّينَ مِنْ قَبْلُ في ضمائرهم وحياتِهم في صورةِ

(١) صحيح : خ (٤٩٩٣/ ٣٨ و٣٩/ ٩).

(٢) صحيح : [ص. جه: ٥٢]، جه (٦١/ ٢٣/ ١).

(٣) صحيح : [كم (٣٥/ ١)] وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين وأقره الذهبي.

عقيدةٍ وخُلق، وعبادةٍ وسلُوك، فلمَّا أن ابتُلوا فصَبرُوا، ولَمَّا أن فرغت نفوسهم، من حظِّ نفوسهم.

ولَمَّا عَلِمَ الله أنهم لا ينتظرون جزاءً في هذه الأرض كائنًا ما كان هذا الجزاء، ولو كان هو انتصارَ هذه الدَّعْوةِ على أيديهم، وقيامَ هذا الدِّين في الأرض بجهودهم، ولَمَّا لم يَعُدْ في نفوسهم اعتزازٌ بجنسٍ ولاقوْمٍ ولا اعتزازٌ بوطنٍ ولا أرْض، ولا اعتزازٌ بعشيرةٍ ولا نسب، ولَمَّا عَلِمَ الله منهم ذلك كلَّه مكّن لهم في الأرض، وأقام لهم دولةً، ومن هنا جاءت هذه الكلمة الحكيمة : **أقيمُوا دَوْلَةَ الإسلامِ في نُفوسِكم تَقُمْ على أرْضِكُم.**

فعلى جميع العاملين في حَقْلِ الدَّعْوةِ الإسلاميَّةِ أن يعوا هذه الحقيقةَ وأن يعلموا أنَّهم حين يدْعُونَ النَّاس لإعادة إنشاء هذا الدِّين يجب أن يدْعُوَهم أوّلاً إلى اعتناق العقيدة، ولتكن هذه العقيدةُ هي أساسَ دعْوَةِ الناس إلى الإسلام، كما كانت هي أساسَ دعْوَتِهم إلى الإسلام أوّل مرّة.

يجب أن يعرفَ الدُّعاةُ جيِّدًا، ويجب أن يعلموا أنه : كما أنَّ هذا الدّين دينٌ ربّانيّ فإنَّ منْهجَهُ في العمل منْهَجٌ ربّانيّ كذلك، وأنه لا يمكنُ فَصْلُ حقيقةِ هذا الدين عن منْهَجِهِ في العمل.

« فَإنْ هُمْ أَطَاعُوكَ بِذلك فأخْبِرْهُم أَنَّ الله قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ » :

إنما بدأ ﷺ بالشهادتين لأنهما كما ذكرنا أوّلُ واجبٍ على المكلَّف، وبهما يدخل في الإسلام، وثنّى بالصلاة لأنّها أوَّلُ ما فُرِض من العبادات، وهي التي تدلّ على حقيقة

إسلام المرء، ولذا قال ﷺ: «العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلاَةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ».[1]

فمن شَهِدَ أن لا إلَه إلا الله، وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله، فقد وجب عليه أن يُقِيمَ الصَّلاة، فالشهادتانِ بالنِّسْبَةِ للدين كالأساس، والصَّلاةُ بالنسبة له كالعمودِ الأساسيِّ الذي يُقَامُ عليه البناء، ولذا قال ﷺ: «رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلاَمُ وَعَمُودُهُ الصَّلاَةُ»[2]، فحافظوا على الصلاة يا عباد الله، كما أمركم الله، ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الوُسْطَى وَقُومُوا لله قَانِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨].

«فَإِنْ هُمْ أَطَاعُو لَكَ بِذلك فأَخْبِرْهُم أَنَّ الله قَدِ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدَّ على فُقَرَائِهِمْ»:

وهكذا ثلّث بالزكاة لأنها قرينةُ الصلاة، وقد ذُكرتْ معها في القرآن في أكثرَ من ثمانينَ موْضعًا، ولأنَّ الصَّلاةَ أعظم حُقوق الله، والزَّكاةُ أعظمُ حقوقِ العباد، فمن أقام الصَّلاة فقد أحسن فيما بيْنه وبيْن الله، ومن أدَّى الزَّكاةَ فقد أحسن فيما بينه وبين الناس، ﴿وَالله يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤].

قال تعالى: ﴿الم ۝١ تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِلمُحْسِنِينَ ۝٣ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [لقمان:١-٥].

والرَّاجح في الضمير في قوله: «أَغْنِيَائِهِمْ، فُقَرَائِهِمْ» أنه عائدٌ على المسلمين، لا على أهل هذا البلد خاصة، وعليه فإنه يجوز نَقْلُ الزَّكاةِ من بلدٍ لآخر.

---

(١) صحيح: [ص. جه: ٨٨٤]، جه(١٠٧٩/ ٣٤٢/ ١)، ت(٢٧٥٦/ ١٢٥/ ٤)، نس(٢٣١/ ١).

(٢) صحيح: [ص. ج: ٥٠١٢]، ت(٢٧٤٩/ ١٢٤/ ٤).

ثم أرشد النبي ﷺ معاذًا إلى ما ينبغي اجتنابُه من أموالِ القوْمِ فقال له : « **فَإِنْ هُـمْ أَطَاعُو لكَ بِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ** » :

وهي أنْفَسُ الأمْوال وأحْسَنُها وأحبَّها إلى أهلها، فليس للعاملينَ على الزَّكاة أن يأخذوا أحسنَ ما عند أصحاب الأموال، كما أنَّه ليس لأصحابِ الأمْوال أن يدْفَعُوا أرْدأَ ما عندهم، وإنما خيْرُ الأمور أوْسَطُها.

ثم حذّره من عدم الامتثال لما نهاه عنه فقال : « **وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ فَإِنَّه لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله حِجَابٌ** » :

يعني إيَّاك والظُّلمَ، فيدعو عليك المظلومُ فينتصرُ الله له، ويأخذُ حقَّه منك، فإنَّ دعوةَ المظلوم تُرْفَعُ إلى السماء فتُفَتَّحُ لها أبوابُها، ولا يَحْجِبُها عن الله حاجب، فيقول لها : وعزَّتي وجلالي لأنصرنَّك ولو بعْدَ حين.

وبعد :

فهذه قواعدُ ذهبيَّةٌ من قواعد الدَّعوة الربّانية، يجب على كل العاملين في مجال الدعوة أن يتعلَّموها ويلتزِموا بها، فإنَّ الالتزام بها هو سبيلُ نجاح الدُّعاة.

قواعد ذهبية من قواعد الدعوة الربانية (٢)

عنْ أبِي مُوسَى الأشْعَرِيِّ رضي الله عنه : أنَّ النبيَّ ﷺ بعثَهُ وَمُعَاذًا إلى اليَمَنِ فقَالَ: « **يَسِّرَا وَلا تُعَسِّرَا وَبَشِّرَا وَلا تُنَفِّرَا وَتَطَاوَعَا ولاَ تَخْتَلِفا** »[1].

بعث النبيُّ ﷺ أبا موسى الأشعريَّ ، ومعاذَ بنَ جبلٍ رضي الله عنه إلى اليمن داعييْن إلى الإسلام ، ومُعَلِّميْن للمسلمين ولمن دخل في الإسلام، فقال لهما قبلَ سفرِهما موصياً وناصحًا ، ومعلمًا ومرشدًا لهما كيف تكون الدعوة ؟ وما هي الأساليب التي يجب عليهما اتِّباعُها لتحقيق الغاية من سفرهما وهي دخول الناس في دين الله أفواجا ، قال لهما :

الوصية الأولى : « يَسِّرَا وَلا تُعَسِّرَا » :

أي بيّنوا للناس سماحةَ الإسلام ، ويُسْرَ الدين ، فإنَّ هذا الدينَ يُسْرٌ لا عُسْرَ فيه ، ولا مشقَّة ولا حرج ، كما قال تعالى : ﴿ **يُرِيدُ الله بِكُمْ اليُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمْ العُسْرَ** ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال تعالى : ﴿ **مَا يُرِيدُ الله لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [المائدة :٦].

وقال تعالى : ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال تعالى : ﴿ **يُرِيدُ الله أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا** ﴾ [النساء:٢٨].

فالدِّينُ يُسْرٌ لاعُسْرَ فيه، لا عُسرَ في العقيدة، ولا عُسرَ في الأحكام.

---

(١) متفق عليه : خ (٤٣٤٤ و ٤٣٤٥/ ٦٢/ ٨)، م (١٧٣٣/ ١٣٥٩/ ٣).

فالإيمانُ أنْ تُؤْمِنَ بالله ومَلائِكَتِه وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليَوْمِ الآخر، وتؤمنَ بالقَدرِ خَيْرِه وشَرّه[1] ، وكلها عقائدُ سهْلةٌ وميْسورة ، لا خفاءَ فيها ولا غُموض ، ولا تعقيدَ ولا مشقَّة ، وكلُّ إنسانٍ يرى في نفسه القدْرَةَ على اعتقاد هذه العقائد، لأنّها عقائدُ تقبلُها العقولُ السَّليمة ، وتُقِرُّها الفِطَرُ المسْتقيمة. والإسلامُ أن تَشْهد أنَّ لاإلهَ إلاَّ الله ، وأنَّ محمدًا رسول الله ، وتُقِيمَ الصَّلاةَ ، وتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وتَصُومَ رَمضانَ ، وتَحُجَّ البيْتَ إنِ اسْتَطعْتَ إليه سبيلا.[2]

والصَّلواتُ خَمْسٌ في اليوم والليلة ، لا تستَغْرِقُ من الأرْبَعِ والعشرين ساعةً ساعةً ، يُشترط فيها الوضوءُ فمن عجز عنه تيمَّم ، ويُشْتَرطُ فيها استقبالُ القبلة فمن عجز عنْه لمرَضٍ أوغيره ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله ﴾ [البقرة:١١٥]، ويُشترط فيها القيامُ فإنْ لم تستطعْ فقاعدا ، فإنْ لم تستطع فعلى جنب.[3]

والزَّكاة لا تجب إلا على مَنْ ملَك نصابًا معيّنًا من المال وحال عليه الحول، ولا تجب إلا كلَّ سنَة ، والقدْرُ الواجب إخراجُه شيء يسير جدًا بالنسبة إلى مافي يد المالك ، فهو رُبُعُ العُشْرِ ، بمعدّل كلِّ ألفِ جُنَيْهٍ خَمْسَةُ وعشرون جنيها.

والصِّيامُ أيّامٌ معدودات ، هي شهْرُ رمضان كلَّ عام ، ومع ذلك ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ [البقرة :١٨٤].

وأما الحجُّ فلا يجب إلا مرّةً واحدة في العمر على من استطاع إليه سبيلا، فمن لم يستطع فلا جناح عليه.

---

(١) صحيح : م (٨/ ٣٦/ ١)، ت (٢٧٣٨/ ١١٩/ ٤)، د (٢٦٧٠/ ٤٥٩/ ١٢)، جه (٦٣/ ٢٤/ ١)، نس (٨٩٧).

(٢) جزء من الحديث السابق في تعريف الإيمان.

(٣) صحيح : خ(١١١٧/ ٥٨٧/ ٢)، د(٩٣٩/ ٢٣٣/ ٣)، ت(٣٦٩/ ٢٣١/ ١)، جه(١٢٢٣/ ٨٦/ ١).

فمن فعل ذلك دخل الجنة ، كما في الحديث عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ : « نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ الله ﷺ عَنْ شَيْءٍ، فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ البَادِيَةِ العَاقِلُ فَيَسْأَلَهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ البَادِيَةِ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ! أَتَانَا رَسُولُكَ فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ الله أَرْسَلَكَ ؟ قَالَ : « صَدَقَ ». قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ ؟ قَالَ: « الله ». قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ الأَرْضَ ؟ قَالَ: « الله». قَالَ : فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الجِبَالَ وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ ؟ قَالَ : « الله ». قَالَ: فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ وَخَلَقَ الأَرْضَ وَنَصَبَ هَذِهِ الجِبَالَ آلله أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ : وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِنَا وَلَيْلَتِنَا ؟ قَالَ: « صَدَقَ». قَالَ : فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ آلله أَمَرَكَ بِهَذَا ؟ قَالَ : « نَعَمْ ». قَالَ : وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا زَكَاةً فِي أَمْوَالِنَا. قَالَ : «صَدَقَ ». قَالَ : فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ آلله أَمَرَكَ بِهَذَا ؟ قَالَ: « نَعَمْ ». قَالَ : وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ فِي سَنَتِنَا. قَالَ: « صَدَقَ ». قَالَ : فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ آلله أَمَرَكَ بِهَذَا ؟ قَالَ : « نَعَمْ ». قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا حَجَّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً. قَالَ : « صَدَقَ ». قَالَ : ثُمَّ وَلَّى. قَالَ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لاَ أَزِيدُ عَلَيْهِنَّ وَلاَ أَنْقُصُ مِنْهُنَّ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الجَنَّةَ** »[1].

هذا هو الدِّين ، هذا هو الإسلام ، سَهْلٌ سَمْحٌ ، جليٌّ واضح ، لا خفاءَ فيه ولا غُموض ، ولا حرجَ فيه ولا مشقَّة ، فيجبُ على الدُّعاة أن يعوا هذه الحقيقة، وأن يستجيبوا لهذه الوصيَّة ، وأن يُيَسِّروا ولا يُعَسِّروا ، وأن يُقَدّموا الدِّين للناسِ سَلِسًا سهلاً ، وأن يُحْسِنُوا عَرْضَه حتى يُقْبِلَ النَّاس عليه ويَدْخُلوا فيه .

(١) صحيح : م (١٢/ ٤١/ ١)، ت (٦١٥/ ٦٤/ ٢)، نس (١٢١/ ٤).

وللدُّعاةِ في ذلك الأسوةُ الحسَنة، والمثَلُ الأعْلى، في الدَّاعية الأوَّل محمَّدٍ رسُولِ الله ﷺ ، فلقد كان ﷺ ييسّر على الناس ، ويبسّط لهم الإسلام ، حتى دخل الناسُ في دين الله أفواجا ، و « إنْ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ لَيَدَعُ العَمَلَ وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ خَشْيَةَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ فَيُفْرَضَ عَلَيْهِم »[1] ، كما فَعل في قيامِ رمضان ، صلّى في المسْجد ، فصلّى بصلاته أناسٌ ، ثم صلَّى من القابلة فكثُر الناس ، ثم اجتمعوا من الليلةِ الثالثة فلم يَخْرُجْ إليهم ، فلما أصبح قال : « **قَدْ رَأَيْتُ الَّذِي صَنَعْتُمْ وَلَمْ يَمْنَعْنِي مِنَ الْخُرُوجِ إِلَيْكُمْ إِلاَّ أَنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ** »[2].

وأخّر العِشَاء ليلةً حتى نام مَن في المسجد ثم خرج فصلاّها ، ثم قال : « **إِنَّهَا لَوَقْتُهَا لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي** »[3].

وقال ﷺ : «**لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلاَةٍ**»[4].

وكان ﷺ يحْلُم على الجاهلين ، ويُعلِّمهم برفقٍ ولين ، وينْهي عن نَهْرِهم وأذيّتهم.

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَامَ أَعْرَابِيٌّ فَبَالَ فِي الْمَسْجِدِ فَتَنَاوَلَهُ النَّاسُ ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ : « **دَعُوهُ ، وَهَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلاً مِنْ مَاءٍ – أَوْ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ – فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ** »[5].

---

(١) متفق عليه : خ (١١٢٨/ ١٠/ ٣) ، م(٧١٨/ ٤٩٧/ ١) ، د(١٢٧٩/ ١٧٢/ ٤).

(٢) متفق عليه : خ (١١٢٩/ ١٠/ ٣)، م(٧٦١/ ٥٢٤/ ١)، د(١٣٦٠/ ٢٤٧/ ٤)، نس(٢٠٢/ ٣).

(٣) صحيح : م (٦٣٨-٢١٩-/ ٤٤٢/ ١).

(٤) متفق عليه : خ(٨٨٧/ ٣٧٤/ ٢)، م(٢٥٢/ ٢٢٠/ ١)، ت(٢٢/ ١٨/ ١) ، جه (٢٨٧/ ١٠٥/ ١) إلا أن لفظ البخاري " مع كل صلاة ".

(٥) صحيح : خ(٢٢٠/ ٣٢٣/ ١)، د(٣٧٦/ ٣٩/ ٢)، ت(١٤٧/ ٩٩/ ١).

وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ : بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ الله ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ. فَقُلْتُ : يَرْحَمُكَ الله ! فَرَمَانِي القَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ. فَقُلْتُ : وَا ثُكْلَ أُمِّيَاهْ ! مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ. فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي. لَكِنِّي سَكَتُّ. فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ. فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي ! مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ. فَوَالله مَا كَهَرَنِي وَلاَ ضَرَبَنِي وَلاَ شَتَمَنِي. قَالَ : « **إِنَّ هَذِهِ الصَّلاَةَ لاَ يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ القُرْآنِ** »[١].

وكان ﷺ ينكر على كل من شدّد على نفسه :

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قال : جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا. قَالُوا : فَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ رسول الله ﷺ ، قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ ؟ قَالَ أَحَدُهُمْ : أَمَّا أَنَا فَأُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا ، وَقَالَ الآخَرُ : وأَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ ، وَقَالَ الآخَرُ : أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ وَلا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا ، فَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَيْهِمْ ، فَقَالَ : « **أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلتُمْ كَذَا وَكَذَا ؟ أَمَا وَالله إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لله ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ ، ولَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي** »[٢].

وَعَنِ عَبْدَ الله بْنَ عَمْرِو بن العاص رضي الله عنهما قَالَ : أُخْبِرَ رَسُولُ الله ﷺ أَنِّي أَقُولُ : وَالله لأَصُومَنَّ النَّهَارَ وَلأَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عِشْتُ ، فقال رَسُولُ الله ﷺ : « **أَنْتَ الَّذِي تَقُولَ ذَلِكَ؟** » فَقُلْتُ لَهُ : قَدْ قُلتُهُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله، قَالَ : « **فَإِنَّكَ لاَ تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ فَصُمْ وَأَفْطِرْ وَقُمْ وَنَمْ وَصُمْ مِنَ الشَّهْرِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ، فَإِنَّ الحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا ، وَذَلِكَ مِثْلُ**

---

(١) صحيح : م (٥٣٧/ ٣٨١/ ١)، د (٩١٨/ ١٩٨/ ٣) ، نس (٢٠/ ٩٥).

(٢) متفق عليه : خ (٥٠٦٣/ ١٠٤/ ٩) وهذا لفظه ، م(١٤٠١/ ١٠٢٠/ ٢) ، نس (٦٠/ ٦).

صِيَامِ الدَّهْرِ ». قُلتُ : إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: « فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمَيْنِ ». قُلتُ : إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ : « فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمًا ، فَذَلِكَ صِيَامُ دَاوُدَ عليه السلام ، وَهُوَ أعدل الصِّيَامِ ». قُلتُ فإِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. فَقَالَ رسول الله ﷺ : « لاَ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ».[1]

فيا معْشَرَ الدُّعاةِ ! يسّروا ولا تعسِّروا ...

الوصية الأولى : « وَبَشِّرَا وَلا تُنَفِّرَا » :

أي : بشّروا النَّاسَ أنَّ الله يقْبَلُ التَّوبَةَ عن عباده ، ويعْفُوا عن السيِّئات ، بلّغوا الكافرين قول الله تعالى : ﴿ قُل لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال :٣٨].

بلِّغوهم قَوْلَ الله تعالى : ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر :٥٣].

بلّغوهم قولَه تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ الله إِلَٰهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلاَّ بِالحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ الله غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان :٦٨ – ٧٠].

ذكّروهم أنَّ الإسلاَمَ يَجُبّ ما قبله ، كما في الحديث عَنْ عَمْرِو بنِ العَاصِ رضي الله عنه قَالَ : لَمَّا جَعَلَ الله الإِسْلاَمَ فِي قَلبِي أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلتُ : ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلأُبَايِعْكَ ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ قَالَ : فَقَبَضْتُ يَدِي. فقَالَ : « مَا لَكَ يَا عَمْرُو ؟» قُلتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ.

---

(١) متفق عليه : خ (١٩٧٥/ ٢١٧/ ٤)، م(١١٥٩-١٨٢-/ ٨١٣/ ٢)، د(٢٤١٠/ ٧٩/ ٧)، نس(٢٠٩/ ٤).

فقَالَ : « **تَشْتَرِطُ مَاذَا** ؟ » . قُلتُ : أَنْ يُغْفَرَ لِي. قَالَ : « **أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلاَمَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ ، وَأَنَّ الهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلِهَا ، وَأَنَّ الحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ** »[1].

ذكّروهم بهذا ، وبشّروهم أنَّ كلَّ ما عملوا من خَيْرٍ في الكُفْرِ فلهم أجرُه في الإسلام ، وكلَّ ما عملوا من شرٍّ مُحِيَ عنهم إثْمُه بالإسلام :

عَنْ عُرْوَةَ عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ ﷺ قَالَ : قُلتُ يَا رَسُولَ الله ! أَرَأَيْتَ أمورًا كُنْتُ أَتَحَنَّثُ بِهَا فِي الجَاهِلِيَّةِ مِنْ صِلاَةٍ وَعَتَاقَةٍ وَصَدَقَةٍ ، هَل لِي بهَا أَجْرٍ ؟ فقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **أَسْلَمْتَ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ خَيْرٍ** »[2].

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **إِذَا أَسْلَمَ العَبْدُ فَحَسُنَ إِسْلامُهُ ، كَتَبَ الله لَهُ كُلَّ حَسَنَةٍ كَانَ زَلَفَهَا ، وَمَحَا عَنْهُ كُلَّ سَيِّئَةٍ كَانَ زلَفَهَا ، وكَانَ عمله بَعْدَ الحَسَنَةُ بِعَشْرَةِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ، وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا إِلاَّ أَنْ يَتَجَاوَزَ الله تعالى عَنْه** »[3].

فبشّروا ولا تنفّروا ...

بشّروا عُصاةَ المسلمين بأنَّ الله واسعُ المغفرة ، ورحمتُه وسَعَتْ كلَّ شيء، بشّروهم بأنَّ الله يبسط يدَه باللَّيْلِ ليتوبَ مسيءُ النَّهار ، ويبسطُ يدَهُ بالنَّهارِ ليتوبَ مُسيءُ اللَّيْل.[4]

بشّروهم بأنَّ من استغفرَ الله غفرَ له ، ومن تابَ إليْه تابَ عليه. بشّروهم بأنَّ الله لا يطردُ أحدًا عن بابه.

---

(١) صحيح : م (١٢١/ ١٢/ ١).

(٢) متفق عليه : خ (١٤٣٦/ ٣٠١/ ٣) ، م(١٢٣/ ١١٣/ ١).

(٣) صحيح : [ص. ج: ٣٣٣] ، نس (١٠٥، ١٠٦/ ٨).

(٤) صحيح : م (٢٧٥٩/ ٢١١٣/ ٤).

بشّروهم بأنه : " كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا ، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ ، فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ ، فَأَتَاهُ فَقَالَ : إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا ، فَهَل لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ قَالَ : لاَ. فَقَتَلَهُ فأتمّ بِهِ مِائَةً ، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ ، فَدُلَّ عَلَى عَالِمٍ ، فَأَتَاهُ فَقَالَ : إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ ، فَهَل لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ. وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الله ! انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا ، فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ الله تعالى ، فَاعْبُدِ الله مَعَهُمْ ، وَلا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ. فَانْطَلَقَ ، حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أدركه المَوْتُ ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلاَئِكَةُ العَذَابِ ، فَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ : جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلاً بِقَلبِهِ إِلَى الله تعالى. وَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ العَذَابِ : إِنَّهُ لَمْ يَعْمَل خَيْرًا قَطُّ. فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ. فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ – أي حكماً – فَقَالَ : قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ ، فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ. فنأَى بِصَدْرِهِ جهة أهل الطاعة فكان أقرب جهة أهل الطاعة فكان أقرب إليها فقبضته ملائكة الرحمة "[1].

فبشّروا عصاةَ المسلمين ، وقُولُوا لهم : إذا كانَتْ هذه رحمةَ الله بمَن قتل مائةً مِنْ غيرِنا ، فنحْنُ أوْلى وأحقُّ برحْمَةِ الله مِنْ هذا القاتل ، لأن أُمَّتَنَا خيْرُ الأمم وأكْرَمُها على الله ﷻ .

بشّروهم بقولِ النبيِّ ﷺ : « أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا ، فَقَالَ : اللهمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا ، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ. فَقَالَ : أَيْ رَبِّ ، اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا ، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ. فَقَالَ : أَيْ رَبِّ ، اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا ، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. اعْمَل مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ »[2].

---

(١) متفق عليه : خ (٣٤٧٠/ ٥١٢/ ٦) ، م(٢٧٦٦/ ٢١١٨/ ٤).

(٢) صحيح : م (٢٧٥٨/ ٢١١٢/ ٤).

فبشّروا ولا تنفّروا ، ووسّعُوا على عبادِ الله ولا تتحجّروا واسعًا ...

ولقد كان النبيُّ ﷺ يُنكر على المنفّرين :

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ البدريّ رضي الله عنه قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ : إِنِّي لأَتَأَخَّرُ عَنْ صَلاَةِ الصُّبْحِ مِنْ أَجْلِ فُلاَنٍ مِمَّا يُطِيلُ بِنَا. فَمَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ غَضِبَ فِي مَوْعِظَةٍ قَطُّ أَشَدَّ مِمَّا غَضِبَ يَوْمَئِذٍ، فَقَالَ: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ ، فَأَيُّكُمْ أَمَّ النَّاسَ فَلْيُوجِزْ ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِهِ الكَبِيرَ والصغير وَذَا الحَاجَةِ »[1].

وأَعْظَمُ من ذلكَ إخبارُه ﷺ أنَّ الله يُعذّب الذين يقنّطون النّاسَ من رحمته : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلاَنِ مُتَوَاخِيَانِ ، أَحَدُهُمَا مُذْنِبٌ وَالآخَرُ فِي العِبَادَةِ مُجْتَهِدٌ ، فَكَانَ المُجْتَهِدُ لا يَزَالُ يَرَى الآخَرَ عَلَى ذَنْبٍ ، فَيَقُولُ : أَقْصِرْ. فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَقَالَ : أَقْصِرْ ، فَقَالَ : خَلِّنِي وَرَبِّي. أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا ؟ ! فَقَالَ له : وَالله لاَ يَغْفِرُ الله لَكَ. أَوْ قال : لاَ يُدْخِلُكَ الجَنَّةَ. فَقَبَضَ الله أَرْوَاحَهُمَا ، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ العَالَمِينَ ، فَقَالَ الربّ تعالى للمُجْتَهِدِ : أَكُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا ؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ : اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ بِرَحْمَتِي. وَقَالَ لِلآخَرِ : اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ » قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ.

فبشَروا ولا تنفّروا ...

بشّروا المستضعفين في الأرض من المسلمين بالنَّصر والتَّمكين ، ولا تَزْرَعُوا في نفوسهم اليأس، فقد كان ﷺ يبشّر العُصْبَةَ المؤمنةَ بالنّصر والتمكين، وقيامِ الدَّولة واتّساعِ الرُّقعة ، وهم تَحْتَ وطأة التعذيب.

---

(١) متفق عليه : خ (٩٠/ ١٨٦/ ١) ، م (٤٦٦/ ٣٤٠/ ١).

عَنْ خَبَّابِ بن الأرتّ ﷺ قَالَ : شَكَوْنَا إلى رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ ، فَقُلنَا : أَلا تَسْتَنْصِرُ لَنَا ؟ أَلاَ تَدْعُو لَنَا ؟ فَقَالَ : « قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فيها ، ثُمَّ يُؤْتَى بِالمِنْشَارِ فيُوضع عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نصفين ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لحمه وعَظْمِهِ مَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ. وَالله لَيُتِمَّنَّ الله هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ من صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمُوتَ لا يَخَافُ إلاَّ الله وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَستعْجَلُونَ »[1].

وكان ﷺ يقول : « إِنَّ الله زَوَى لِيَ الأَرْضَ حتى رَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا ، وَإِنَّ مُلكَ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا »[2].

فبشّروهم ...

بشّروهم بأنَّ المستقبلَ لهذا الدين ، وأنَّ هذا الإسلامَ ستُفتح له البيوتُ كلُّها ، كما قال ﷺ : « لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، وَلاَ يَتْرُكُ الله بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ أَدْخَلَهُ الله هَذَا الدِّينَ ، بِعِزِّ عَزِيزٍ، أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ الله بِهِ الإِسْلاَمَ وَذُلاًّ يُذِلُّ الله بِهِ الكُفْرَ »[3].

بشّروا المتطلّعين إلى عَوْدةِ الخلافة الراشدة أنّها عائدة ، كما قال ﷺ : « تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ الله أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ، ثُمَّ تَكُونُ خِلاَفَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ الله أَنْ تَكُونَ ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ، ثُمَّ تَكُونُ مُلكًا

---

(١) صحيح : خ (٣٦١٢/ ٦١٩/ ٦).

(٢) صحيح : م(٢٨٨٩/ ٢٢١٥/ ٤) ، ت(٢٢٦٧/ ٣١٩/ ٣) ، د(٤٢٣٢/ ٣٢٢/ ١١).

(٣) صحيح : [س ص :٣] وقال شيخنا في " تحذير الساجد " (١٧٣) : رواه أحمد (٤/ ١٠٣) وابن بشران في " الأمالي " (٦٠/ ١) والطبراني في " الكبير " (١/ ١٢٦/ ١) وابن مندة في " كتاب الإيمان " (١٠٢/ ١) وغيرهم.

عَاضًّا ، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكُونَ ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلاَفَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ ثُمَّ سَكَتَ »[1].

الوصية الثالثة : « وَتَطَاوَعَا ولاَ تَخْتَلِفا » :

فإنَّ الخيْرَ كلّه في الاتِّفاق ، والشرّ كلّه في الاختلاف ، والاتفاقُ رحمةٌ والاختلافُ عذاب ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ [هود : ١١٨، ١١٩].

فالمرحومون متفقون لا يختلفون ، وإذا اختلفوا - اختلافًا هم فيه معذورون - لا يتباغضون ، ولا يتدابرون.

ولقد وصّى الله تعالى المؤمنين بالاتِّفاق ، ونهاهم عن الاختلاف ، ووصّاهم بالاجتماع ونهاهم عن التفرُّق ، قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٢، ١٠٣].

وقال تعالى : ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥، ١٠٦]. قال ابنُ عبَّاس : يومَ تبيضّ وجوهُ أهْلِ السنَّةِ والجماعة ، وتسودّ وجوهُ أهلِ الفُرْقَة والضلالة.[2]

---

(١) صحيح : [س. ص : ٥]، أ(١٥/ ١٠/ ٢٣).

(٢) ابن كثير (٣٩٠/ ١).

وقال تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** ﴾ [الأنفال :٤٥، ٤٦].

فعصوا الله ورسولَه ، وتنازعوا يوْمَ أُحدٍ ، ففشَلوا فذهب ريحُهم ، وتمكَّن منهم عدوُّهم.

قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران :١٥٢].

وكان من خبرهم أنَّ النبيَّ ﷺ عيّن يومَ أُحُدٍ فريقًا من الرُّماةِ للحراسة ، وجعل عليهم أميرًا ، وأمرهم أن يصْعَدُوا الجبلَ ليحْمُوا ظهورَ المجاهدين ، لا يأتيهم العدوُّ مِنْ خلفهم ، وأمرهم أن لا ينْزِلوا مهما كانت النتيجة.

فلما التقى الجمْعان مكّن الله للمجاهدين من الكافرين، فأعملوا فيهم السُّيوفَ وأثْخَنُوا في الأرض، ففرّ العدوُّ هاربا، وتبعهم المسلمون يأسرون من يُدركون ويجمعون الغنائم، فلما رأى الحرَّاس ذلك قالوا مالنا والبقاء بعد ما انتهى القتال وفرّ العدوّ ، وحاول الأميرُ أن يصبّرهم ليثْبُتوا كما أُمِرُوا ، ولكن دون جدوى، فنزلوا، فلما رأى العدوُّ أنَّ الجبَل قد خلا استدار فريقٌ منهم فعلَوُا الجبلَ ، وأخذوا يرمون المسلمين، فكان ما كان وأُصيب المسلمون بالقتل والجراحات ، وكان ذلك كلّه بسبب الاختلاف والتنازع وعدم التطاوع.

ولذلك وصّى النبيُّ ﷺ معاذًا وأبا موسى حين بعثهما إلى اليمن قائلا : « **وَتَطَاوَعَا ولاَ تَخْتَلِفا** » ، فإنَّ الاختلاف عمومًا مذموم ، واختلافُ الدُّعاة أشدّ ذمًا ، ذلك أنهم

باختلافهم يصدّون النَّاسَ عن الهدى ، ويصرفونهم عن الحق ، لأنَّ النـاس سيقولون : انظروا إلى هؤلاءِ الذين يزْعُمون أنهم يدْعُون النَّاسَ إلى الحقِّ وهم مختلفون ، فلو كانوا على الحقِّ ما اختلفوا عليه.

فعلى الدُّعاة أن يوحّدوا صفَّهم ، ويجتمعوا على كلمتهم ، وإذا اختلفوا في شيءٍ حاولوا القضاء على هذا الاختلاف بردّ الأمر إلى الكتاب والسنَّة ، كما أمر تعالى : ﴿ **فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ** ﴾ [النساء :٥٩]، حتى تجمل صورتُهم ، وتتضح دعوتُهم .

فما أجمل الاتّفاق والتَّطاوع ! وما أقبح الاختلاف والفرقة !.



الحث على الاجتماع والنهي عن التفرق

عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الخُشَنِيِّ قَالَ : كَانَ النَّاسُ إِذَا نَزَلُوا مَنْزِلاً تَفَرَّقُوا فِي الشِّعَابِ وَالأَوْدِيَةِ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « إِنَّ تَفَرُّقَكُمْ فِي هَذِهِ الشِّعَابِ وَالأَوْدِيَةِ إِنَّمَا ذَلِكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ » ، فَلَمْ يَنْزِل بَعْدَ ذَلِكَ مَنْزِلاً إِلاَّ انْضَمَّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ، حَتَّى يُقَالَ لَوْ بُسِطَ عَلَيْهِمْ ثَوْبٌ لَعَمَّهُمْ [1].

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ المَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ المُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الوَقْتِ المَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ المُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر: ٢٦-٤٨] .

---

(١) صحيح : [ص.د : ٢٢٨٨] ، د(٢٦١١/ ٢٩٢/ ٧) .

وهكذا نزل آدمُ إلى الأرض ، وبدأت حياتُه الزَّوجيَّة ، وكثُرتْ منه الذريَّـة، فقـام فيهم مقامَ الأنبياء ، بل كان نبيًّا مكلّمًا [1] ، فعلَّم أبناءه التَّوحيد ، وهو إفرادُ الله بالعبادة ، فقَبِلُوه منه ، وحافظوا عليه ، فوحّـد التَّوحيـدُ بينهم عشْرَةَ قرون ، ظلَّ إبليسُ خلالها يعمـل بجدٍّ لا يعـرف الهـزْل، ونشـاطٍ لا يعـرف الملـل ، عـلى تفرْيـق كلمـتهم وتمْزيـق شمْلِهم ، وتفْتيتِ جمْعهم ، حتى أجابه فريقٌ منهم ، فوقعت الفرقةُ بيهم ، وصـارت الجماعةُ الواحدةُ جماعتيْن ، والحزبُ الواحد حزبيْن ، فأرسل الله تعالى نوحًا عليه السلام إلى الناس ليردّ شاردَهم ، ويهدي ضالّهم ، ويُعيدَ لهم جمْعَهم واتّحادَهم ، قال تعالى : ﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ** ﴾ [البقرة :٢١٣] .

قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما : كان بيْنَ نوح وآدمَ عشْرَةُ قرونٍ ، كلُّهم على شريعةٍ من الحق فاختلفوا فبعثَ الله النَّبيين مبشِّرين ومنذْرين . [2]

ومنذ ذلك التاريخ والصِّراعُ قائمٌ بين أهل التَّوحيد أولياءِ الرَّحمن ، وبين أهل الزَّيْغ والإلحاد والفُرْقةِ ، كلما رأى الشيطانُ من أولياء الرَّحمن اتفاقًا وأُلفَةً عَمِلَ على تفريق جمْعِهم ، وإلقاءِ العداوةِ والبغضاء بينهم .

ولقد بُعث النبيُّ ﷺ والعربُ قبائل متناحرة ، تقوم بينهم لأتْفَهِ الأسبابِ الحروبُ الهالكة ، ولم يكن بين قبيلتيْن من العداوة والبغضاءِ مثْلُ ما كان بين قبيلتي الأوْسِ والخزْرج ، فلما جاء الإسلامُ شرح الله صدورَهم له ، وحبّب إليهم الإيمانَ بنبيّه ، فاتَّبعوه على ما جاء به من الهدى ودينِ الحق ، فطهَّر الإسلامُ قلوبهم من الغِلِّ ، وواقعَهم من العداوةِ والبغضاء ، ووحّد صفّهم ، وجمع شمْلَهم، وسمّاهم جميعًا

(١) صحيح : [س. ص: ٢٦٦٨] وانظر تخريجه هناك .

(٢) تفسير ابن كثير (١/٢٥٠) .

الأنصار ، أنصارَ الله ورسوله ، وأنصارَ دينه ، وامتنَّ الله على نبيِّه ﷺ بنعمة التأليف بينهم ، فقال : ﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣] .

وامتنَّ على الأنصار أنفُسِهم بهذه النِّعمة فقال : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣] .

وظلّ النبيُّ ﷺ يحرُسُ هذه الوِحْدةَ من التَّفكُّكِ ، وهذا الاتحادَ من الانهيار ، كما ظلّ ﷺ يحارب التَّفرقَ في أدنى صُوَرِه ، في حضَره وسفَره ، في ليلِهِ ونهاره:

يدْخُل يومًا المَسْجِدَ فيراهم حِلَقًا كثيرة ، كلُّ حَلقةٍ في ناحية ، فينهاهم عن ذلك قائلاً : « مَالِي أَرَاكُمْ عِزِينَ ؟! »[١] أي متفرِّقين فِرقًا ، ومتحلّقين حِلقا ، يقول الراوي: كَأَنَّهُ يُحِبُّ الجَمَاعَةَ .[٢]

وذاتَ يوم ينصرفُ من الصَّلاَةَ فيرى رَجُلاً فَرْدًا يُصَلِّي خَلفَ الصَّفِّ وحده، فانتظره حتى انْصَرَفَ من صلاته ، ثم قال له : « اسْتَقْبِل صَلاتَكَ – أي أعدْها – فإنّه لا صَلاةَ لِلَّذِي خَلفَ الصَّفِّ »[٣] لأنه خالف الجماعة وشذَّ عنها .

ومن أجْلِ ذلك أيضًا قال ﷺ : «إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلاةُ فَلاَ صَلاَةَ إِلاَّ المَكْتُوبَةَ»[٤] ؛

---

(١) صحيح : م(٤٣٠/ ٣٢٢/ ١)، د(٤٨٠٢/ ١٧٢/ ١٣) .

(٢) صحيح : [ص. د: ٤٠٣٩]، د(٣س ٤٨٠/ ١٧٢/ ١٣) .

(٣) صحيح : [ص. جه : ٨٢٢]، جه (١٠٠٣/ ٣٢٠/ ١) .

(٤) صحيح : م(٧١٠/ ٤٩٣/ ١)، د(١٢٥٢/ ١٤٢/ ٤)، ت(٤١٩/ ٢٦٤/ ١)، جه(١١٥١/ ٣٦٤/ ١) .

لأنه إذا أُقيمت الصَّلاةُ واجتمع النَّاسُ على الإمام فيها، ثم قام واحدٌ أو أكثرُ يُصلُّون النَّافلةَ فإنَّهم يكونون بذلك مخالفينَ للجماعة.

وفي السَّفر لم يكن ﷺ يغفلُ عن أصحابه، بل كان يُراقِبُهم عن كثَب، ويحرص على اجتماعهم دائما، فكان ينهى أن يسافرَ الرَّجلُ وحده، فيقول: « **لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي الوَحْدَةِ مَا أَعْلَمُ مَا سَارَ رَاكِبٌ بِلَيْلٍ وَحْدَهُ** »[1]، ويقول ﷺ: « **الرَّاكِبُ شَيْطَانٌ وَالرَّاكِبَانِ شَيْطَانَانِ وَالثَّلاثَةُ رَكْبٌ** »[2]، قال الخطَّابي: "معناه أنَّ التفرُّد والذَّهاب وحده في الأرض من فِعْل الشيطان، هو الذي يحمله عليه ويدْعوه إليه، وكذلك الاثنان، فإذا صاروا ثلاثةً فهو رَكْبٌ، قال: والمنفرد في السفر إن مات لم يكن بحَضْرته من يقوم بغُسْله ودَفْنه وتَجْهيزه، ولا عنده من يوصى إليه في ماله، ويحمل تَركتَه إلى أهله، ويُورِدُ خبرَه إليهم، ولا معه في سفره من يُعينه على الحُمولة، فإذا كانوا ثلاثةً تعاونوا وتناوبوا المِهْنَةَ والحِراسَةَ وصلَّوا الجماعة وأحرزوا الحظ منها."[3]

وفي الحديث الذي معنا: كَانَ النَّاسُ إِذَا نَزَلُوا مَنْزِلاً تَفَرَّقُوا فِي الشِّعَابِ وَالأَوْدِيَةِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « **إِنَّ تَفَرُّقَكُمْ فِي هَذِهِ الشِّعَابِ وَالأَوْدِيَةِ إِنَّمَا ذَلِكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ** » أي فاجْتَنبوه، لأنَّ كلَّ ما كان من الشيطان فهو واجبُ الاجتناب، كما قال تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [المائدة: ٩٠].

فالشيطانُ – لعنَه الله – حريصٌ كلَّ الحِرْص على تمْزيقِ شَمْلِ المسلمين وتفْريق

---

(١) صحيح: خ (٢٩٩٨/ ١٣٧/ ٦)، ت(١٧٢٤/ ١١١/ ٣).

(٢) حسن: [ص. د: ٢٢٧١]، د(٢٥٩٠/ ٢٦٦/ ٧)، ت(١٧٢٥/ ١١١/ ٣).

(٣) معالم السنن (٤١٣/ ٣).

جَمْعِهم ، وتفْكيكِ وِحْدَتهم ، وهو - لعنَه الله - يحبُّ من أتباعه شياطينِ الإنسِ والجنِّ من يعمل على التَّفْريق بين الأحبَّة وتمزيق شَمْل الأمة ، كما قال النبي ﷺ : « **إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ : فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا ، فَيَقُولُ : مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، قَالَ ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ : مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ ، قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ فَيَقُولُ : نِعْمَ أَنْتَ** »[1] أي : نِعْم ما صنعتَ من التَّفْريق بيْنَه وبيْنَ امرأته .

ولقد سلك هذا الدَّرْبَ ، وسار على هذا النَّهجِ شياطينُ الإنْسِ اليهودُ كما سمَّاهم الله تعالى ، حيثُ قال في حقِّ المنافقين : ﴿**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ**﴾ أي اليهود ﴿ **قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ** ﴾ [البقرة:١٤].

فاليهودُ - لعنَهم الله - شياطينُ الإنْس ، يعملون عمَلَ شياطينِ الجنِّ من التَّفْريقِ بيْن الأحبَّة ، وتمْزيق شَمْلِ الأمة :

حكى محمد بن إسحاق : أن رجلاً من اليهود مرّ بملأ من الأوْس والخزرج، فساءه ماهم عليه من الاتِّفاق والأُلفة ، فبعث رجلاً معه وأمره أن يجلسَ بينهم ويذْكُرَ لهم ما كان من حَرْبِهم يوْمَ بُعاث وتلك الحروبِ التي كانت بيْنهم في الجاهليَّة قبل الإسلام ، ففعل ، فلم يزل ذلك دأبَه حتى حَمِيَتْ نفوسُ القوم ، وغضب بعضُهم على بعض ، وتشاوروا ، ونـادَوْا بشِعَارهم ، وطلبوا أسْلِحتَهم ، وتواعدُوا إلى الحرّة أي للقتال، فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فأتاهم فجعل يسكنّهم ويقول : أَبِدَعْوَى الجاهليَّةِ وأنا بيْنَ أظْهُرِكم ، وتلا عليهم قولَ الله تعالى: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا** ﴾ [آل عمران: ١٠٣] .

---

(١) صحيح : م(٢٨١٣-٦٧-/٢١٦٧/٤).

فنَدِمُوا على ما كان منهم ، واصْطَلحُوا وتعانَقُوا ، وألقَوُا السلاح. [1]

ومنذ ذلك التَّاريخ واليهودُ كالشَّياطين يعملون جادِّين لتمْزِيق شَمْلِ الأمَّة وتفْتيت وِحْدَتها ، ولم ييأسوا مع قلّتهم وتفرّقهم في البلاد من نَيْلِ ما أرادوا من المسلمين ، حتى حقَّقوا فِعْلاً ما كانوا يحلُمون به من تمْزيق شَمْلِ المسلمين ، وتفْريق جَمْعهم ، وتقْسيم دَوْلَتهم إلى دُويْلاَتٍ متناحرةٍ متباغضة ، فقامت على أثَرِ هذا الاختلافِ والتمزُّقِ دَوْلةُ يهود ، وتجمَّعوا بعد ماكانوا متفرِّقين.

فهل آنَ الأوانُ للمسلمين أن يعْتَصِمُوا بحبْلِ الله جميعًا فيوحِّدوا كلمتَهم، ويجْمَعُوا صفَّهم ، ويكونوا جميعًا يدًا على من عاداهم ؟ ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله وَمَا نَزَلَ مِنْ الحَقِّ** ﴾ [الحديد:١٦] ؟!.

ألم يأنِ للذين آمنوا أن ينْبِذُوا الخلافَ والفُرْقَةَ ويستجيبوا لربّهم حيث دعاهم إلى الاتّحاد الذي هو سبيلُ عزّهم وسَببُ ذُلِّ عدوِّهم ، ونهاهم عن التَّفرُّقِ الذي هو سبيلُ ذلّهم وسبيلُ عدوّهم وسبب سؤددهم ، ولذلك كان شعارهم : فرّق تسد ؟!

ألم يقل الله ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا** ﴾ ؟! [آل عمران:١٠٣] .

ألم يقل ﴿ **وَلاَ تَكُونُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ** ﴾ ؟! [الروم :٣١، ٣٢] .

ألم يقل ﴿ **وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ** ﴾ ؟! [آل عمران:١٠٥ ، ١٠٦] .

---

(١) تفسير ابن كثير (٣٨٩/ ١) .

قال ابنُ عبَّاسٍ : تبيضُّ وجوهُ أهلِ السنَّةِ والجماعة ، وتسودُّ وجوهُ أهلِ البدْعة والفُرْقة .(١)

ولقد رأينا يوم أُحدٍ فضْلَ الاعتصام بحبْلِ الله والاجتماعِ عليه وضرَرَ النِّزاع والخِلافِ والفُرْقة ، إذ بدأت المعركةُ فهبَّت رياح المسلمين ونزل النَّصْرُ فولّى الذين كفروا الأدبار، وتَبِعَهُم المسلمون ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ [الأحزاب :٢٦] بفَضْلِ السَّمْعِ والطَّاعة ولزومِ الجماعة ، فلما اختلف الرُّماةُ وانقسموا على أنفسِهم ، وعصَوْا أمْرَ رسُولهم وأمْرَ أميرِهم ، دالتِ الدَّوْلة ، وكانت الهزيمةُ وأصاب المسلمين الذُّعرُ والرُّعْب، وفي ذلك يقول ربّنا سبحانه مخاطبًا جماعة المسلمين يومئذ :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمْ الله وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَالله ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران :١٥٢].

فاقرءوا القرآنَ يا أُمّة القرآن .. واقرءوا التّاريخ يا أولي الألباب ! واستفيدوا من تجارب الأولين ، فالتّاريخ دائمًا يُعيدُ نفْسَه بيْنِ الحين والحين !! ففي الستّينيّات كانت الفرقةُ والاختلاف ، والعداوةُ والبغضاءُ بيْنَ دُوَيْلاتِ المسلمين ، كلُّ دولةٍ تهجو الأخرى وتلعنها ، فكانتِ الهزيمةُ وضاعَتِ الأرض، واغْتُصِبَتِ المقدَّسات ، وفي السَّبْعينيّات كان الاتّحادُ والاجتماع، والتشاورُ والتّعاون ، فكان نصرُ رمضان أكتوبر ، ذلك النَّصْرُ العظيم الذي كاد أن يُعِيدَ المقدَّسات وكلَّ شبْرٍ من الأرض المغصوبة لوْلا ما سبق في كتاب الله .

(١) تفسير ابن كثير (٣٩٠/ ١).

فهل من دَعْوَةٍ إلى الاجتماع على كلمةِ التَّوحيد، حتى تُوحَّد صفوفنا، وتطهَّر قلوبنا، فينصرنا الله على أعدائنا ؟!

إنَّ الحرْبَ بيْننا وبيْنَ اليهود لن تنتهِيَ ما دام لهم وجود، وما بقيتْ فيهم عيْنٌ تطْرِف، لأنَّهم دُعَاةُ حرْب، وأعداءُ السَّلام وإنْ تشدّقوا به، ولذلك قال ﷺ: « **لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ اليَهُودَ فَيَقْتُلَهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ اليَهُودِيُّ وَرَاءَ الحَجَرِ والشَّجَرَ، فَيَقُولُ الحَجَرُ والشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ الله! هَذَا يَهُودِيٌّ خَلفِي فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ** »[1]، وذلك بعْدَ نزُولِ عيسى عليه السلام من السَّماء، ويومئذٍ تطهرُ الأرْضُ من رِجْسِ يهود وتطهرُ القلُوب من العداوةِ والبغضاء، وتنتهي الخصومةُ والشَّحناء فلا ترى اثنيْن متخاصِمَيْن، ولا بينهما عداوة، بل تنتهي العداوةُ حتى بيْنَ الإنسان والسِباع، فيمرُّ الرجلُ على الأسد فلا يؤذيه، ويلعبُ الصبيُّ بالحيّة فلا تضرّه، فهل جاء موعده ؟ ﴿**قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا**﴾ [الإسراء: ٥١].

وحتى ذلك الحين لابُدَّ من أن نعملَ جادّين على جمْعِ شَمْلنا، وتَوْحيدِ صفِّنا فإنَّ الاتِّحادَ قوَّة، والتَّفرُّق ضَعْفٌ، وإنَّ النَّصر مع الإتحاد، والهزيمةَ مع التفرُّق، ولقد أراد حكيمٌ أن يُلقِّنَ أبناءه درسًا عمليًّا لتقرير هذه الحقيقة، فأحضر لهم حُزْمَةَ حطَبٍ مُجْتَمِعةً، وطلب منهم أن يكْسَرُوها فاستعْصَتْ عليهم، ففرّقها عودًا عودًا ووزَّعها عليهم فكسروها، فقال لهم:

كونوا جميعًا يا بنيّ إذا اعترى	**خطبٌ ولا تفرّقوا آحادا**
تأبى العصيُّ إذا اجتمعن تكسُّرًا	**وإذا افترقْن تكسَّرت آحادا**

---

(١) متفق عليه: خ (٢٩٢٦/ ٣/١٠٣)، م(٢٩٢٢/ ٢٢٣٩/ ٤) واللفظ له.

لذلك فرض الإسلامُ الاتِّحاد، وحرّم التَّفرق، وجعل الرَّحمة من خصائص أهل التَّوحيد والاتِّحاد، والعذابَ من خصائص أهل الفُرْقةِ والإلحاد، قال تعالى : ﴿وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ [هود:١١٨، ١١٩].

لقد بلغ من حِرْصِ الإسلام على اتِّحاد المسلمينَ واجْتماعِهم أن جعل الجماعةَ شَرْطًا في صِحَّةِ العبادات :

فالحجُّ لابدَّ أن يجتمعَ عليه جميعُ المسلمين من مشارق الأرْض ومغاربها، ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ ﴾ [الحج :٢٨] لايجوز الحجُّ ولا يصح في غيرها .

والصِّيامُ يجتمعُ عليه جميعُ المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها ، ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ١٨٣، ١٨٤]، لا يجوز لجماعةٍ من المسلمين أن يُخالِفُوا الجماعةَ الكبْرى والسوادَ الأعْظمَ بصيام غَيْرِ هذه الأيام ، وإن كان يجوزُ للأفْرادِ ذوي الأعذار، ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤] .

والصَّلاةُ فرَضَ الله الجماعةَ فيها ، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [البقرة:٤٣] .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أنَّ الجماعة في الصلاة شَرْطٌ لصحَّتِها ، وإن كان هذا القوْلُ مرجوحًا ، فالرَّاجح أنَّ الجماعةَ واجبةٌ على رجال المسلمين إلاَّ من عذر .

فهل يعي المسلمون هذا ؟ نرجوا الله ...

اللهم اجمعْ شَمْلَ المسلمين ووحِّدْ صفَّهم ، وفرّق جمْعَ اليهود ومزّق شملهم واجعل هذا النفق الذي فتحوه تحت الأقصى مقبرة لهم .

فضل طلب العلم

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الجُهَنِيِّ ﷺ قَالَ : خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ وَنَحْنُ بالصُّفَّةِ فَقَالَ : « **أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ إِلَى بُطْحَانَ أَوِ إِلَى العَقِيقِ فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلاَ قَطِيعَةِ رَحِمٍ** » ؟ فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ الله نُحِبُّ ذَلِكَ. قَالَ : « **أَفَلاَ يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى المَسْجِدِ فَيَتَعَلَّمَ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ الله ﷻ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ وَثَلاَثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلاثٍ وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ** »[1].

هذا حديثٌ عظيمٌ جدًا، أراد به النبيُّ ﷺ التَّرغيبَ في الغَدْوِ إلى طلب العلم، فضرب لهم هذا المثل تقريبًا للفهم :

- « **أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ** » : أي يذهبَ في الغَدْوِ وهو أوَّلُ النَّهار.
- « **إِلَى بُطْحَانَ** » : اسمُ موْقع بقُرْب المدينة.
- « **أَوِ إِلَى العَقِيقِ** » : وهو وادٍ بالمدينة.
- « **فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ** » : الكوْماء : النَّاقةُ العظيمة السِّنام، وهي من خيار مال العرب.
- « **فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلاَ قَطِيعَةِ رَحِمٍ** » : يعني يأخذ هاتيْن النَّاقتيْن حلالاً طيبًا من غير أن يرتكبَ ما يوجب الإثمَ ولا أن يقْطعَ رَحِمًا.

فقالوا : « كُلنا نُحِبُّ ذَلِكَ يَا رَسُولَ الله »، فقال ﷺ : « **أَفَلاَ يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى المَسْجِدِ فَيَتَعَلَّمَ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ الله ﷻ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ وَثَلاَثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلاثٍ وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ** ».

(١) صحيح : م (٨٠٣/ ٥٥٢ و٥٥٣/ ١)، د(١٤٤٣/ ٣٢٨ و٣٢٩/ ٤).

وهكذا أراد ﷺ أن يبيِّن لهم أنَّ الغدْوَ في طلب العلم خيرٌ من الغدْوِ في جمع مالٍ كثيرٍ حلالٍ طيب، وإنما ذكر هذا على سبيل التَّمثيل والتَّقريب، وإلاَّ فمعلومٌ أن آيةً واحدةً من كتاب الله خيرٌ من الدنيا وما فيها، كما قال تعالى: ﴿ **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً** ﴾ [الكهف:٤٦].

وقال عليٌّ رضي الله عنه: العلمُ خيرٌ من المال، العلم يَحْرُسك وأنتَ تحرُس المال، والعلم حاكمٌ والمال محكومٌ عليه، والمال تُنْقِصُه النَّفقةُ والعلم يزكو بالنفقة.

وقال الزبير بن أبي بكر: كتب إليّ أبي بالعراق: عليك بالعلم فإنَّك إنِ افتقرْتَ كان لك مالاً، وإنِ استَغْنيتَ كان لك جمالاً.[1]

وقد دلّ على ذلك كتابُ ربّنا، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالاَ الْحَمْدُ لله الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [النمل:١٥].

فخصّ العِلمُ بالذِّكْرِ مع أنه آتاهما مالاً ومُلكًا، وذكر أنهما قالا: الحمد لله، لاعتقادهما أنَّهما بالعلم فُضّلا على كثير من عباد الله المؤمنين، وهذه الآية كقوله تعالى لنبيِّنا محمَّدٍ ﷺ: ﴿ **وَأَنزَلَ الله عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ عَظِيمًا** ﴾ [النساء:١١٣].

فَحُقَّ على كلِّ مسلمٍ أن يسعى في طلب العلم قدْرَ استطاعته، وأن يَرْحَلَ في طلبه ويركبَ الصِّعاب، فإنَّ الله تعالى قد أمر بذلك فقال: ﴿ **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾ [التوبة:١٢٢].

---

(١) إحياء علوم الدين (٧ و٨/ ١).

فحثَّ سبحانه جماعةَ المسلمين على أن يخرج بعضُهم في طلب العلم حتَّى إذا رجعوا علّموا المقيمين. وسمّى سبحانه الخروج في طلب العلم نفيرًا كالخروج في طلب العدوِّ، فدلَّ على أنَّ السَّفرَ لطلب العلم جهادٌ كالسَّفر لقتال الأعداء.

ولذا قال أبو الدرداء ﷺ : مَنْ رأى الغدْوَ والرَّواحَ في طلب العلم ليس بجهادٍ فقد نقص عقلُه ورأيه.

وقال ابنُ عبَّاسٍ ﷺ : أفضلُ الجهادِ مَنْ بنى مسْجِدًا فعلّم فيه القرآنَ والفِقْهَ والسُّنة.(١)

وقال معاذُ بنُ جبلٍ ﷺ : تعلّموا العلمَ فإنَّ تعلّمَه لله خشية، وطلبَه عبادة، ومدارستَه تسبيح، والبحْثَ عنه جهاد.

وعن عليّ الأزديّ ﷺ قال : أردتُ الجهاد، فقال ابنُ عباس : ألا أدلُّك على ماهو خيْر لك من الجهاد ؟ تأتي مسْجِدًا فتُقْرِئ فيه القرآنَ، وتُعلِّم فيه الفِقْهَ.

ويُؤيد تلكَ الآثارَ قولُ النبيِّ ﷺ : « **مَنْ جَاءَ مَسْجِدِي هَذَا لَمْ يَأْتِهِ إلاَّ لِخَيْرٍ يَتَعَلَّمُهُ أَوْ يُعَلِّمُهُ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ المُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ الله** »(٢).

وقال ﷺ : « **جَاهِدُوا المُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ** »(٣)، ومعلومٌ أنَّ الجهادَ باللسان إنما هو بإقامةِ الحُجَّة عليهم، ودُعائهم إلى الله تعالى، ونحو ذلك، كما قال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ **فَلاَ تُطِعْ الكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ** ﴾ أي بالقرآن وما نزل إليك من الحق

---

(١) الإحياء (١/٩).

(٢) صحيح : جه (٢٢٧/ ٨٢ و ٨٣/ ١).

(٣) صحيح : د (٢٤٨٧/ ١٨٢/ ٧)، نس(٧/ ٦).

﴿ جِهادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان:٥٢]، أي: لا يُخالطُه فتورٌ، بأن تُلزِمَهم بالحُجَجِ والآيات، وتدعوهم إلى النَّظرِ في سائر الآيات، لتُزلزِلَ عقائدَهم.

وجديرٌ بالذِّكر أنَّ العلمَ إنما يفضّل على الجهاد مالم يتعيَّنِ الجهاد، فإذا تعيّن لم يَجُزِ القعودُ عنه بحُجَّة التَّعلم أو التَّعليم.

فيا أيها الشَّابُّ تعلّم، فإنَّ طلبَ العلم فضيلةٌ عظيمة، ومرتَبةٌ شريفة، ولوْ لَمْ يكن في طلب العلم إلا أن تَنْفيَ عن نفسك وصفَ الجهل لكفى، فكيف والله تعالى قد وعد أن يرْفعَ الذين أوتوا العلم درجات، ونفى التّسوية بيْن أهل العلم وغيرهم، كما نفها بين الأعمى والبصير، والظُّلماتِ والنُّور، والظلِّ والحرور، وكما نفاها بين الطَّيبِ والخبيث، وأهلِ الجنَّة وأهْلِ النار.

قال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ ۝ وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ ۝ وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الحَرُورُ ۝ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ ﴾ [فاطر:١٩-٢٢].

وقال تعالى: ﴿ قُل لاَ يَسْتَوِي الخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخَبِيثِ ﴾ [المائدة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿ لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الجَنَّةِ ﴾ [الحشر: ٢٠].

وكذلك قال: ﴿ قُل هَل يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَيَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر:٩].

بل إنَّ الله تعالى جعل النَّاس رجلين: عالمًا وأعمى، فقال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ [الرعد:١٩].

والمراد بالأعْمى الجاهِلُ الَّذي لم يتعلَّم ما أنزل الله على رسولِهِ من الهدى ودين الحق، فهو أعمى، لأنَّ العِلْمَ نور، والجهلَ ظلمة، فالجاهل يتخبَّط في ظلماتِ الجهْل كالأعمى لا يهتدي سبيلاً؛ ولذلك قيل: العالم يعرف الجاهل، والجاهل لا يعرف العالم.

والآياتُ في فضلِ العلم وشَرَفِهِ وشَرَفِ أهله كثيرة:

منها قوله تعالى: ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴿١٠٦﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء:١٠٦-١٠٩].

فأمر الله تعالى النبيَّ ﷺ أن يكْتفِيَ بإيمان أهْلِ العلمِ عن إيمان من سواهم.

وقوله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:١٨].

فاستَشْهد سبحانه بأهلِ العلم على أنَّه لا إله إلا الله.

وأمر نبيّه ﷺ أن يستَشْهِدَ بهم على أنَّ محمدًا رسولُ الله، فقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد: ٤٣].

وأخبر سبحانه أنَّ العلماءَ سيَشْهدون للأنبياءِ على أُممهم يوْمَ القيامة، فقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣].

والخطابُ وإنْ كان للأمَّة إلاَّ أنه من العامِّ المخصوص، لأنَّ الجاهلَ شهادتُه مرْدودة، ولذا قال الإمام البخاريُّ رحمه الله في صحيحه: (باب ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ وما أمر النبيُّ ﷺ بلزوم الجماعة، وهم أهل العلم). ثم روى بسنده عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « يُجَاءُ بِنُوحٍ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ: هَل بَلَّغْتَ ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ. فَتُسْأَلُ أُمَّتُهُ: هَل بَلَّغَكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ: مَا جَاءَنَا مِنْ نَذِيرٍ. فَيَقُولُ: مَنْ شُهُودُكَ ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ. فَيُجَاءُ بِكُمْ فَتَشْهَدُونَ. ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ الله ﷺ: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ - قَالَ عَدْلاً - ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ »[1]

وحسْبُكَ في فَضْلِ العلم أنَّ الله لم يأمُرْ نبيَّه أن يسأله المزيدَ من أيِّ شيءٍ سوى العلم، فقال له: ﴿ وَقُل رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤].

ولذا كان ﷺ يقولُ بعد الانصرافِ من صلاةِ الصُّبْح: « اللهمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا وَعَمَلاً مُتَقَبَّلاً وَرِزْقًا طَيِّبًا »[2].

والأحاديث في فضل العلم كثيرة، منها :

قوله ﷺ: « مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَهَّل الله لَهُ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ وَإِنَّ المَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلمِ رِضَاءً بما يصنع، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الحِيتَانُ فِي المَاءِ، وَفَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، وإِنَّ العُلَماءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا العِلمَ، فَمَنْ أَخَذَه أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ »[3].

---

(١) صحيح : خ (٤٤٨٧/ ١٧١ و ١٧٢/ ٨)، ت(٤٠٤٠/ ٢٧٥/ ٤).

(٢) صحيح : جه (٩٢٥/ ٢٩٨/ ١)، أ(٧٧٦/ ٥٥/ ٤).

(٣) صحيح : د(٣٦٢٤/ ٧٢ – ٧٤/ ١٠)، جه(٢٢٣/ ٨١/ ١)، ت(٢٨٢٣/ ١٥٣/ ٤).

وسلوكُ الطَّريق لالتماس العلم يدخل فيه سلوكُ الطَّريقِ الحقيقيّ وهو المشْيُ بالأقدام إلى مجالس العلماء، ويدخل فيه سلوكُ الطُّرقِ المعنويَّةِ المؤديَةِ إلى حصول العلم، مثل حفظِه ومُدارستِه ومُذَاكرتِه، ومُطالعتِه وكتابتِه والتَّفهم له ونحو ذلك من الطرق المعنويَّة التي يُتوصَّل بها إلى العلم.

وقوله ﷺ: « **سَهّل الله لَهُ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ** » قد يُرادُ بذلك أنَّ الله يسهِّلُ له العلمَ الذي طلبه وسلك طريقَه ويُيسِّرُه عليه، فإنَّ العلم يوصّل إلى الجنّة، وهذا كقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَل مِنْ مُدَّكِرٍ** ﴾ [القمر:١٧].

قال بعضُ السلف: فهل من طالبِ علمٍ فيُعان عليه.

وقد يُراد أن الله ييسّر لطالب العلم الانتفاعَ به والعملَ بمقتضاه فيكون سببًا لهدايته ولدخول الجنّة.

وقد ييسّر الله لطالب العلم علومًا أُخرى فينتفع بها وتكون موصّلة إلى الجنة، كما قيل: مَنْ عمِل بما عَلِم أورثه الله عِلمَ مالم يعلم. وكما قيل: إنَّ من ثواب الحسنةِ الحسنةَ بعدها، وقد دلّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿ **وَيَزِيدُ الله الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى** ﴾ [مريم:٧٦].

وقوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ** ﴾ [محمد:١٧].

ومعنى وضع الملائكة أجنحتها لطالب العلم العطف عليه ورحمته، كما قال تعالى في حق الوالدين: ﴿ **وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ** ﴾ [الإسراء:٢٤]. أي: تواضع.

ويحتمل أن يكون المرادُ أنَّ الملائكةَ إذا رأتْ طالبَ العلم يطلبُه من وجْهه ابتغاءَ مرضاةِ الله فرَشتْ له أجنحتَها في رحلته وحملَتْه عليها فيسْلَم من الإعياء والتَّعب، وتُقرِّب عليه الطريقَ البعيدَة فلا يصيبُه ما يصيبُ المسافِرَ من أنواع الضَّرر، ولعلّ هذا هو السرّ في أن موسى عليه السلام لما خرج في طلب الخَضِر ليتعلَّم منه لم يَعْيَ حتى جاوز مكانه ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾[الكهف:٦٢].

فيا أيها الشابّ ... كن عالمًا أو متعلّمًا، أو مُتَّبِعًا أو مُحبًّا، ولا تكن الخامسَ فتهلك.

كان هذا فضلَ العلم عامَّة، أما القُرْآنُ خاصَّةً فالاشْتِغَالُ به تعلّمًا وتَعْليمًا مِنْ خَيْرِ العَمل، ولذا قال ﷺ : « **خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ** »[1].

وقال ﷺ : « **لاَحَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ الله القُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ وَرَجُلٌ آتَاهُ الله مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُهُ فِي الحَقِّ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ** »[2].

وقال ﷺ : « **إِنَّ الله يَرْفَعُ بِهَذَا الكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ** »[3].

وقال ﷺ : « **مَثَلُ المُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ مَثَلِ الأُتْرُجَّةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ المُؤْمِنِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ القُرْآنَ مَثَلِ التَّمْرَةِ لاَ رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلوٌ** »[4].

وقال ﷺ : « **يُقَالُ لِصَاحِبِ القُرْآنِ اقْرَأْ وَارْقِ وَرَتِّل كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤها** »[5].

---

(١) صحيح : خ (٥٠٢٧/ ٧٤/ ٩)، ت(٣٠٧١/ ٢٤٦/ ٤)، (١٤٣٩/ ٣٢٥/ ٤).

(٢) متفق عليه : خ(٧٥٢٩/ ٥٠٢/ ١٣)، م(٨١٥/ ٥٥٨/ ١)، ت(٢٠٠١/ ٢٢١/ ٣)، جه (٤٢٠٩/ ١٤٠٨/ ٢).

(٣) صحيح : م (٨١٧/ ٥٥٩/ ١)، جه (٢١٨/ ٧٩/ ١).

(٤) متفق عليه : خ (٧٥٦٠/ ٥٣٥/ ١٣)، م(٧٩٧/ ٥٤٩/ ١)، ت(٣٠٢٥/ ٢٢٧/ ٤)، د(٤٨٠٩/ ١٧٨/ ١٣)، نس (١٢٤/ ٨)، جه(٢١٤/ ٧٧/ ١).

(٥) صحيح : ت (٣٠٨١/ ٢٥٠/ ٤)، د(١٤٥١/ ٣٣٨/ ٤).

فعليكم بالقرآن شبابَ الإسلام، تغنّوا به، وقُوموا به آناءَ اللَّيل وآناءَ النَّهـار، فإنَّ القرآنَ هو حبْلُ الله المتين، وهو النُّورُ المبين، والصِّراطُ المستقيم، عصمةٌ لمن تمسّك به، ونجاةٌ لمن اتَّبعه.



فضل أهل الحديث

عَنْ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « **نَضَّرَ الله امْرَءًا سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ، فَإِنَّهُ رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلاَثٌ لاَ يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلبُ مُسْلِمٍ أَبَدًا : إِخْلاَصُ العَمَلِ لله، وَمُنَاصَحَةُ وُلاَةِ الأَمْرِ، وَلُزُومُ الجَمَاعَةِ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ. وَقَالَ: مَنْ كَانَ هَمُّهُ الآخِرَةَ جَمَعَ الله شَمْلَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا نِيَّتُهُ فَرَّقَ الله عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا كُتِبَ لَهُ**»[1].

من المتَّفقِ عليْه عند المسلمين كافةً أنَّ القرآنَ الكريمَ هو مصْدَرُ التَّشريع، لكنَّ القرآنَ فيه المُجْمَلُ والمُبْهَم، والعامُّ والمُطْلق، وكلُّ هذا يحتاج إلى بيان، وقد ذكر الله تعالى في القرآنِ الكريم مَن عليه القيامُ بهذا البيان، فخاطب نبيَّه ﷺ بقوله : ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** ﴾ [النحل: ٤٤]، وفرضَ الله تعالى طاعتَهِ في هذا البيان فقال : ﴿ **وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا** ﴾ [الحشر:٧].

وزيادةً في الاطمئنان لِصَحَّةِ بيانه ﷺ ذكرَ الله تعالى أنَّ هذا البيانَ ليس من عند محمدٍ ﷺ، وإنما هو وحْيٌ أوْحاه الله إليه، وإن لم يكن وَحْيًا صريحًا كالقرآن، فقال تعالى : ﴿ **وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى** ﴾ [النجم:٣، ٤]، وقَرَنَ ما يكون منه ﷺ من البيان بالقرآنِ في التنزيل في أكثرَ من آية، فقال تعالى: ﴿ **وَأَنزَلَ الله عَلَيْكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ** ﴾ [النساء: ١١٣].

---

(١) صحيح : [س. ص: ٤٠٤]، حم (٤٣/ ١٦٤/ ١٦٥/ ١)، مي(٢٣٥/ ٦٥ و٦٦/ ١)، حب (٧٢/ ٤٧). وروى ت، د جملة الدعاء، وزاد جه "ثلاث ..."، ت (٢٧٩٤/ ١٤١/ ١)، د (٣٦٤٣/ ٩٤، ٩٥/ ١٠)، جه (٢٣٠/ ٨٤/ ١).

وقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ الكِتَابِ وَالحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾ [البقرة: ٢٣١].

والحِكْمَةُ: هي السنَّة، بدليل قوله تعالى لنساءِ النبيِّ ﷺ: ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ الله وَالحِكْمَةِ ﴾ [الأحزاب: ٣٤]، ولذا قال النبيُّ ﷺ: « أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ »[1].

وحذّر ﷺ من تَرْكِ السُّنَّةِ بزَعْمِ الاسْتِغْنَاءِ بالقرآن، فقال: « لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الأَمْرُ مِنْ أَمْرِي. مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ: لاَ أَدْرِي، مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ الله اتَّبَعْنَاهُ »[2].

وأنكر ﷺ على مَنْ نَهى عَنِ الكتابة عنه:

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرو ﷺ قَالَ: كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ أُرِيدُ حِفْظَهُ، فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ، وَقَالُوا: تَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ عن رَسُولِ الله ﷺ ورَسُولِ الله ﷺ بَشَرٌ، يَتَكَلَّمُ فِي الغَضَبِ وَالرِّضَا، فَأَمْسَكْتُ عَنِ الكِتَابِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ الله ﷺ، فَأَوْمَأَ بِأُصْبُعِهِ إِلَى فِيهِ، وَقَالَ: « اكْتُبْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلاَّ حَقٌّ »[3].

ومن هنا يُعلم أنَّ القرآن بحاجةٍ إلى السنَّة، فيلزم لِحفْظِه حِفْظُها، وعليه فإنَّ قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] يشمل القرآنَ والسنَّةَ معًا، لأنَّ السنَّةَ هي المبيِّنةُ للقرآن، فلابدَّ لحفظِه من حفظها.

---

(١) صحيح: [ص. د: ٣٨٤٨]، د(٤٥٨٠/ ٣٥٤-٣٥٦/ ١٢).

(٢) صحيح: [ص. د: ٣٨٤٩]، د (١١/ ٤٥/ ٣٥٦ و ٣٥٧/ ١٢)، ت(٢٨٠٠/ ١٤٤/ ٤)، جه (١٣/ ٦ و ٧/ ١).

(٣) صحيح: [ص. د: ٣٠٩٩]، د(٣٦٢٩/ ٧٩/ ١٠).

وإذا كان حفظُ القرآن يكون بالرِّجالِ الذين يحفظونه عن ظَهْرِ قَلبٍ، فإنَّ حِفْظَ السُّنّةِ كذلك يكونُ بالرِّجال الذين يسهرون على حِفْظها، وتمْييزَ صحيحِها من سَقِيمها.

ولاشك أنَّ هذا عملٌ عظيم، يَعْظُمُ الرِّجَالُ القائمون عليه بعظمته، وينالون من بركته، وكفاهم شرفًا وفضلاً دعاءُ النبيِّ ﷺ لهم ببَياضِ وجْههم ونُضْرَته، حيثُ قال: « **نَضَّرَ الله امْرَءًا سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ، فَإِنَّهُ رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ** ».

وإنما خصَّ ﷺ مبلِّغَ الحديث كما سَمِعَهُ بهذا الدعاء لأنه سَعَى في نَضارة العِلم وتجْديد السُّنَّة، فجازاه بالدُّعاء بما يُنَاسِبُ حالَه، وهذا يدلُّ على شرَفِ الحديث وفَضْلِه، ودرَجَةِ طُلاَّبه، حيث خصَّهم ﷺ بدُعاءٍ لم يُشْرِكْ فيه أحدًا من الأمة، ولو لم يكن في طلب الحديثِ وحفْظِه وتبليغِه فائدةٌ سوى أن يستفيدَ بركةَ هذه الدَّعوةِ المباركة لكفى بذلك فائدةً وغُنْمًا، وَجَلَّ في الداريْن حظًّا وقسمًا[1].

ويُشْتَرطُ لنيْل برَكةِ هذه الدَّعوةِ شرطان :

الشرط الأول : حِفْظُ الحديث، كما قال ﷺ : « **سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ** »، وإنَّما اشترط ﷺ ذلك ليخرجَ الإنسانُ من تَبِعَةِ الكذِب عليْه ﷺ ، لأنَّ من بلّغ قبل أن يحْفَظ قد يقع في الكذب على النبيِّ ﷺ ، والنبيُّ ﷺ يقول : « **إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ، فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ** »[2].

---

(١) " تحفة الأحوذي " (٧/٤١٧).

(٢) متفق عليه : خ (١٢٩١/ ١٦٠/ ٣)، م(٤/ ١٠/ ١).

ولذلك يرى مَن يقرأ الأحاديثَ مدى حرصِ الرُّواةِ من الصَّحابة والتابعين ﷺ أجمعين على الحِفظِ والدِّقة في التبليغ، فترى الراويَ يحدّث بالحديث فيعْتَرِضُه الشكُّ في لفظةٍ، هل سَمِعَها أم مُرادِفُها ؟ فيأتي بالأُولى ثُمَّ يقول : أوْ كذا، حتى يبرئ ذمَّته ويحتاط لنفسه.

الشَّرْطُ الثاني : التَّبليغ، كما قال ﷺ : « **فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ** »، فإنَّ المقصودَ الأعظَمَ مِنْ حِفْظِ العلم العملُ به، ومِن العَملِ به تعليمُه مَن لايعلَمُه، وتبليغُه من لم يسْمَعْه، فإنَّ الله أمرَ رسُولَه ﷺ أن يقول : ﴿ **وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَـٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ** ﴾ [الأنعام:١٩] أي : ومَنَ بلَغه ممَّنْ سَمِعَه منِّي فقد أُنذر، وقامَتْ عليه الحُجَّة، ولهذا قال ﷺ : « **بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً** »[١]. وكان يقول لأصحابه : « تَسْمَعُونَ وَيُسْمَعُ مِنْكُمْ، وَيُسْمَعُ مِمَّنْ يَسمعَ مِنْكُمْ »[٢]. وكان يقول : « **خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ** »[٣].

ولقد أمر الله تعالى بتبليغ العلم، ونهى عن كِتْمانه، فقال تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾ [التوبة :١٢٢].

وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ** ﴾ [البقرة :١٥٩].

وقال النبي ﷺ : « **مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلمٍ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ الله بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** »[٤].

---

(١) خ (٣٤٦١/ ٤٩٦/ ٦)، ت(٢٨٠٧/ ١٤٧/ ٤).

(٢) صحيح : [ص. د: ٣١٠٧]، د(٣٦٤٢/ ٩٣/ ١٠) .

(٣) خ (٥٠٢٧/ ٧٤/ ٩)، د(١٤٣٩/ ٣٢٥/ ٤)، ت(٣٠٧١/ ٢٤٦/ ٤) .

(٤) حسن صحيح : [ص. د : ٣١٠٦]، د (٣٦٤٠/ ٩١/ ١٠)، جه (٢٦٤/ ٩٧/ ١)، ت(٢٧٨٧/ ١٣٨/ ٤) .

وقال ﷺ : « مَثَلُ الَّذِي يَتَعَلَّمُ العِلمَ ثُمَّ لاَ يُحَدِّثُ بِهِ كَمَثَلِ الَّذِي يَكْنِزُ الكَنْزَ وَلاَ يُنْفِقُ مِنْهُ »[(١)].

والنَّاظرُ في شباب المسلمين اليوْمَ يراهم طرفيْن ووسَطًا :

فأما الطرَفُ الأول : فشبابٌ حَرَصوا على حِفْظِ الحديث واهتمّوا به، ثُمَّ انشغلوا بحِفْظِه عن تَبْليغِه، فقعدوا يتذاكرُونَ الحديثَ ويتَدارَسُونه، ويُحاوِلُونَ تمييزَ صحيحِه منْ ضَعِيفه، وانْشَغَلُوا بذلك عن تعليم النَّاسِ الحديثَ، وتَبْلِيغهمْ إيَّاه، مع أنَّ النبيَّ ﷺ إنَّما حضّ على حِفْظ الحديث لتبليغه لا لكتمانه، فالحِفْظُ وسيلة، والتَّبْليغُ غاية، ولا يجوز الانشغالُ بالوسيلة عن الغاية، كما قيل : إنما مُدِحَ العلمُ من أجْلِ العَملِ به. ومَثَل العلم كمثَل الشَّجرة، والعمل كالثَّمرة، وعلمٌ لا يُعمل به كشجرةٍ لا ثمرةَ لها. وقيل : العلم يُنادي على العالم : اعمل اعمل اعمل، فإنْ أجابه وإلا ارتحل.

والطرَفُ الثاني : شبابٌ حرَصوا على التَّبليغ واهتمُّوا به، فشغلهم التبليغُ عن حِفْظِ الحديث، ورأوْا أنَّ الانشغالَ بحِفْظِ الحديث يمنعهم من التَّبليغ، فبلَّغوا مِنْ غَيْرِ حِفْظٍ، وعلّموا من غير علم، مع أنَّ النبيَّ ﷺ لم يأمر بالتَّبيلغ إلا مَنْ حَفِظَ : « **نَضَّرَ اللهُ امْرَءًا سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ** ».

وكلا الطَّرَفَيْنِ مذْمُوم، أمَّا الأوَّل فمذمومٌ على كتمانِه العِلمَ وقعودِه عن تَبْليغِه، وقد رأينا ما جاء في القُرْآنِ والسنَّة من التَّحذير من الكتمان.

وأما الثَّاني فمذْمومٌ على أنه تكلّم قبْلَ أن يتعلّم، وعلّم ولما يتعلَم، مع أنَّ الله تعالى أمرَ بالعِلمِ قبْلَ العمل، فقال : ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ** ﴾ [محمد:١٩]،

---

(١) صحيح : [ص.ج : ٥٧١١]، طس (٦٩٣/ ٢٩١/ ١).

فبدأ بالعِلم قَبْلَ العمل، بل إنَّ أوَّل ما نزل من القرآن كان ﴿ اقْرَأْ ﴾ اقرأ لتتعلَّم حتى تبلّغ وتعلِّم.

والوسَطُ المحمود - وهو دائمًا أقلُّ من الطَّرفيْن عددًا وأهلاً - هم الذين يتعلَّمون ويُعلِّمون، هم الذين يحْفَظُون ويبلِّغون، ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمْ الله وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ١٨]، ﴿ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:٥]، فقد علَّمنا الله تعالى أن ندعُوَه في كلِّ ركعةٍ من الصلاة : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة:٦، ٧]، والمغضوبُ عليهم هم اليهود، أوتوا علمًا فكتموه ولم يبلِّغوه، ولم يعْمَلُوا به، فغَضِبَ الله عليهم، والضُّالون هم النَّصارى، بالغوا في العمل بدون علم، حتى وقعوا في البِدْعة، كما قال تعالى : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ [الحديد:٢٧]. والذين أنعم الله عليهم من النَّبيين والصديقين، والشهداءِ والصَّالحين، هم الذين هداهم الله صراطَه المستقيم، فعلّمهم ما لم يكونوا يعلمون، ووفَّقهم للعمل بما يتعلَّمون، كما قال مادحًا يعقوب ﷺ : ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ [يوسف:٦٨]. أي : لذو عمل.

فعلى من تعلّم أن يُعلّم ويُبلِّغ، « فَوَالله لأَنْ يَهْدِيَ الله بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ »[1]. وعلى من أراد أن يُبلّغ أن يتعلّم أوّلاً ويحفظ، حتى لا يَكْذِبَ على الله ورسُولِه، ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى الله كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ الله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

(١) متفق عليه : خ (٣٧٠١/ ٧٠/ ٧)، م(٢٤٠٦/ ١٨٧٢/ ٤)، د(٣٦٤٤/ ٩٥/ ١٠).

ثُمَّ قال ﷺ : « ثَلاَثٌ لاَ يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلبُ مُسْلِمٍ أَبَدًا » أي : لا يكونُ معها في قلبه غِشٌّ ودَغَلٌ ونفاق، ولكن يكون معها الإخلاصُ في ذاتِ الله ﷻ ، وقيل : المعنى أنَّ هذه الخلالَ الثلاثَ تُستَصْلَحُ بها القلوب، فمن تمسّك بها طهُر قلبُه من الدَّغل والخيانة والشر :

أولها : إخلاصُ العمل لله ﷻ : فبه أمَرَ الله الأوَّلين والآخرين، فقال عن الأوَّلين : ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ** ﴾ [البينة :٥]، وقال للآخرين : ﴿ **فَادْعُوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ﴾ [غافر :١٤].

وإنما يُعتد بالعمل ويُثاب عليه العاملُ إذا أَخْلَصَ فيه النِّيَّةَ لله، وقصد به مرضاتَه، وإلاَّ فلا، قال تعالى : ﴿ **لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَل ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ الله فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾

[النساء:١١٤].

ومَنْ فعل مِنْ ذلك شيئًا ولم يحتسب الأجرَ فلا أَجْرَ له، وإنْ كان فعل خيرًا، ومَنْ فعل من ذلك شيئًا ولم يُخْلِصْ فيه النِّيَّة لله فعمله مردودٌ عليه، وهو مأزورٌ لا مأجور، قال تعالى : ﴿**فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ**﴾ [الماعون: ٤-٦].

وقال تعالى : ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَالله لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾

[البقرة:٢٦٤].

فلابُدَّ لكل مسلم إذا عمل عملاً مما يُبْتَغى به وَجْهُ الله أن يُخْلِصَ النِّيَّةَ لله تعالى، فإذا راءى بأعماله الدِّينيَّةِ التي يجب أن تكون لله حَبِطَ عملُه وكُبَّ في النَّار على وجْهِه، كما في الحديث عن النبي ﷺ : « **إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ. وَلَكِنَّكَ قَاتَلتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ. فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ القُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا. قَالَ : فَمَا عَمِلتَ فِيهَا ؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ العِلمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ القُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ. وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ العِلمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ القُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ. فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ الله عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ المَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا. قَالَ : فَمَا عَمِلتَ فِيهَا ؟ قَالَ : مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ. فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلقِيَ فِي النَّارِ** »[1].

ثانيها : مُناصحة وُلاَةِ الأمر، والنبيُّ ﷺ يقول : « **الدِّينُ النَّصِيحَةُ** » قالوا : لِمَنْ يَا رَسُولَ الله، قَالَ : « **لله وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ** »[2] وإنما تتم مناصحةُ وُلاة الأمر بطاعتِهم في المعروف، وإعانتِهم عليه، وتذكيرِهم بلُطْفٍ دون غِلظَةٍ، ودَعْوَةِ الناس إلى طاعتهم.

قال الخطابي رحمه الله : ومن النُّصْحِ لُولاةِ الأمر الصلاةُ وراءهم، والحجَّ معهم، وأداء الصَّدقةِ إليهم، وعدمَ الخروجِ عليهم بالسَّيْف، أو سوءِ عشرة، والدُّعاء لهم بالصلاح والمعافاة.

---

(١) م (١٩٠٥/ ١٥١٣/ ٣)، ن(٢٣ و٢٤/ ٦) .

(٢) م (٥٥/ ٧٤/ ١)، د(٤٩٢٣/ ٢٨٨/ ١٣)، ن(١٥٦/ ٧) .

لذلك كان من عقيدة أهل السنة والجماعة كما ذكره الطحاوي « ولا نرى الخَروجَ على أئمتنا وولاةِ أمورنا وإن جاروا، ولا ندعو عليهم، ولا ننزع يدًا من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله فريضة، مالم يأمروا بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والعافية »[1].

فطاعةُ وُلاةِ الأمر في المعروف طاعةٌ لله ﷻ، وهي من النُّصْح لهم، كما أمر الله ورسولهُ، ودعوةُ الناس لهم والصبر على جَوْرهم إن جاروا، وعدمُ الخروج عليهم، من المناصحة لهم كما أمر الله ورسوله.

ثالثها : مما يُصْلِحُ الله به القلوبَ لزوُم الجماعة، والمراد بالجماعة جماعة المسلمين، الذين اتفقوا على تنصيب خليفةٍ لهم، فمتى اتفق المسلمون أجمعون على تنصيب خليفةٍ لهم لزم كلَّ مسلم أن يلزم جماعة المسلمين، وأن يسمع ويطيع، فإذا بويع لخليفةٍ وانشقَّ منه واحد أو اثنين أو أكثر، فقد خرجوا عن جماعة المسلمين كما قال ﷺ : « **مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ مِنَ فارق الجماعة شِبْرًا فَمَاتَ فَمِيتَتُه جَاهِلِيَّةٌ** »[2].

قال الشافعيُّ رحمه الله : ومعنى لزومِ جماعتِهم : التزامُ ما عليه جماعتُهم من التَّحليل والتَّحريم، والطَّاعة فيها، فمن قال بما تقولُ به جماعةُ المسلمين فقد لَزِمَ جماعتَهم، ومن خالف ما تقوله جماعةُ المسلمين فقد خالف جماعتَهم التي أُمر بلزومها.

ومعنى كلامه رحمه الله أنه ليس للزوم الجماعةِ أمارةٌ إلاَّ اتّباعُ سبيلهم في الطَّاعة، فمن اقتفى أثرَهم وسلك سبيلَهم فهو منهم وإن كان وحده في البريَّة.

(١) الطحاوية . تعليق الألباني (ص) .

(٢) متفق عليه : خ (٧٠٥٣/ ٥/ ١٣)، م (١٨٤٩/ ١٤٧٨/ ٣) .

ومن الجدير بالذِّكْرِ أنَّ هذه الجماعات الموجودةَ على السَّاحةِ اليوْمَ ليست فيها جماعةٌ هي جماعةُ المسلمين التي يجب على المسلمين العملُ من خلالها، ولا يجبُ على أيِّ مسلم أن ينضمَّ إلى أيِّ جماعةٍ منها، ولا يكون معتزلُ هذه الجماعات مفارقًا للجماعة إذا دان لله ورسوله بالطاعة واتبع سبيل المسلمين.

وياليت شعري متى تنسلخ كلُّ جماعةٍ من اسمها التي ارتضته لنفسها ويكتفي المسلمون كلّهم بما سمّاهم الله به المسلمين المؤمنين عبادَ الله، كما وصَّاهم رسولُ الله، فإنَّ كثْرةَ الجماعات فُرْقةٌ، وما زادتهم الفرقةُ إلاَّ ضعفًا، فمتى نفيق من غفلتنا، ونستجيب لربِّنا، حيث قال : ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا** ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال: ﴿ **وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ [آل عمران:١٠٥].

وقوله ﷺ : « **فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ** »: قال ابنُ القيِّم رحمه الله : " هذا مِنْ أحْسَنِ الكلام وأوْجَزِه، وأفْخَمِه معنى، شَبَّه دعوةَ المسلمين بالسُّورِ والسِّياج المُحيطِ بهم، المانِع من دخولِ عدوّهم عليهم، وتلك الدَّعوةُ التي هي دعوة الإسلام وهم داخلونها لما كانت سورًا وسياجًا عليهم أخبر أنَّ مَنْ لَزِمَ جماعة المسلمين أحاطت به تلك الدعوة التي هي دعوة الإسلام كما أحاطت بهم، فالدَّعوة تجمع شملَ الأمة وتلمُّ شَعْثَها وتحيط بها، فمن دخل في جماعتها أحاطت به وشملته "[1].

ثم قالَ رسولُ الله ﷺ : « **مَنْ كَانَ هَمَّهُ الآخِرَةَ جَمَعَ الله شَمْلَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا نِيَّتُهُ فَرَّقَ الله عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا كُتِبَ لَهُ** » :

(١) مفتاح دار السعادة. ص ٧٣ .

إنَّ الله خلق آدم وأسكنه الجنة، ثم أخرجه منها بذنبه لما سبق في قضاء الله وقدَره، وأوعد الله آدمَ أن يردّه وصالحَ ذريته إلى الجنَّة التي أخرجه منها بسبب الذَّنب، وأعلمه من أوَّل ساعةٍ أنزله فيها إلى الأرض أنَّ نزوله مؤقّت وأن إقامته فوق الأرض إلى حين: ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ [الأعراف: ٢٤].

فهذه الدنيا ممرّ، وليست بمستقر، يجب أن نَعْبُرَها ولا يجوز أن نعمِّرها يجب أن نعبرها إلى الآخرة، لأنها معبر إلى الدَّارِ الآخرة، لن تستقر لنا، ولن نستقر لها، لن نخلد فيها ولن تدوم لنا.

ولو كانتِ الدُّنيا تدُوم لواحدٍ لكان رسولُ الله فيها مخلدًا

ولكنَّ الله قال له: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال له: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلدَ أَفَإِيْن مِتَّ فَهُمُ الخَالِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، فمَثَلُ هذه الدنيا كسوقٍ يدخله الناسُ ليشتروا منه ما يحتاجون إليه، فهل رأيت رجلاً دخل السوق وأصرّ على البقاء فيه والعَيْش دون أن يعود إلى أهله، ما رأينا ذلك، وما الدنيا إلا كسوقٍ انتصب ثم انفض، نحن في الدنيا نتزوّد لنرجَع إلى الجنة، فمن انشغل بالدُّنيا عن الآخرة وأقبل عليها، مِنْ أجْلِها يسعى ويكدح، «فَرَّقَ الله عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ»، والمراد بالضَّيْعة ما يملِكُه الإنسان، جعل له هنا رزقًا وهناك رزقًا، يظل يجري وراء لُقْمَةِ العيْش لا يفْتُرُ ولا يستريح، وجعل فَقْرَه بين عيْنَيْه لا يشْبَعُ مهما أكل.

ومَنْ عَلِم أنه إلى الله راجع، وأعدَّ الدنيا سوقًا، وأقبل عليها يجمع منها عملاً صالحًا يبلِّغه رضوانَ الله والجنة، جمع الله له شمله، ووحَّد له مصدَر رزقه، ويسّر له

الأسباب حتى يأتيَه الرِّزقُ من حيث لا يحتسب، وجعل غناه في قلبه، فهو راضٍ دائمًا، قانعٌ دائمًا، مستغنٍ بما آتاه الله من فضله، فقد قال ﷺ: « **لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ** » [1]، وقال ﷺ: « **إِنَّ الرِّزْقَ لَيَطْلُبُ العَبْدَ أَكْثَرَ مِمَّا يَطْلُبُهُ أَجَلُه** » [2].

وقال ﷺ: « **وَلَوْ أَنَّ ابْنَ آدَمَ هَرَبَ مِنَ الرِّزْقِ كَمَا يَهْرُبُ مِنَ الأَجَلِ لأَدْرَكَهُ الرِّزْقُ كَمَا يُدْرِكُهُ الأَجَلُ** » [3].

فاتَّقوا الله وأجْمِلُوا في الطلب، لا تنْشَغِلُوا بالدُّنيا عن الآخرة، إنَّكم ستَتْركونَ الدُّنيا كلَّها، ولن يخْرُجَ أحدٌ منكم بشيء أبدًا.

قال ﷺ: « **يَتْبَعُ المَيِّتَ ثَلاثَةٌ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى وَاحِدٌ يَرْجِعُ الأَهْلُ وَالمَالُ وَيَبْقَى العَمَلُ** » [4].

قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ** ﴾ [الأنعام: ٩٤].

فإذا علِمْتَ أنَّ المالَ لا يُغْنِي عنْكَ مِنَ الله شيئًا، ولن يُقرِّبَك من الله زلفى، فلماذا التَّكالُب على المال ؟ لماذا هذا الحِرْصُ عليه والطمعُ فيه حتى انشغل النَّاسُ بجمع المال عن الآخرة، ونَسَوْا بسببه ذِكْرَ الله.

(١) متفق عليه: خ(٦٤٤٦/ ٢٧١/ ١١)، م (١٠٥١/ ٦٧٢/ ٢)، ت(٢٤٧٩/ ١٥/ ٤)، جه(٤١٣٧/ ١٣٨٦/ ٢).

(٢) حسن: [ص. ج: ١٦٢٦].

(٣) حسن: [ص. ج: ٥١١٦]، وقال الألباني في " الصحيحة " (٩٥٢): رواه أبونعيم في "الحلية" (٩٠١٧، ٧/ ٢٤٦)، وابن عساكر (٢/ ١١/ ١).

(٤) متفق عليه: خ (٦٥١٤/ ٣٦٢/ ١١)، م(٢٩٦٠/ ٢٢٧٣)، ت(٢٤٨٥/ ١٧ و ١٨/ ٤).

يقولون : اعْمَل لدُنْيَاكَ كأنَّك تعيشُ أبدًا، لكنَّ هذه الكلمةَ الحكيمةَ التي قالها عمرُو بن العاص نصفٌ، والنِّصْفُ الثاني : واعمل لآخرتِكَ كأنَّك تموت غدًا، لكنَّ الناس حَفِظُوا النِّصْفَ الأوَّل ونَسَوْا النِّصْفَ الثاني، فالكلُّ يقولون : اعمل لدُنْياكَ كأنك تعيشُ أبدًا، وينْسِبُون ذلكَ لرسُولِ الله ﷺ ولا يَصِحُّ، ليس هذا حديثًا إنما هو كلامُ عمرِو بن العاص، كلمةُ حكمةٍ قالها.

النَّاسُ كلُّهم اليوْمَ يعملون لدُنياهم كأنَّهم يعيشون أبدًا، وقلَّ أن نرى أحدًا يعمل لآخرتِه كأنه يموتُ غدًا، مع أنَّ القائل قال :

تزوَّدْ من التقوى فإنَّك لا تدري	إذا جنَّ ليلٌ هل تعيش إلى الفجرِ
فكم من فتىً أمسى وأصبحَ ضاحكًا	وقد نُسِجَتْ أكفانُه وهو لا يدري
وكم من صغار يُرتَجى طولُ عُمرهم	وقد أُدخلتْ أجسادُهم ظُلمةَ القبرِ
وكم من عروسٍ زيَّنوها لزَوْجِها	وقد قُبِضَتْ أرواحُهم ليلةَ القدرِ
وكم من صحيحٍ ماتَ من غيرِ عِلَّةٍ	وكم من عليلٍ عاش حينًا من الدهر

قبض العلماء

عَنْ عَبدِ الله بنِ عَمرِو بنِ العاصِ ﵄ قَالَ : سمِعْتُ رَسولَ الله ﷺ يَقولُ : « **إنَّ الله لاَ يَقْبِضُ العِلمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلمَ بِقَبْضِ العُلَماءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالاً، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا** »(1).

كان الناس في جاهليَّة وشرّ، يعبدون الأصنام، ويأكلون الميتة، ويشربون الخمر، ويسيئون الجوار، ويقطعون الأرحام، فأراد الله تبارك وتعالى أن يرحَمهم، فاصطفى لرسالته أبرَّهم وأتقاهم محمدًا ﷺ، فعلَّمه مما يشاء وأمره بتعليمه، وامتنَّ عليه بما علَّمه في أكثر من آية، فقال تعالى : ﴿ **وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى** ﴾ [الضحى:٧]، أي : وجدك لا تدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ فعلَّمك مالم تكن تعلم، ووفَّقك لأحسن الأعمال، وهداك لأحسن الأخلاق.

وقال تعالى : ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا القُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ** ﴾ [يوسف:٣]. أي : وإن كنتَ من قبلِ أن نوحيه إليك لمن الغافلين عنه لا تعلمه ولا شيئًا منه.

وقال تعالى : ﴿ **وَأَنزَلَ الله عَلَيْكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ عَظِيمًا** ﴾ [النساء :١١٣]، وأمر الله تعالى رسولَه ﷺ أن يستزيدَه من هذا العلم الذي علَّمه، فقال له : ﴿ **وَقُل رَبِّ زِدْنِي عِلمًا** ﴾ [طه:١١٤]

---

(١) متفق عليه : خ(١٠٠/ ٩٤/ ١)، م(٢٦٧٣/ ٢٠٥٨/ ٤)، ت(١٧٩٠/ ١٣٩/ ٤)، جه(٥٢/ ٢٠/ ١).

وكما امتنَّ تبارك وتعالى على رسولهِ بما علّمه امتنَّ على الأُمِّيين أيضًا بما علّمهُمُ النبيُّ الأمين ﷺ، فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وأمرهم بشكر هذه النِّعمة فقال سبحانه: ﴿ كَمَا أَرْسَلنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمْ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢].

وحَضَّهم سبحانه وتعالى على طلب العلم، والحِرْصِ عليه، والسَّفَرِ من أجله، فقال ﷻ: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وحَضَّهم سبحانه وتعالى على الحِرْصِ على العلم، وتعلُّمه وتعليمه بأساليبَ متنوِّعةٍ، فأخبر سبحانه وتعالى أنه يرفع العالمين فوقَ عامَّة المؤمنين، فقال ﷻ: ﴿ يَرْفَعْ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: ١١].

ونفى سبحانه وتعالى التَّسْوِيةَ بين العالمين والجاهلين، فقال ﷻ: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩]، وجعل سبحانه وتعالى الجاهلَ أعمى، فقال ﷻ: ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ [الرعد: ١٩].

ذلك أنَّ العلمَ نور، وهي حكمةٌ مشهورة، فإذا كان العلمُ نورًا فإنَّ الجهلَ ظلمة، فالمتعلِّم يسعى في نور العلم، والجاهلُ يتخبَّط في ظلمات الجهل، فهو كالأعمى لا يهتدي سبيلاً.

واستشهد الله سبحانه وتعالى بالعلماءِ على وحدانيته، فقال ﷻ: ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُوا العِلمِ قَائِمًا بِالقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ [آل عمران :١٨].

وأمر رسولَه ﷺ أن يستشهد بالعلماءِ على رسالته، فقال ﷻ: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُل كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلمُ الكِتَابِ ﴾ [الرعد :٤٣].

وأخبر سبحانه وتعالى أنَّ الأنبياءَ يوْمَ القيامة يستَشْهدُونَ بالعلماء من أُمَّةِ محمَّدٍ ﷺ على أُمَمِهم فقال سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة :١٤٣].

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه عَنْ النبي ﷺ قَالَ : « يُجَاءُ بِنُوحٍ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ: هَل بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ يَا رَبِّ ! فَتُسْأَلُ أُمَّتُهُ : هَل بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ : مَا جَاءَنَا مِنْ بشير ولا نَذِيرٍ. فَيَقُولُ : مَنْ شُهُودُكَ ؟ فَيَقُولُ : مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ. فَيُجَاءُ بِكُمْ فَتَشْهَدُونَ. ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ »[1].

وعلى هذه الآية بوّب الإمامُ البُخَاريُّ رحمه الله في " صحيحه " في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة فقال " باب ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ وما أمر به النبيُّ ﷺ من لزوم الجماعة، وهم أهل العلم "[2] ثم خرّج هذا الحديثَ حديثَ أبي سعيد الخدري.

فالعلماءُ هم أصحابُ القوْلِ الفصل في الدُّنيا وفي الآخرة، أما في الدُّنيا فقد قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل:٤٣].

---

(١) خ (٧٣٤٩/٣١٦/١٣)، ت(٤٠٤٠/٢٧٥/٤).

(٢) فتح الباري (٣١٦/١٣).

وما أَمرَ بسؤالهم إلا ليَفْصِلَ بيْنَ النَّاس بقوْلهم، وكذلك هم أصحابُ القوْلِ الفَصْلِ في الآخرة، قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ الله إِلَى يَوْمِ البَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ البَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٥٥، ٥٦].

والآياتُ في كتابِ الله ﷻ في فضلِ العلم وشَرفِهِ وشَرَفِ أَهْلِه كثيرةٌ وكثيرة، والأحاديثُ عن النبيِّ ﷺ أَكْثَرُ وأكثر، منها :

قوله ﷺ : « طَلَبُ العِلمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ » [١].

وقوله ﷺ : « مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ » [٢].

وقوله ﷺ : « لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ الله الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا، ورَجُلٌ آتَاهُ الله مَالاً فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ » [٣].

وقوله ﷺ : « الدُّنْيَا مَلعُونَةٌ، مَلعُونٌ مَا فِيهَا، إِلاَّ ذِكْرَ الله وَمَا وَالاَهُ، أَوْ عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا » [٤].

وقوله ﷺ : « وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الله يَتْلُونَ كِتَابَ الله وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ المَلاَئِكَةُ وَذَكَرَهُمُ الله فِيمَنْ عِنْدَهُ » [٥].

---

(١) صحيح : [ص.ج : ٣٨٠٩]، " جامع بيان العلم وفضله " (٧/ ١).

(٢) متفق عليه : خ (٣١١٦/ ٢١٧/ ٦)، م(١٠٣٧/ ٧١٨/ ٢)، جه(٢٢٠/ ٨٠/ ١).

(٣) متفق عليه : خ(٧٣/ ١٦٥/ ١)، م(٨١٦/ ٥٥١/ ١)، جه(٤٢٠٨/ ١٤٠٧/ ٢).

(٤) حسن : [ص.جه ٣٣٢]، ت(٢٤٢٤/ ٣٨٤/ ٣)، جه(٤١١٢/ ١٣٧٧/ ٢).

(٥) م (٢٦٩٩/ ٢٠٧٤/ ٤)، ت(٤٠١٥/ ٢٦٥/ ٤)، جه(٢٢٥/ ٨٢/ ١).

قوله ﷺ : « مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلمًا سَهّل الله لَهُ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ وَإِنَّ المَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلمِ رِضَاءً بما يصنع، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الحِيتَانُ فِي المَاءِ، وَفَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، وإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا العِلمَ، فَمَنْ أَخَذَ به فقد أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ »[1].

وقد بانَ وظهرَ منْ هذه النُّصوصِ أنَّ العلمَ الشَّرْعِيَّ ليس له مصدرٌ إلا الكتابُ والسنَّة، وعلى هذا اتفقت كلمةُ الأئمة، فقال الإمامُ الشَّافعِيُّ ﷺ :

كُلُّ العُلومِ سِوَى القُرْآنِ مَشْغَلَةٌ ... إلاَّ الحديثَ وإلاَّ الفِقْهَ فِي الدِّين

العِلمُ ما كَانَ فيه قَالَ حدَّثنا ... وما سِوَى ذاك وِسْوَاسُ الشَّياطين[2]

وقال الإمام أحمدُ ﷺ :

دينُ النبيِّ مُحَمَّدٍ أخبارُ ... نِعْمَ المطيَّةُ للفتى الآثارُ

لا ترغبنّ عن الحديثِ وأهْلِهِ ... فالرَّأْيُ لَيْلٌ والحديثُ نهارُ

ولربَّما جَهِلَ الفتى أثرَ الهُدَى ... والشَّمْسُ بازغَةٌ لها أنوارُ[3]

وقال الإمامُ ابنُ القيِّم ﷺ :

العِلمُ قَالَ الله قَالَ رسولُه ... قَالَ الصَّحابَةُ ليْسَ بالتَّمْويهِ

مَا العِلمُ نَصْبَكَ لِلخِلاَفِ سَفَاهَةً ... بَيْنَ الحَدِيثِ وبَيْنَ رَأْيِ فَقيهِ

---

(١) صحيح : [ص. د: ٣٠٩٦]، د(٣٦٢٤/ ٣/ ٧٢ - ٧٤/ ١٠)، ت(٢٨٢٣/ ١٥٣/ ٤)، جه(٢٢٣/ ٨١/ ١).

(٢) شرح الطحاوية : ٧٢ .

(٣) جامع بيان العلم وفضله (٣٥/ ٢).

وعلى ذلك رتَّب الإمامُ البخاريُّ كتابَه الصحيح، المعروف بـ " صحيح البخاري "، فاستَفْتَحه بكتابِ الوَحْي، وثنىَّ بكتاب الإيمان، وثلَّث بكتاب العلم، وكأنه رحمه الله يريدُ أن يقولَ : إنَّ العِلمَ هو وسيلةُ الإيمان، وإنَّ العِلمَ مَصْدَرُهُ الأساسيُّ الوَحْيُ بشِقَّيه القُرْآنِ والسنَّة.

ولابُدَّ لهذا العلم الشَّرْعِيِّ من مُعلِّم فإنه هكذا إلينا وصل، فقد تعلَّمه النبيُّ ﷺ عن جبريلَ عن ربِّ العالمين، ثم علَّمه النبيُّ ﷺ الصَّحابةَ، وعلَّمه الصحابةُ التابعين، وهكذا حتى وصل إلينا، فلابُدَّ للعِلم الشَّرْعِيِّ من مُعلِّم، ولكن ليس كلُّ عالمٍ يصْلُح أن يكون مُعلِّمًا، وإنما يؤخذ العلم عن أهله المتحقِّقين به.

وللعالم المتحقِّق بالعلم أماراتٌ وعلاماتٌ يُعرف بها [1] منها : أن يكون قد أخذ هذا العلمَ عن العلماء المتحقِّقين به، حتى يوافق فعلُه قولَه، فإن خالف فعلُه قولَه فليس أهلاً لأن يؤخذ عنه العلم. وهؤلاء هم العلماء الربَّانيُّون الذين عناهم الله تعالى بقوله : ﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران:٧٩].

والعالم الرَّبانيُّ هو الذي تعلَّم العلم، وعَمِل به في نفسه، وعلَّمه غيرَه فمن تعلّم وعَمِلَ وعلَّم، فذلكم العالم الرَّباني الذي يُدعى في ملكوت السموات عظيمًا.

هؤلاء العلماء الربانيُّون حياتُهم أمنةٌ للناس، وخيرٌ وبركة، وُجُودُهم رحْمَةٌ لجميع الناس، ولذلك وصّانا النبيُّ ﷺ باغتنام حياة هؤلاء العلماء، وأَخْذِ العلم عنهم قبل أن يموتوا، فقال ﷺ : « **إِنَّ الله لاَ يَقْبِضُ العِلمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ** ».

---

(١) " الموافقات " للشاطبي (٩٣ و ١/٩٤).

فأشار النبيُّ ﷺ إلى ضرورة اغتنام فُرْصَةِ حياة الرَّبانيِّين، والحِرْصِ على مجالستهم، وأَخْذِ العلم عنهم، فإنَّ العالمَ إذا مات بعد أن أُخِذَ العلمُ عنه فما مات العالم ولا مات العلم، أما إذا زَهِدَ الناسُ في عُلمائهم، وأعرضوا عنهم، وانشغلوا عن العلم بدنياهم فمات العلماء واحدًا بعد الآخر، مات العلمُ بموت هؤلاء العلماء ولابد.

ولا يزال الناس تقع فيهم الوقائع، وتحدثُ بينهم الأحداث التي تحتاج إلى بيان حكم الشرع فيها فيضطر النَّاسُ إلى السؤال ليعرفوا حُكْمَ الشَّرْعِ في هذه الواقعة، أو هذه النازلة، أو تلك الحادثة، فلا يجدون إلا الجُهّال فيسألونهم، فيفتونهم برأيهم، الذي لا أساس له من الكتاب ولا من السنة فَيَضِلُّون في أنفسهم، ويُضِلُّون الناس بفتواهم، وبذلك صرَّح النبيُّ ﷺ حيث قال في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص في رواية أخرى : « **إِنَّ الله لا يَنْزِعُ العِلمَ بَعْدَ أَنْ أَعْطَاكُمُوهُ وَلَكِنْ يَنْتَزِعُهُ مِنْهُمْ مَعَ قَبْضِ العُلَمَاءِ بِعِلمِهِمْ فَيَبْقَى نَاسٌ جُهَّالٌ يُسْتَفْتَوْنَ فَيُفْتُونَ بِرَأْيِهِمْ فَيُضِلُّونَ وَيَضِلُّونَ** »[1] وذلك حين يهلك الناس؛ ولذلك جعل النبيُّ ﷺ ذهابَ العلِم الشَّرْعِيِّ أمارةً من أمارات قُرْبِ الساعة، وعلامةً من علاماتها، المؤْذِنَةِ بفناء الدنيا وذَهابِها، وهلاكِ أهلها، فقال ﷺ : « **إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ العِلمُ، وَيَظْهَرَ الجَهْلُ، وَيَفْشُوَ الزِّنَا، وَيُشْرَبَ الخَمْرُ، وَيَذْهَبَ الرِّجَالُ وَيَبْقَى النِّسَاءُ، حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةً القيم الوَاحِدُ** »[2].

وقد قيل لسعيد بنِ جُبَيْر : ما علامةُ هلاكِ النَّاس؟ قال : إذا هلك عُلماؤهم.

وقال بعض السلف : لا يزال الناس بخيرٍ ما بقي الأَوَّلُ حتى يتعلّم الآخِرُ، فإذا هلك الأَوَّلُ ولم يتعلَّم الآخِرُ فقد هلك الناسُ جميعًا.

---

(١) خ (٢٣٠٧/ ٢٨٢/ ١٣).

(٢) متفق عليه : خ (٨٠و ٨١/ ١٧٨/ ١)، م(٢٦٧١/ ٢٠٥٦/ ٤)، ن(٢٣٠١/ ٣٣٣/ ٣)، جه (٤٠٤٥/ ١٣٤٣/ ٢).

ومن طرق التعليم أخذُ العِلم من الكتب، وهذه الطريقةُ نافِعَةٌ بشروط:

الشرط الأول :

أن يكون الذي أراد أن يأخذ العلم من الكتب قد رافق العلماءَ ولازمهم مُدَّة من الزمن، وأخذ منهم مفاتيحَ الكتب، فقد قالوا : كان العلمُ في صدور الرجال، ثم انتقل منها إلى الكتب، وبقيت مفاتحه بأيدي الرجال، فمن أخذ المفاتيح من العلماء بارك الله له في علمه وفتح عليه وإلاَّ فلا.

ولذلك ضَلَّ كثيرٌ من الشباب بزعمهم الاستغناءَ عن العلماء وإقبالِهم على الكتب لأخذِ العلم منها، واستنباطِ الأحكام من نصوصها، وقولِهم نحنُ رجالٌ وهم رجال، فأقبلوا على الكتب دون رجوعٍ إلى العلماء وقرأوا النصوصَ ووقفوا عند ظواهرها، فكفَّروا آباءهم وأمهاتهم، وحُكَّامَهم وأُمراءَهم والنَّاسَ أجمعين، فكانوا أحقَّ بها وأهلَها، ذلك أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « **أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لأَخِيهِ يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ وَإِلاَّ رَجَعَتْ عَلَيْهِ** »[1].

فيا شباب الإسلام ... العلماءَ العلماءَ الزموهم، واتَّصلوا بهم، وجالسوهم، فإنَّ مجالستهم خيرٌ وبركةٌ ورحمة، تلك وصيَّةُ لقمانَ الحكيمِ لابنه : قال : " يابني ! جالس العلماء، وزاحمهم بركبَتيكْ، فإنَّ الله يُحيي القلوبَ الميتة بالحكمة كما يُحيي الأرض الميتة بوابل السماء "[2].

يا شباب الإسلام ... لا غنى لكم عن علماء الأمة أبدًا، فاعرفوا لعلماء الأمة قدْرَهم، وأنْزِلُوهم منازِلَهم، وأجلّوهم واحترموهم.

---

(١) متفق عليه : خ (٦١٠٤/ ٥١٤/ ١٠)، م(٦٠/ ٧٩/ ١)، ت(٢٧٧٤/ ١٣٢/ ٤)، وجملة « إن كان ... إلخ » لمسلم وحده.

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١٠٦/ ١).

قال النبي ﷺ : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ »[1].

فاعرفوا لعلمائكم حقَّهم، واقدروهم قدرهم، واحترموهم، واعلموا أنكم مهما أوتيتم من العلم فلا غنى لكم عن أكابر العلماء، ولا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن الأكابر، فإذا أخذوا العلم عن الأصاغر هلكوا[2].

الشرط الثاني :

أن يعتمدَ على كتُبِ المتقدِّمين وتابعيهم من العلماء الربَّانين، فإنَّ علم السابقين أفضلُ بكثيرٍ من علم المتأخِّرين، ولا خيرَ في علم المتأخرين إلا إذا أخذوا العلمَ من علوم المتقدِّمين، فتقع الخيريَّةُ لعلم المتأخِّرين لا بالأصالة، ولكن لكوْنهم متَّصلِين بعلم المتقدِّمين.

فالصحابةُ رضوانُ الله عليهم قد تحقَّقوا بالعلم أكْثَرَ من التابعين، وتحقَّق التابعون بالعلم أكْثَرَ من تابعيهم، وهكذا، وكلما بَعُدَ العهدُ، وطال الزمانُ وبعُدت المسافةُ بين النبيِّ ﷺ ومَنْ بعده قلَّ الخيرُ وقلَّ العلم.

ولذلك قال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه : ليس عامٌ إلاَّ والذي بعده شرٌ منه، أما إني لا أقول عامٌ أمطرُ من عام، ولا عامٌ أخصبُ من عام، ولا أميرٌ خيرٌ من أمير، ولكن يموتُ العلماء، ويذهبُ العلم، فيتَّخِذَ الناس رؤوسًا جهالاً يفتون بالرأي فيَضِلُّون ويُضِلُّون.

فيا شباب الإسلام... إياكم وما يقال لكم : عليكم بكتُبِ العصر، عليكم بكتُبِ الثَّقافة، نريد أن نفهمَ الإسلامَ فهمًا معاصرًا، نريد أن نُتَرْجِمَ الإسلامَ والنُّصوص

(١) حسن : [ص.ج : ٥٣١٩]، حم (٦/ ١٤٧/ ١)، ك(١٢٢/ ١).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١٥٩/ ١).

إلى واقعنا المعاصر، إنها شُبَهٌ دسيسةٌ روّجت لكم، والقصْدُ منها أن تُصْرَفُوا عن الكتاب والسنة اللَّذيْن هما مصدرُ العلم، وأساس السعادة في الدنيا والآخرة.

فيا شباب الإسلام... إنَّ هذا العلم دين، فانظروا عمَّن تأخذُون دينكم.

الشرط الثالث :

أن يظلّ الطالبُ على صلةٍ دائمًا بالعلماء، فلن ينفكَّ عن مسألةٍ تخفي عليه أو تُشْكِلَ عليه، أو مسألةٍ يجهلها ولا يعرف الوصولَ إلى حكمها، فلابُدَّ له من أن يكون دائمَ الصِّلَةِ بالعلماء الربَّانين، يسألُهم فيما خَفِيَ عليه، وما أُشكِلَ عليه، فبذلك يبارك الله له، ويفتحُ عليه، ومن استغنى عن العلماء الربَّانين فقد ضلّ سواء السبيل.

نعوذ بالله من الخذلان ونسأله الهداية والتوفيق



سبيل النجاة

﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر: ١-٣].

هذه هي سورةُ العصر، وهي سورةٌ مكيَّة، وقد تضمنت وعيدًا شديدًا، فإنَّ الله تبارك وتعالى استفتحها بالقَسَم على أنَّ الإنسانَ لفي خُسْر، وبيَّن أنه لا ينجو من هذا الخُسْرانِ إلاَّ من توفَّرت فيه أربعُ صفات: الإيمان، والعمل الصالح، والتَّواصي بالحق، والتَّواصي بالصبر.

فمن توفَّرت فيه هذه الأربعُ الصفات فقد بلغ غايةَ الكمال، ذلك أنَّ غايَة الكمال مترتبةٌ على تكميل الإنسان نفسَه وسعْيِه في تكميل غيره، وتكميلُ نفْسِه يكون بتكميل قوَّتيْه العلميَّة والعمليَّة، وتكميل القوَّةِ العِلميَّة يكونُ بالإيمان، وتكميلُ القوَّة العمليَّة يكون بالعمل الصالح.

فمن آمن بالله وعَمِلَ صالحًا فقد كمَّل نفسه، ولزمه أن يسعى في تكميل غيره، وذلك بالدَّعوة إلى الإيمان والعمل الصالح، ثُمَّ عليه بعد ذلك أن يصبرَ على مشاقِّ ذلك كلِّه، فإن فعل فقد بلغ نهايةَ الكمال.

وقد تضمنت السورةُ الكريمةُ هذا كلّه على الرغم من وجازتها وقلَّة آياتها، مما يدلُّ على أنَّ هذه السورةَ هي أعظمُ سُورة في القرآن، ولذلك كان الإمامُ الشافعيُّ رحمه الله يقول: لو ما أنزل الله على النَّاس غيرَ هذه السورة لكفتهم، ولكنَّ الناس في انشغالٍ عن التفكُّرِ في هذه السورة.[1]

---

(١) روح المعاني (٢٩١/٣٠).

﴿ وَالعَصْرِ ﴾ الواو للقسم، والعصْرُ هو الزَّمن، الزَّمن الذي هو وقتُ رِبْحِ المؤمنين وخَسارةِ الكافرين، فالمؤمنُ يُتاجِرُ مع الله تبارك وتعالى في هذا الزمن تجارةً رابحة، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ الله وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ۝ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠] .

وأما الكافرُ فهو في غفْلةٍ عن هذه التجارة، منغمسٌ في شهواته وملذَّاته، لا يفيق منها إلا في معسكر الموْت، وهنالك ينادي : ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠] ، وهيهات هيهات !! ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ ﴾ [فاطر:٣٧] .

قال الله تعالى : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ العَادِّينَ ۝ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون:١١٢ - ١١٤]، يعني : لو أنَّكم كنتم تعلمون لَمَا آثرتم الفانِيَ على الباقي، ولما تصرَّفتم لأنفسِكم هذا التصرَّف السيِّئ، ولَمَا سَخِطَ الله عليكم في هذه المدَّة اليسيرة القليلة، ولو أنَّكم صبرتم على طاعةِ الله وعبادتِه كما صبر المؤمنون لفزْتُم كما فازوا، ولكنَّكم كنتم لا تعلمون .

وإذا كان من المعلوم أنَّ الإنسان لو دخل السُّوقَ ساعةً واحدةً ثم خرج منها بألف دينار ربْحًا لغبَطه الناس كلُّهم، سبحان الله ! يربح في ساعةٍ واحدةٍ ألفَ دينار !! وإذا دخل آخرُ السُّوقَ ساعةً واحدة فخَسِرَ فيها ألفَ دينار لتحسَّر النَّاسُ كلُّهم عليهم، سبحان الله ! يخسر في ساعةٍ واحدةٍ ألف دينار !! إذا كان ذلك من المعلوم بالضرورة،

فكيف بمن يربح في مدَّةٍ قليلة يسيرة جنَّةً عرضُها السمواتُ والأرض !! وكيف بمن يربح في مدَّةٍ يسيرةٍ قليلة نارًا حاميةً وقودُها الناس والحجارة !!

فالدنيا - يا عبدَ الله - ساعةٌ فاجعلها طاعة، وإيَّاك أن تجْعلها معصيةً فتربح في هذه الساعة القليلة نارًا حامية، فتتحسَّر على نفسك، ويتحسَّر النَّاسُ كلُّهم عليك، ولن تنفَع الحسرات، ولن ينفعَ النَّدم يوْمَ القيامة .

فاغتنم أوقاتَك، واغتنم حياتَك، واعلم أن عُمُرَكَ هو رأسُ مالِكَ في تجارتك مع الله ﷻ ، فكن على عُمرِك حريصًا، وكن بوقتك أبْخَلَ منك بمالك، ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام:٧٠]، واشْغَل نفسَك بطاعةِ الله، فعمَّا قليلٍ تنتهي هذه الساعة، فتطلب المزيدَ ولا تُجابُ إلى طلبك .

أقْسَم الله تعالى بالعصر - وهو الزَّمن - على ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ : الخُسْرُ والخُسْرَانُ واحد، كالكُفْرِ والكُفْرانِ، والله تبارك وتعالى يُقْسِمُ بالعصر على أنَّ الإنسانَ كلَّ الإنسانِ لفي خُسرانٍ مبين، لا ينجو من هذا الخُسرانِ إلا من اتَّصف بأربع صفات، ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين:٦]، فمن توفَّرت فيه هذه الصفات الأربع فاز ونجا من هذا الخُسران، وعلى قَدْرِ نُقْصانِ هذه الصفات كلِّها أو بعْضِها يكونُ خُسرانُ العبْدِ يوْمَ القيامة .

أما الإيمانُ فهو أوَّلُ واجبٍ على المكلف، ووسيلةُ الإيمان هي العلم، والعْلمُ ليس له مصْدَرٌ سوى الكتاب والسنة، وإلى ذلك أشار البخاريُّ رحمه الله في صحيحه، حيث رتَّبه هذا الترتيبَ الحسنَ البديع، فقد استفتَح كتابَه بالوَحْيِ،

ثم الإيمانِ، ثم العِلم، وكأنه ﷺ يريد أن يقولَ : إنَّ أوَّلَ واجبٍ على المكلَّف هو الإيمان، وأنَّ وسيلةَ الإيمان هي العلم، وأنَّ مصدرَ العلم الوحيُ بشقَّيْه : القرآن والسنة "[١].

ومن هنا كان لزامًا على كل مكلَّفٍ أن يسعى جادًا في طلب علم الكتاب والسنَّة، فقد كثر في الكتاب والسنَّة الحثُّ على العلم والترغيب فيه، ومن ذلك إخْبارُ الله تبارك وتعالى أنَّه يرفَعُ العلماءَ فوْقَ درجاتِ المؤمنين، قال تعالى : ﴿ يَرْفَعْ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة:١١].

وقد نفى الله تعالى التَّسْويةَ بين العلماء وغيرهم، فقال ﷻ : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر:٩] .

وجعل الله تبارك وتعالى الجاهلَ بأصول الدين الواجبةِ عليه أعمى، فقال سبحانه : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ [الرعد:١٩] .

وأمر الله ﷻ النبيَّ ﷺ أن يكْتَفِيَ بإيمان العلماءِ عن إيمانِ غيْرِهم، فقال سبحانه : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴿١٠٦﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء:١٠٦-١٠٩] .

وقال سبحانه : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٩] .

(١) العقيدة أولاً : د. ربيع بن هادي .

وقد استشهد الله تبارك وتعالى بالعلماءِ على أنّه لا إله إلا الله، والعظيمُ لا يسْتَشْهِدُ إلا بالعظماء، ولا سيّما في القضايا الخطيرة العظيمة، وليس أخْطَرَ وأعظمَ في القضايا من قضية التوحيد، قال تعالى : ﴿ **شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [آل عمران:١٨]، وأمر نبيَّه ﷺ أن يستشهد بالعلماءِ على أنَّ محمدًا رسولُ الله، فقال تعالى : ﴿ **وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ** ﴾ [الرعد :٤٣] .

وأخبر الله سبحانه أنَّ الأنبياءَ يسْتَشْهِدُونَ يوْمَ القيامة بعُلماءِ هذه الأمة، فقال سبحانه : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ [البقرة :١٤٣] ، وقد فسّر النبيُّ ﷺ هذه الآيةَ فقال : « **يُجَاءُ بِنُوحٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ: هَل بَلَّغْتَ قومك ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ يَا رَبِّ ! فَتُسْأَلُ أُمَّتُهُ: هَل بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا جَاءَنَا مِنْ نَذِيرٍ. فَيُقَالُ لنوح: مَنْ شُهُودُكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ. فَيُجَاءُ بِكُمْ فَتَشْهَدُونَ. ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ الله** ﷺ الآية »[1].

وليس المرادُ بشهادةِ الأمَّةِ شهادةَ جميع أفرادها، ولكنَّ هذا – كما يقول العلماء – من العامِّ المخصوص، والمرادُ به العلماءُ دون غيرهم، لأنَّ الله يقول: ﴿ **إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [الزخرف:٨٦] .

والجاهلُ ليس عالمًا فلا يُستشهد به في أدنى قضية فضلاً عن أخطرها وأعظمها .

ولذلك بوّب الإمامُ البخاريُّ رحمه الله لهذه الآية بابًا في صحيحه، فقال : باب ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا** ﴾ وما أمر النبيُّ ﷺ بلزومِ الجماعة وهم أهل العلم .[2]

(١) خ (٤٤٨٧/ ١٧١ / ٨)، ت(٤٠٤٠/ ٢٧٥/ ٤) .

(٢) باب رقم ١٩ جـ١٣ ص ٣١٦ .

والآيات في الحثِّ على طلب العلم وبيانِ فضْله وشرَفِه وشرَفِ أهله كثيرةٌ وكثيرة، أما الأحاديثُ في ذلك فهي أشْهَرُ من أن تُذْكر، وأكْثرُ من أن تُحْصَر، ومنها قولُ النبيِّ ﷺ : « مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ »[1].

« لاَ حَسَدَ إلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ الله مَالاً فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ وَرَجُلٌ آتَاهُ الله الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا »[2].

« الدُّنْيَا مَلعُونَةٌ مَلعُونٌ مَا فِيهَا إلاَّ ذِكْرُ الله وَمَا وَالاَهُ وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ »[3].

« فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ »[4].

« مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلتَمِسُ فِيهِ عِلمًا سَهَّلَ الله لَهُ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ. وَإِنَّ المَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلمِ رِضًا بما يصنع. وَإِنَّ فَضْلَ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، و إن العالم لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ أهل السَّماوات وأهل الأَرْضِ حَتَّى الحِيتَانِ فِي المَاءِ، وإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا، وإِنَّمَا وَرَّثُوا العِلمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ »[5].

« طَلَبُ العِلمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ »[6].

---

(١) متفق عليه من حديث معاوية : خ (٣١١٦/ ٢١٧/ ٦)، م(١٠٣٧/ ٧١٨/ ٢)، جه(٢٢٠/ ٨٠/ ١)، وأخرجه : ت(٢٧٨٣/ ١٣٧/ ٤) من حديث ابن عباس .

(٢) متفق عليه : خ (٧٣/ ١٦٥/ ١)، م(١١٦/ ٥٥٩/ ١) جه (٤٢٠٨/ ١٤٠٧/ ٢) .

(٣) حسن : [ص. جه: ٣٣٢٠]، جه (٤١١٢/ ١٣٧٧/ ٢)، ت(٢٤٢٤/ ٣٨٤/ ٣) .

(٤) صحيح : [ص. ج: ٤٠٨٩]، ت (٢٨٢٦/ ١٥٤/ ٤) .

(٥) صحيح : [ص. د : ٣٠٩٦]، د(٣٦٢٤/ ٧٢/ ١٠)، ت(٢٨٢٣/ ١٥٣/ ٤)، جه(٢٢٣/ ٨١/ ١) .

(٦) صحيح : [ص. ج :٣٨٠٩]، ابن عبد البر في " العلم " (٧/ ١) .

قال العلماء : العلم قسمان : فَرْضُ عَيْنٍ، وفَرْضُ كِفَاية:

فأمَّا فَرْضُ العيْنِ الذي لا يسع مسلمًا جهلُه فالعلمُ بأصولِ الدِّين، والعِلمُ بأصول الواجباتِ وأصولِ المحرَّمات .

وأمَّا فرْضُ الكفاية الذي هو فَرْضٌ على الأمة كلِّها فما خَفِي ودقّ من المسائل وزاد على ما ذكرناه ، فيجب على الأمة أن يكون فيها علماءُ يعلمون دقيقَ المسائل والخفيَّ منها حتى يعلِّموها من يحتاج إلى علمها، وحتى يجيبوا العوامَّ إذا سألوا عنها، كما قال تعالى: ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ [النحل: ٤٣] .

ومن فروض الكفاية عِلم الطبِّ، وعلم الزِّراعة، وعلم الحساب، ونحو هذه العلوم التي يحتاج إليها المسلمون .

فمن تعلّم لزمه العمل، فإنَّ العمل بالعلم من أسباب النجاة ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾. فمن تعلّم وجب عليه أن يعمل، فإنَّ العلم شجرةٌ والعملَ ثمرة، وإنما مُدِحَ العلمُ لأنهُ يُتوصَّل به إلى العمل، فمن تعلّم ولم يعمل فإنَّ العلم إن لم يضرَّه لم ينفَعْه بل ضررُه ثابت، قال ﷺ :« **لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ** من عند ربه **حَتَّى يُسْأَلَ** عن خمس: **عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ** شبابه **فِيمَ أَبْلاَهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، ومَاذَا عَمِلَ فِيمَاعَلِمَ**»[1].

وقال ﷺ : « **يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ** حولَها **كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ فِي الرَّحَى**، فيأتيه الناس **فَيَقُولُونَ : يَا فُلاَنُ مَالَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ ؟ فَيَقُولُ بَلَى، كُنْتُ آمُرُ بِالمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ** »[2].

---

(١) حسن : [ص.ج : ٧١٧٦] ، ت(٢٥٣١/ ٣٥/ ٤) .

(٢) متفق عليه : خ (٣٢٦٧/ ٣٣١/ ٦) ، م(٢٩٨٩/ ٢٢٩٠/ ٤) .

فاعملوا صالحًا يا أهلَ الإيمان، واعلموا أنَّ النجاةَ متوقفةٌ على الإيمان والعمل الصالح، وإذا هُديتم لذلك فادْعوا إليْه، ادْعوا إلى الإيمان، وادْعوا إلى العمل الصالح، ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، فإنَّ الله تعالى قال: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِالله ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وهذه هي مؤهِّلاتُ التَّفضيل، تفضيلِ الأُمَمِ بعْضِها على بعض، فإنما تُفضَّل الأممُ بعضُها بعضًا بهذه الخصال: الإيمانُ بالله، والعملُ الصالح، والأمرُ بالمعروف، والنَّهْيُ عن المنكر.

وأيُّما أُمَّةٍ تركتِ الأمْرَ بالمعروفِ والنَّهْيَ عن المنكر، رُدّت إلى أسفلِ سافلين، ولذا قال تعالى لبني إسرائيل: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٤٧]، وبعد هذا التفضيل وهذه الرِّفعة نزلوا في الحضيض وردّوا إلى أسفل سافلين بتركهم الأمرَ بالمعروف والنَّهْيَ عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

ولقد جعل الله تعالى الدَّعْوَةَ إلى الخَيْر وظيفَةَ النبيِّ محمدٍ ﷺ وأتباعِه، فقال سبحانه: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى الله عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف: ١٠٨]، ولقد كان النبيُّ ﷺ يرغِّب في الاجتهاد على هذه الوظيفة وأدائها، ويحثُّ على ذلك، فقال ﷺ: « بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً »(١).

(١) خ (٣٤٦١/٤٩٦/٦)، ت (٢٨٠٧/١٤٧/٤).

وقال ﷺ : « مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ »[١]. وقال ﷺ : « مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا »[٢].

ولقد خوّف الله ورسولُه من السكوت على المنكر مع القدرة على تغييره قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ الله شَدِيدُ العِقَابِ ﴾ [الأنفال :٢٥] .

وقال النبيُّ ﷺ : « مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ الله وَالوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فكان بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا بِمَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا : لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فلو تركُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، ولو أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا »[٣].

ولقد صحّح الصِّديقُ أبو بكر رضي الله عنه للناس جميعًا هذا المفهومَ الخاطئَ الذي يترَدَّدُ على ألسنة الكثير : عليْك بنفسك ! لا تُنَادِ في مالطة ! فقال: أيها الناس ! إنكم تقرءون هذه الآية: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٥]. ألا وإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكُوا أَنْ يَعُمَّهُمُ الله بِعِقَابٍ مِنْ عنده »[٤].

فتعلَّموا، واعْمَلُوا، وعلّموا، فمن تعلّم وعَمِلَ وعلّم فذلكم العالِمُ الرّبانِيُّ الذي يُدْعَى في ملكوتِ السَّمواتِ عظيما .

---

(١) م (١٨٩٣/ ١٥٠٦/ ٣)، د(٥١٠٧/ ٣٧/ ١٤)، ت(٢٨١٠/ ١٤٧/ ٤) .

(٢) م (٢٦٧٤/ ٢٠٦٠/ ٤)، ت(٢٨١٤/ ١٤٩/ ٤)، د(٤٥٨٥/ ٣٦٢/ ١٢)، جه(٢٠٦/ ٧٥/ ١) .

(٣) خ (٢٤٩٣/ ١٣٢/ ٥)، ت(٢٢٦٤/ ٣١٨/ ٣) .

(٤) صحيح : [ص. د: ٣٦٤٤]، د(٤٣١٦/ ٤٨٩/ ١١)، ت(٥٠٥٠/ ٣٢٢/ ٤)، جه (٤٠٠٥/ ١٣٢٧/ ٢) .

ثم عليكم بالتَّواصي بالصَّبر : على التعلّم، فإنَّ التعلّم شاق، والتَّواصي بالصبر على العمل، فإنَّ العمل صعب، والتَّواصي بالصَّبْرِ على مشاق التَّعليم والدَّعوةِ والتَّبليغ، فإنَّ من تعرَّض لتعليم الناس ودَعْوَتهم، وأمرِهْم ونَهيهم، لا يسلم من أذاهم، فلابدّ أن يتزوّد الآمرُ بالمعروف، الناهي عن المنكر، بزادٍ عظيمٍ من الصَّبر حتى يستمَّر في دعوته ولا يتراجع عنها .

ولقد كَثُر في القرآنِ الكريم وأحاديثِ النبيِّ العظيم الأمرُ بالصبر والحثُّ عليه والترغيبُ فيه، ذلك لأنَّ الصَّبر من الإيمانِ كالرأسِ من الجسد، وإنما الدِّين نصفان : صَبْرٌ وشُكْر، فالإنسان لا يخلو من نعمةٍ توجب الشُّكرَ، ومحْنَةٍ توجب الصَّبْرَ، وهذا هو الدِّين كلّه، ولذلك قال النبيُّ ﷺ : « **عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ** »[1].

فلابدَّ لكل سائرٍ إلى الله، سالكٍ لطريق الله، مِنْ زاد عظيمٍ من الصبر، حتى يُفْضِيَ به ذلك الزَّادُ العظيمُ إلى النهاية المُفْضِيَةِ إلى دار السلام، وإلاَّ فإنْ قلَّ زادُ المسَافِرِ إلى الله ﷻ ، وإنْ قَلَّ زادُ السالِك لطريق الله ﷻ ، فإنَّه ينقطع زادُه، وتنتهي رحلتُه، ويرتدُّ على أدباره، ولا يُتِمُّ الطريق، ولا يصل إلى نهايته . والناظرُ في أحوالِ الناس يجد من هؤلاء الكثيرين الكثيرين . كثيرٌ ما هم هؤلاء الذين ركبوا الطريقَ وسلكوه، ثم ارتدُّوا على أدبارهم ولم يصلوا إلى النهاية، ذلك أنهم لم يتزودوا بزادٍ عظيم من الصبر .

﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٢٦] .



(١) م(٢٩٩٩/٢٢٩٥/٤).

من أحباب الله
١ - الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر

عَنْ رَجُلٍ مِنْ خَثْعَمٍ قَالَ: « أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقُلْتُ: أَنْتَ الَّذِي تَزْعُمُ أَنَّكَ رَسُولُ الله ؟ قَالَ: نَعَم. قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ الله ! أَيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى الله؟ قَالَ: الأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ »[١]

المَعْرُوفُ: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما عُرف من طاعةِ الله والتقرُّبِ إليه، والإحسانِ إلى الناس، وكلِّ ما ندب الشَّرْعُ إليه، ونهى عنه من المحسَّنات والمقبَّحات[٢] .

والمُنْكَرُ: كُلُّ ما قبَّحَهُ الشَّرْعُ وحرَّمه ونهى عنه[٣].

قال الغزالي: " إنَّ الأمرَ بالمعروف والنَّهيَ عن المنكر هو القُطبُ الأعظمُ في الدِّين وهو المُهِمُّ الذي ابتعث الله له النَّبيِّينَ أجمعين، ولو طُوِيَ بساطُهُ وأُهمِلَ عِلمُهُ وعَمَلُهُ لتعطَّلتِ النُّبوَّةُ، واضمحلتِ الدِّيانة، وعمَّتِ الفترة، وفشتِ الضلالة وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتَّسَعَ الخَرْقُ وخَربَتِ البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يومَ التناد، وقد كان الذي خِفْنا أن يكون، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون، إذ قد اندرس مِنْ هذا القُطبِ عِلمُهُ وَعَمَلُه، وانْمَحقَ بالكُلِّيَّةِ حقيقتُه ورسْمُه، فاستولتْ على القلوبِ مُداهَنَةُ الخَلق، وانمحقت عنها مُراقبةُ الخالق، واسترسل النَّاسُ في مُتابعةِ الهوى

---

(١) حسن : [ص.ج :١٦٤]، وقال الهيثمي في " مجمع الزوائد " (٨/١٥٤) . رواه أبويعلى، ورجاله رجال الصحيح غير نافع بن خالد الطاحي، وهو ثقة .

(٢) لسان العرب (٩/٢٤٠).

(٣) لسان العرب (٥/٢٣٣).

والشَّهواتِ استرسالَ البهائم، وعزَّ على الأرض مؤمنٌ صادقٌ لا تأخذه في الله لومةُ لائم، فمنْ سعى في تلافي هذه الفَترة وسَدِّ هذه الثلمة، إمَّا متكفِّلاً بعملها، أو متقلِّداً بتنفيذها مجدِّداً لهذه السُّنَّةِ الداثرة، ناهضاً بأعبائها، متشمِّراً في إحيائها،كان مستأثراً من بيْنِ الخَلقِ بإحياء سُنَّةٍ أفضى الزمانُ إلى إماتتها، ومستبداً بقُرْبَةٍ تتضاءل درجاتُ القُرَبِ دون ذِرْوَتِها "[١].

والأمرُ بالمعروف والنَّهْيُ عن المنكر وظيفةُ النبيِّ ﷺ وأتباعِه، قال تعالى في وصف النبيِّ ﷺ : ﴿ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [الأعراف:١٥٧].

وقال تعالى في وصفِ الأمة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِالله ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى الله عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف:١٠٨]. والدَّعوةُ إلى الله إنما تتحقَّقُ بالأمرِ بالمعروف والنَّهي عن المنكر.

وقد أمر الله تعالى الأُمَّةَ بالقيام بهذه الوظيفة فقال تعالى: ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقد اختُلِفَ في هذه الآية: هل تدلُّ على أنَّ الدَّعوةَ إلى الله والأمرَ بالمعروف والنَّهْيَ عن المنكر فرضُ عَيْن ؟ أم تدلُّ على أنها فرضُ كفاية ؟

فذهب بعضُهم إلى الأوَّل، وقالوا إنَّ "من" في قوله ﴿مِنْكُمْ ﴾ للبيان لا للتَّبعيض، كقوله تعالى: ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ ﴾ [الحج: ٣٠]، وكما يقول

(١) إحياء علوم الدين (٣٠٦/ ٢).

الرَّجُلُ لابنه: أُريد أن أرى منك عالِمًا، وعليه فإنَّ معنى الآية: كونوا أُمَّةً دُعَاةً إلى الخير، آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر.

وقال بعضُهم :"من" للتبعيض، فالآية تدلُّ على أنَّ الدَّعْوَةَ فرضُ كفاية على جميع المسلمين، فإذا قام به مَنْ يكفي سقط الحرجُ عن الجميع.

والأوَّلُ أرجح، ويدلُّ على العموم قولُه تعالى: ﴿ **وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ [العصر:١-٣] والتواصي هو الأمرُ والنهي[١].

كما يدلُّ عليه أيضاً قولُ النبيِّ ﷺ : « **مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ** »[٢]

فمن رأى منكراً تعيَّنَ عليه تغييرُه بيده، فإن عجز فبلسانه، فإن عجز فبقلبه ولابدَّ، فإن لم يتغير قلبُه لرُؤية المنكر، ولم يغضب لغضب الله ﷻ، لم يكن في قلبه إيمان، كما قال ﷺ : « **مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ** »[٣].

---

(١) مختصر تفسير المنار(٣٦٥/ ١).

(٢) م(٤٩/ ٦٩/ ١)، ت(٢٢٦٣/ ٣١٧و٣١٨/ ٣)، د(١١٢٨/ ٤٩١و٤٩٢/ ٣)، ن(١١١/ ٨)، جه (١٢٧٥/ ٤٠٦/ ١).

(٣) م(٥٠/ ٦٩و٧٠/ ١).

وهذا أمرٌ خطيرٌ جداً، لا يفطِنُ لهُ أولئك الذين يشهدون المنكرَ ويُقيمون عليه، كما يحدث في الأفراح والمحَافِل الساهرة التي تُنْتَهَكُ فيها حُرُمَاتِ الله، ويُتَعَدَّى فيها على حُدودِ الله، والجماهيرُ الغفيرةُ ساهرةٌ على المشاهدة والاستمتاع والفرح والسرور! فأين هؤلاء من تغيير المنكر،وهل في قلوبهم حَبَّةُ خَرْدَلٍ من إيمان ؟! وقد علموا أنَّ هذا المنكر لا يرضاه الله،وقد أمرهم بتغييره فأقاموا عليه وسُرُّوا به، وروَّحوا عن أنفسهم بمشاهدته!

وهؤلاء الذين يذهبون إلى شواطئ البحار في الصَّيْفِ وهي مليئةٌ بالعرايا، والفواحشُ مِلءَ أسماعهم وأبصارهم . ألم يعلموا أنَّ تغييرَ المنكر واجب ! وأنَّ من لم ينكر المنكرَ بقلبِهِ فليس في قلبِهِ حَبَّةُ خردلٍ من إيمان ! فكيف طابت أنفسُهم وقرَّتْ أعينُهم بما رأوا من منكرٍ وجب عليهم إنكارُه فلم ينكروه ولم يغيِّروه ولم يغضبوا لله إذا رأوه !

ولا يغرَّنك جوابُهم ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦]، ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [فاطر:١٨]، لا يغرَّنَّك هذا الجواب فإنه داخلٌ في عموم قولِه تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ [محمد:٢٥] فزيَّن لهم سوءَ أعمالهم ولبَّس عليهم ﴿وَحَسِبُوا أَلا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ [المائدة:٧١] .

إنَّ المؤمن مطالبٌ بتغيير المنكر، وأدنى درجات التغييرِ التغييرُ بالقلب، وتغييرُ المنكر يدعو إلى هَجْرِ المنكر وأهلِهِ لا إلى مُخالطتهم ومشاهدته، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[الأنعام:٦٨].

وقال تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ الله يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ [النساء:١٤٠].

ولذلك رُفع إلى عمر بنِ عبد العزيز جماعةٌ سكارى فقال : اجلدوهم. قالوا: فيهم فلانٌ كان صائماً ! قال: به فابدؤا[١] .

ولكنَّ القلوب إذا انتكست لم تعرفِ المعروفَ ولم تنكرِ المنكر، كما قال ﷺ : «تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلُوبِ كَالحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالكُوزِ مُجَخِّيًا لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إلا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»[٢] .

والشاهدُ أنَّ الآية تدلُّ على وجوب الدَّعوةِ والأمرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عن المنكر على جميع الأفراد، ويؤكِّدُ ذلك قولُه تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لايَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم:٦].

قال قتادة : تأمرُهم بطاعةِ الله وتنهاهم عن معصيةِ الله، وتقوم عليهم بأمرِ الله تأمرهم به وتساعدهم عليه، فإذا رأيتَ لله معصيةً قذَّعتهم عنها وزجرتهم عنها[٣].

وقال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه:١٣٢].

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٢١/ ٢٨).

(٢) م(١٤٤/١٢٨و١٢٩/ ١).

(٣) تفسير ابن كثير (٣٩١/ ٤).

فأوَّلُ واجبات المسلم أن يحوِّلَ بيته بيت مسلم، وأن يوجِّهَ أهلَهُ إلى أداء الفرائض التي تَصِلُهُم معه بالله، فتوحِّد اتجاهَهُمُ العُلوِيَّ في الحياة.

فالمسلمُ في بيْتِه واعظ، آمرٌ، ناهٍ، يأمر أهلَ بيته بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويدعوهم إلى الخير، ولا يُقِرِّهم على سوءٍ أبداً، ولا يُقِرُّهم على ترك واجبٍ ولا على فعل محرَّم، فقد قال ﷺ: « **أَلا كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى أَهْلِ بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَعَبْدُ الرَّجُلِ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ** »[1].

وقال ﷺ: « **مُرُوا أَوْلادَكُمْ بِالصَّلاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي المَضَاجِعِ** »[2].

فأين الذين يقومون بهذا الواجب؟ وأين الذين يؤدُّون هذه المسئولية؟

أين الذين يأمرون أولادَهم بالصلاة؟ أين الذين يأمرون بناتِهم بالحجاب؟ أين الذين ينهون أولادَهم عن المنكر؟ أين الذين ينهون بناتِهم عن التَّبَرُّجِ والسُّفور؟ أين الذين ينهون نساءهم عن دُخول الرجال عليهن؟

فانتبهوا أيها الرجال...

لقد حُمِّلتُم مسئوليةً اعتذرت عن حملها السمواتُ والأرضُ والجبال، فاستعينوا بالله واصبروا وأدُّوا ما فرض الله عليكم في بيوتكم من الدَّعوةِ إلى الخير، والأمرِ بالمعروف، والنَّهْيِ عن المنكر، واعلموا أنَّ الله سائلٌ كُلَّ راعٍ عما استرعاه.

(١) متفق عليه: خ(٨٩٣/ ٣٨٠/ ٢)، م(١٨٢٩/ ١٤٥٩/ ٣)، ت(١٧٥٧/ ١٢٤/ ٣)، د(٢٩١٢/ ١٤٦/ ٨).

(٢) حسن صحيح: (ص.د:٤٦٦)، د(٤٩١/ ١٦٢/ ٢).

هذا وإنَّ لفظ الآية يتَّسِعُ لتكليف الأمَّةِ كلِّها بعد ذلك بأن يكون فيها علماءُ متخصِّصُون متفرِّغون للدَّعوةِ في الداخل والخارج، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويحوطهم السلطانُ بقوَّةٍ تحميهم وتساندهم، وتعاونهم على تغيير المنكر باليد في الشوارع والطرقات فمنهجُ الله في الأرض ليس مجرَّدَ وعظٍ وإرشادٍ وبيان، فهذا شَطْرٌ، أمَّا الشَّطْرُ الآخر فهو القيامُ بسلطة الأمرِ والنَّهْيِ على تحقيقِ المعروف ونفيِ المنكر من الحياة البشرية، وصيانةِ تقاليد الجماعة الخيِّرَةِ أن يعبث بها كلُّ ذي هوى، وكلُّ ذي شهوة، وكلُّ ذي مصلحة، وحمايةِ هذه التقاليدِ الصالحة من أن يقولَ فيها كلُّ امرئٍ برأيه وبتصوُّرِهِ زاعماً أنَّ هذا هو الخير والمعروف والصواب.

وهذه الجماعةُ هي التي تُعرفُ في بعض البلدان الإسلامية بـ "هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، وعندنا جماعةٌ تقوم بشيءٍ من هذا الواجب وهي التي تُسَمَّى شُرْطَةَ الآداب، وهي التي تقوم بمكافحةِ العابثين بِقِيَمِ وآداب الشعب، ويتعرَّضون لمعاكسة البنات والنساء، ونحن بحاجةٍ إلى جماعةٍ من أهل العلم يأذن لهم السُّلطانُ في الأمر بالمعروف، والنَّهْيِ عن المنكر، ويحوطهم بقوَّتِهِ حتى يؤدُّوا وظيفتَهم كما أراد الله، فإنَّ الله يزَعُ بالسلطان ما لايزَعُ بالقرآن وهذا من واجبات السلاطين الذين مكَّنَ الله لهم في الأرض وجعلهم ملوكاً، قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصلاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلله عَاقِبَةُ الأُمُورِ** ﴾ [الحج: ٤١]

وفي قيام هذه الجماعة بهذا الواجب حفظُ الأمَّةِ من انتشار الرذائل والموبقات، وصيانةٌ لها من المُهلكات، فإنَّ الشَّرَّ إذا غلب، والخَبَثَ إذا كَثُرَ فقد هلكت الأُمَّةُ كلُّها كما قال تعالى: ﴿ **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً** ﴾ [الأنفال: ٢٥]

عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا يَقُولُ: « لا إِلَهَ إِلا الله، وَيْلٌ لِلعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمأْجُوجَ مِثْلُ هَذَا، وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبهَامِ وَبِالَّتِي تَلِيهَا. قَالَتْ زَيْنَبُ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ الله! أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟! قَالَ: نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ »[1].

وَعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ الله وَالوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا»[2].

ومن فوائد الأمر بالمعروف والنَّهْي عن المنكر أنَّهُ عُنوانُ كمالِ الإيمان، كما قال تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [التوبة: ٧١]، وتركُه عُنوانُ النفاقِ والطغيان، كما قال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة: ٦٧]، وهذه الآيةُ شديدةٌ جداً على الذين يزعمون أنهم آمنوا بالله ورسولِه ثم لا يأمرون بالمعْروفِ ولا ينْهَوْنَ عن المنكر، بل يأمرون بالمُنْكر وينْهَوْنَ عن المعروف.

فَمِنَ الذينَ يزعمون الإيمانَ مَنْ ينهى امرأتَه وابنتَهُ عن الحجاب ويأمرها بالتَّبرُّجِ والسُّفور! ومنهم مَنْ ينهى امرأتَه عن الصلاة، ومنهم من يأمر امرأتَه بمقابلة ضيوفِهِ والتَّرْحيبِ بهم، ومنهم مَنْ ينهى ولدَهُ عن إعفاء لحيته، ومنهم مَنْ ينهى ولدَه عن

---

(١) متفق عليه: خ(٣٥٩٨/ ٦١١/ ٦)، م(٢٨٨٠-٢-/ ٢٢٠٨/ ٤)، ت(٢٢٨٢/ ٣٢٥/ ٣)، جه (٣٩٥٣/ ١٣٠٥/ ٢).

(٢) خ (٢٤٩٣/ ١٣٢/ ٥)، ت (٢٢٦٤/ ٣١٨/ ٣) بنحوه.

الصلاة في المساجد، ومنهم من ينهى ولده عن حضور مجالس العلم، وهم يزعمون أنهم مؤمنون !!

إنما المؤمنون ﴿ التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ المُنْكَرِ وَالحَافِظُونَ لِحُدُودِ الله وَبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة:١١٢].

ومن فوائدِ الأمرِ بالمعروف والنَّهْيِ عن المنكر استحقاقُ أهله للفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿ وَلتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤].

ومن فوائده استحقاقُ أهلِه لرحْمَةِ الله، كما قال تعالى: ﴿ وَالمُؤْمِنُونَ وَالمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ الله وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ الله إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:٧١].

فمن قام بالأمرِ بالمعروف والنَّهْيِ عن المنكر فهو مرْحوم، ومَنْ تركه فهو ملعون، كما قال تعالى: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة:٧٨،٧٩] .

ومن فوائده استحقاقُ أهلة للسَّلامةِ والنَّجاةِ من العذاب إذا نزل بالظالمين، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٥].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة:١٠٥]، وإنما يكون الاهتداءُ إذا أُطيع الله، وأُدِّيَ الواجبُ من الأمر بالمعروف والنَّهْي عن المنكر وغيرهما، ولكن في الآية فوائد عظيمة، منها:

"
- أن لا يخاف المؤمنُ من الكفار والمنافقين، فإنَّهم لن يضرُّوه إذا كان هو مهتدياً.
- أن لا يحزنَ عليهم ولا يجزعَ، فإنَّ معاصِيَهُم لا تضرُّه إذا اهتدى.
- أن لا يعتديَ على أهلِ المعاصي بزيادةٍ على المشروع في بُغْضِهِم أوْ ذَمِّهِم أو هَجْرِهم أو عقوبتهم.
- أن يقوم بالأمر والنَّهْي على الوجه المشروع من العلم والرِّفق والصبر، وحُسْنِ القصد، وسُلوك سبيل القصد، فإنَّ ذلك داخلٌ في قوله: ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ وفي قوله ﴿ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ "[1]

فلا بُدَّ للآمرِ النَّاهي من هذه الثلاثة: العلم والرِّفْقُ والصَّبْر، ولابُدَّ من العلم بالمعروف والمنكر والتَّمييزِ بينهما، ولابُدَّ من العلم بحال المأمور والمنهي، ولابُدَّ من الرِّفق في الأمر والنَّهي، كما قال ﷺ: « إِنَّ الرِّفْقَ لا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلا زَانَهُ وَلا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلا شَانَهُ »[2]

ولابُدَّ أيضاً أن يكون الآمرُ الناهي حليماً صبوراً، يحلُم على المدعوِّين وإن جَهِلُوا عليه، ويصْبِرُ على أذاهم إن آذوه، ولهذا اقترن الأمرُ بالصبر بالأمر بالدَّعوة في أوَّل التكليف، كما قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٤٨٠-٤٨٢/ ١٤).

(٢) م(٢٥٩٤/ ٢٠٠٤/ ٤)، د(٢٤٦١/ ١٥٥/ ٧).

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ [المدثر:٧].

وقال لقمانُ لابنه وهو يعظه: ﴿ يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاة وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [لقمان :١٧].

وقال بعضُ السلف : لا يأمرُ بالمعْروفِ وينْهى عن المُنْكرِ إلا مَنْ كان فقيهاً فيما يأمرُ به، فقيهاً فيما ينْهى عنه، رفيقاً فيما يأمرُ به،رفيقاً فيما ينْهى عنه، حليماً فيما يأمرُ به،حليماً فيما ينْهى عنه (١)

ولابُدَّ للآمر أن يكون كالطبيب الحكيم يُشَخِّصُ الدَّاءَ ويصْرِفُ الدَّواءَ المناسبَ في الكمِّ والكَيْفِ من غير إسرافٍ ولا تقتير، فلا يلجأ إلى التَّصريح إذا أغنى عنه التلميح، ولا يلجأ إلى الكلمةِ النابيةِ إذا أغنت عنها الكلمةُ الطيبة، ولايلجأ إلى الشِّدَّةِ إذا أغنى عنها الِّلين، فإنَّ الله تعالى قال: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ الله فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات:٩]، فقدَّم الإصلاحَ على القتال، وهذا يقتضي أن يَبْدَأَ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالأرفق مترقياً إلى الأغلظ فالأغلظ، وقال تعالى: ﴿ وَاللاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ الله كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ [النساء:٣٤]، فبدأ باللين ثم انتقل إلى الأشد فالأشد(٢)، وهذا من فقه الدعوة الذي يتعيَّنُ على كلِّ داعيَةٍ حتى لا يُفسد أكثرَ مما يُصْلِح، ولا يضرّ أكثر مما ينفع.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٣٦و١٣٧/ ٢٨).

(٢) تفسير الرازي (١٨٤/ ٨).

وَعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ثُمَّ قَالَ: «اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ، فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلاتَغُلُّوا وَلا تَغْدِرُوا، وَلا تَمْثُلُوا وَلا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلاثِ خِصَالٍ أَوْ خِلالٍ فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ: ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ»[1] فلم يأمره بالقتال إلا بعد رفْضِهم الإسلامَ ودفعَ الجزية.

فإذا أخذ الداعيةُ نفسَهُ بهذه الآداب وُفِّق في دعوته وأقبل الناسُ عليها، فليحرص الدعاةُ جميعاً على تعلُّمِ فقه الدعوة وأصولها، والله الهادي إلى سواء السبيل .



(١) م(١٧٣١/ ١٣٥٧/ ٣)، ت(١٦٦٦/ ٨٥و٨٦/ ٣)، د(٢٥٩٥/ ٢٧١/ ٧)، جه(٢٨٥٨/ ٩٥٣/ ٢).

من أحباب الله
٢- أهل الرفق

عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « **يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لا يُعْطِي عَلَى العُنْفِ وَمَا لا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ** »[1].

﴿**اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ**﴾ [الشورى:١٩] أي رفيقٌ بهم، يعاملهم بالرِّفق لا بالعُنف، وباليُسر لا بالعُسر، ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ [الحج:٧٨].

ومن لُطفه سبحانه وتعالى بعباده أنه كلَّفهم دون ما يُطيقون، وأنَّ طاقَتهم دائماً فوْق ما يكلفون، بحيث أنه لو كلَّفهم أكثر منه لا يعجزون.

والدليل على ذلك أنَّ الله تعالى فرض الصلاةَ أوَّل ما فرضها خمسين، فما زال النبيُّ ﷺ يسأل ربَّه التخفيفَ حتى جعلها خمساً ثم قال: « **أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي** »[2] ومعنى ذلك أنَّ العباد يستطيعون أن يصلُّوا في اليوم والليلة خمسين صلاة، إذ أنهم لو لم يستطيعوا لكان هذا التكليفُ من الله عبثاً، والله تعالى منزَّه عن العبث، وإنما هو لُطْفُ الله تعالى الذي خفَّف عن عباده، وجعل الصلاةَ خمساً في العمل وخمسين في الأجر والثواب.

ومن لُطفه سبحانه وتعالى بعباده أنه يرزقهم بلا استحقاق، ويُؤخِّر عنهم العذابَ مع الاستحقاق.

ومن لُطفه أيضاً بعباده أنه يشكرُ لهم القليلَ من العمل، ويغفر لهم الكثيرَ من الزلل، فاللُّطفُ والرِّفْقُ صفتان من صفات الله العلي، واللَّطيفُ والرَّفيقُ اسمان من أسماء الله الحسنى.

---

(١) م(٢٥٩٣/ ٢٠٠٣و٢٠٠٤/ ٤).

(٢) خ (٣٢٠٧/ ٣٠٢و٣٠٣/ ٦).

وصفاتُ الله تعالى نوعان :

- ما لا يمكنُ الاتِّصافُ به كالخَلق والرِّزق والإحياء والإماتة.
- وما يمكن الاتِّصافُ به وهو أيضاً نوعان :

أ- ما لا يجوزُ الاتُّصافُ به، كالعزِّ والعظمة.

ب- وما يُستحبُّ الاتِّصاف به كالحلم، والرحمة، واللطف، والرفق.(١)

ومن هنا رغَّب النبيُّ ﷺ في الاتِّصاف بالرِّفق بقوله : « **إِنَّ الله رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لايُعْطِي عَلَى العُنْفِ وَمَا لايُعْطِي عَلَى مَاسِوَاهُ**»(٢).

فرغَّب ﷺ أصحابَه في الرفق ببيانِ أنه من صفاتِ الله التي يُحِبُّ مَنِ اتَّصف بها وبيانِ أنَّ الله تعالى يعطي على الرفق في الدُّنيا الكثيرَ من الذِّكر الحسن والثناء الجميل، كما يعطي عليه في الآخرة الثوابَ العظيم والثواب الجزيل.

وقال ﷺ : « **إِنَّ الرِّفْقَ لا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ وَلا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ**»(٣).

إذ بالرِّفقِ تسهل الأمور، ويتَّصل بعضُها ببعض، ويرجع إلى المأوى ماشذَّ، وبه يُجْمَعُ الشتات، فهو إذن جامعُ الجماعات، وجامعٌ أيضاً للطاعات، وبالطاعات يؤلِّفُ الله القلوب، ويجمع الجماعاتِ المتفرقة، ويؤلِّف بين الجماعات المتباغضة (٤).

فعلى العبد أن يتَخلَّى عن العُنف، وأن يتَحلَّى بالرفق، فإنَّ النبيَّ ﷺ قال : «**مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَة**»(٥).

---

(١) فيض القدير (٢٥١/ ٢).

(٢) م(٢٥٩٤/ ٢٠٠٤/ ٤).

(٣) صحيح: [ص.د:٤٠٢٣]، د(٤٧٨٧/ ١٦٣و١٦٤/ ١٣).

(٤) فيض القدير: (٤٦١/ ٥) بتصرف.

(٥) صحيح: [س.ص٥١٩]، حم(٦٠/ ٥٣/ ١٩).

والمعنى: من آتاه الله نصيباً من الرِّفق في الدنيا فقد آتاه ما يتمنَّى من سعادة الدنيا والآخرة، إذ بالرِّفق سيحبُّه الناس، ويتودَّدُون إليه، ويتقرَّبون منه، ويذكرونه بالذِّكر الحسن ويُثْنون عليه بكل جميل في حياته وبعد مماته، وإذا مات أدخله الله تعالى الجنَّة مع النَّبيين والصِّديقين والشُّهداء والصَّالحين وحَسُنَ أولئك رفيقاً.

وأوَّلُ الأشياء وأوْلاها يرفقِ الإنسانِ نفسُه، فيجب على كلِّ إنسانٍ أن يكون رفيقاً بنفسه، يأخذها دائماً بالرِّفق لا بالعُنْف، وباليُسر لا بالعُسر، ولا يكلِّفُها من الأعمال ما لا تُطيق، فإنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ هَذا الدِّينَ مَتِين فأوغلوا فيه برفق**»[1].

وقال ﷺ: «**إنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إلاَّ غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَيَسِّرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلجَةِ**»[2].

وقال ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ فَوَالله لا يَمَلُّ الله حَتَّى تَمَلُّوا**»[3].

وكان ﷺ يُنكر على المتشدِّدين فكان يقول: «**هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ**»[4].

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ قَالَ: أُخْبِرَ رَسُولُ الله ﷺ أَنَّهُ يَقُولُ لأَقُومَنَّ اللَّيْلَ وَلأَصُومَنَّ النَّهَارَ مَا عِشْتُ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**آنْتَ الَّذِي تَقُولُ ذَلِكَ؟**» فَقُلتُ لَهُ قَدْ قُلتُهُ يَا رَسُولَ الله! فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**فَإِنَّكَ لاتَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، فَصُمْ وَأَفْطِرْ وَنَمْ وَقُمْ، وَصُمْ مِنَ الشَّهْرِ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ الحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا وَذَلِكَ مِثْلُ صِيَامِ الدَّهْرِ**». قَالَ قُلتُ فَإِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: «**صُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمَيْنِ**». قَالَ:

---

(١) حسن: [ص.ج:٢٢٤٢]، هق(١٩/ ٣)، بز(٧٤/ ٥٧/ ١).

(٢) صحيح: [ص.ن:٥٠٤٩]، ن(١٢١و١٢٢/ ٨).

(٣) متفق عليه: خ(٤٣/ ١٠١/ ١)، م(٧٨٢/ ٥٤٠/ ١)، د(١٣٥٥/ ٢٤٢/ ٤)، ن(٢١٨/ ٣).

(٤) م(٢٦٧٠/ ٢٠٥٥/ ٤)، د(٤٥٨٤/ ٣٦١/ ١٢).

قُلتُ فَإِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ يَارَسُولَ الله ! قَالَ : « **صُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمًا وَذَلِكَ صِيَامُ دَاوُدَ** عليه السلام **وَهُوَ أَعْدَلُ الصِّيَامِ**» قَالَ : قُلتُ فَإِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «**لا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ** » قَالَ عَبْدُ الله بْنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما : لأَنْ أَكُونَ قَبِلتُ الثَّلاثَةَ الأَيَّامَ الَّتِي قَالَ رَسُولُ الله ﷺ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي وَمَالِي »[(١)].

وإذا كان الإنسانُ مُكلفاً أن يَرْفِقَ بنفسه في أعمال الدِّين التي يرجو بالاجتهاد فيها الفوزَ بالخلود في جنات النعيم، فإنَّ أعمال الدُّنيا التي لا يرجو بالاجتهاد فيها إلا أن يعيش ما أحياه الله منعّماً أوْلى أن يرفق بنفسه فيها فإنَّ العُمرَ مهما طال قصير، والدنيا مهما كثرت أيامُها قليلة، فقد قال ﷺ : «**وَالله مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ - وَأَشَارَ يَحْيَى - بِالسَّبَّابَةِ فِي اليَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ** »[(٢)].

فعلى الإنسانِ أن يرفقَ بنفسه في أعمال الدنيا، ولا يشقَّ عليها، ولا يكلِّفَها ما لا تُطيق، فإني رأيتُ الناسَ في هذا الزمان قد انشغلوا بالدُّنيا أكثرَ من اللازم وأعْطَوْها من أوقاتهم واهتماماتهم فوق ما تستحق.

ترى الرجلَ يخرج من الفجر إلى الفجر، يكْدح ويتْعب ويشْقى، لا يعطي نفسَه حظَّها من الراحة، فضلاً عن حظِّها من الصلاة وقراءة القرآن ومجالسة العلماء.

بل إنَّ الرجلَ لا يُعطي زوجَه حظَّها من وقته، ولا يعطي أولاده حظَّهم من وقته فهولا يفرغ أبداً لتربيتهم وإرشادهم ومراقبتهم، وهذا الانشغال الكثير بالدُّنيا عن النَّفس والزَّوجة والأولاد، ربما كانت الزوجةُ والأولادُ غيرَ راضين عنه مما يزيد الفجْوة بيْن الرَّجل وزوْجه وأولاده، فإذا اتسعت وعجز عن لَمِّها فإن هذا قد يؤدي إلى الشقاق الذي يفضي في الغالب إلى الطلاق.

---

(١) متفق عليه: خ(١٩٧٥/ ٢١٧و٢١٨/ ٤)، م(١١٥٩-١٨٢-/ ٨١٣/ ٢)، د(٢٤١٠/ ٧٩/ ٧)، ن (٢٠٩-٢١٥/ ٤).

(٢) م(٢٨٥٨/ ٢١٩٣/ ٤)، ت(٤٢٢٥/ ٣٨٤/ ٣)، جه(٤١٠٨/ ١٣٧٦/ ٢).

فيا طلابَ الدنيا مَهْلاً مَهْلاً !! ورِفقاً رِفقاً !!

ارفقوا بأنفُسِكم، وارفقوا بأزواجكم، وارفقوا بأولادكم، واعلموا أنَّ الرزق لن يفوتكم، بل لن تفوتوه، فقد قال ﷺ: «**إنَّ الرزقَ لَيَطْلُبُ العَبْدَ أَكْثَرَ مِمَّا يَطْلُبُه أَجلُه**»(١).

وقَالَ ﷺ: «**لو أنَّ ابنَ آدمَ هَرَبَ مِنْ رِزْقِه كَمَا يَهْرَبُ مِنَ المَوْتِ لأدْرَكَهُ رِزْقُه كَمَا يُدْرِكُه المَوْت**»(٢).

ولذلك وصَّى ﷺ بالتخفيف عن النفس والترويح عنها، وطلبِ الرزق بالرِّفق، فقال ﷺ: «**إنَّ روحَ القُدُسِ نَفَثَ فِي روعِي أنَّه لنْ تَمُوتَ نفسٌ حتى تَسْتَوْفِيَ رزقَها وأَجَلَها فاتَّقوا الله وَأَجْمِلوا في الطَلَبِ**»(٣).

لوْلا أنَّ الله كَرِه لعباده العجْزَ والكسل ما كلَّفهم بالعمل،لأنَّ الرزقَ قد قُسِمَ فلا دافع له، ولا مفرَّ منه، كما لا دافَع للموت ولا مفرَّ منه، ولكنَّ الله أراد لعباده العملَ والسَّعْيَ والاجتهاد، لكنه حين أمر بالسَّعْي على الرِّزق أمر بالمَشْي فقال: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**﴾ [الملك:١٥] وحين أمر بإجابةِ الدَّاعي لصلاة الجمعة، قال: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ الله**﴾ [الجمعة:٩].

فالواجبُ علينا أن نسعى إلى الطَّاعة، ونَمْشِيَ ببُطْءٍ ورِفْق إلى الدنيا وإلى الرزق، لكنَّ الناس قد قلبوا الآية، فهم يَمْشُون إلى الطَّاعة مشْياً بطيئاً، مُتخاذِلين متكاسلين ويرْكُضون وراء الدنيا ركْضاً، ويجرون وراءها جرياً، فنَسِيَ الإنسانُ بالسَّعْيِ في الدُّنيا والكدْح فيها أن يُريحَ نفْسَه من العناء والتعب.

---

(١) حسن: [ص.ج:١٦٢٦]، حب (١٠٨٧/ ٢٦٧).

(٢) حسن: [س.ص:٩٥٢] وقال الشيخ: رواه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٩٠،٧/ ٢٤٦)، وابن عساكر (٢/ ١١/ ١).

(٣) صحيح: [ص.ج:٢٠٨١]، بغ(٤١١١/ ٣٠٣و٣٠٤/ ١٤٣).

إنني أعرف كثيراً من رجال الأعمال الذين تكالبوا على الدُّنيا لا ينام أحدُهم في الليلة ساعَتَين أو ثلاثة، فهل تكفي هذه السُّويْعَاتُ لراحته، لا تكفي، ولكنه انشغل بالدُّنيا فنسي الله فأنساه الله نفسَه.

فيا طلابَ الدنيا مَهْلاً مَهْلاً !! ورِفْقاً رِفْقاً !!

إنَّ لبدنِكَ عليك حقاً، ولزَوْجِك عليك حقاً، ولولدِك عليك حقاً، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقه.

إذا خرجتَ من الفجر وعُدت بعد العشاء متى تقعد مع الأولاد؟ ومتى تتعرَّف على أحوالهم؟ ومتى تتفقَّد أعمالهم؟ متى تعرف من صلى ومن لم يصل، ومن عمل الواجبَ ومن لم يعمل الواجب، ومن قام بعمله ومن لم يقم بعمله؟!.

وإذا خرجت من الفجر وعُدت بعد العشاء فأين القُوَّةُ التي في بدنك حتى تُعطيَ زوجَك حقَّها عليك.

فاتَّقوا الله وأجملوا في الطلب، فإنه لن تموت نفسٌ حتى تستوفيَ رزقَها وأجلَها.

فإذا رَفِقَ الإنسانُ بنَفْسه فعليه أن يرْفِقَ بزوْجه فلا يكلِّفُها من العمل ما لا تطيق، ولا يطلبُ منها ما تعجزُ عنه، ويجب عليه أن يعاونَها فيما يجب عليها من أعمال البيت، فقد قال الله تعالى: ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾ [المائدة:٢].

وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنِ الأَسْوَدِ قَالَ سَأَلْتُ عَائِشَةَ مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ قَالَتْ: « **كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلاةِ** »[1].

---

(١) خ(٦٧٦/ ١٦٢/ ٢)، ت(٢٦٠٧/ ٦٦/ ٤).

فعلى الرجل ألاَّ ينسى المرأةَ من تعاونه، وأن يُعاوِنَها على ما كُلِّفَت به من أعمال البيت، وأنّى لرجال الأعمال الذين يخرجون من الفجر إلى العشاء أن يحققوا شيئاً من التعاون مع ربَّات البيوت ؟!

فإذا رفق الرجلُ بنفسه وزوْجه فعليه أن يكون رفيقاً بأولاده، فلا يُعَنِّفُ ولا يُقَبِّحُ ولا يسبُّ ولا يشتم ولا يضرب، ولا يكلِّف الأولادَ ما لا يطيقون من الأعمال وعليه أن يصبر على قِلَّةِ فهمهم، وسوء حفظهم.

وعموماً الرفقُ مطلوبٌ من عموم الناس لعموم الناس، حتى يكون شعارُ الجميع في كل مكانٍ الرِّفق « **فإِنَّ اللهَ إِذَا أَرَادَ بِأَهْلِ بَيْتٍ خَيْراً أَدْخَلَ عَلَيْهِمُ الرِّفْق** »[1].

فيجب أن يكون السُّلطانُ رفيقاً بمن تحت سلطانه، ويجب أن يكون الرَّاعي رفيقاً برعيَّته، ويجب أن يكون الوالي رفيقاً بمن في ولايته، فإنَّ النبيَّ ﷺ قال: « **اللهمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ** »[2].

ويتأكَّدُ الرِّفق في حقِّ العالم بالمتعلِّم، وفي حقِّ العالم بالجاهل، فيجب على كلِّ عالمٍ أن يكون رفيقاً بكل متعلِّم، وأن يكون رفيقاً بكل جاهل، فلا يُعَنِّفُهُ ولا يُوَبِّخُهُ ولا يسبُّه ولا يشتمه، ولا يضربه لقلَّة فهمه ولا لسوء حفظه، ولا يضربه على خطأٍ يصدر منه عفواً، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَامَ أَعْرَابِيٌّ فَبَالَ فِي المَسْجِدِ فَتَنَاوَلَهُ النَّاسُ فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ : « **دَعُوهُ وَهَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلاً مِنْ مَاءٍ أَوْ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ** »[3].

(١) صحيح: [س.ص:١٢١٩] وقال الشيخ: أخرجه أحمد(٦/ ٧١)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ١/ ٤١٦)، والبيهقي في «الشعب» (٢/ ٢٧٩/ ١).

(٢) م(١٨٢٨/ ١٤٥٨/ ٣).

(٣) خ(٢٢٠/ ٣٢٣/ ١)، ن(٤٨و٤٩/ ١) ورواه مطولاً : د(٣٧٦/ ٣٩/ ٢)، ت(١٤٧/ ٩٩/ ١).

وَعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ الله ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ فَقُلتُ يَرْحَمُكَ الله، فَرَمَانِي القَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ ! فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهُ مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ! فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي مَارَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَالله مَا كَهَرَنِي وَلا ضَرَبَنِي وَلاشَتَمَنِي قَالَ: « **إِنَّ هَذِهِ الصَّلاةَ لا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ القُرْآنِ – أَوْ كَمَا قَالَ** رَسُولُ الله ﷺ – »[1]

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ القَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ، قَالُوا: مَهْ مَهْ . فَقَالَ: « **ادْنُهْ** » فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا، قَالَ: فَجَلَسَ، قَالَ: « **أَتُحِبُّهُ لأُمِّكَ** » قَالَ: لا وَالله جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ قَالَ: « **وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لأُمَّهَاتِهِمْ** قَالَ: « **أَفَتُحِبُّهُ لابْنَتِكَ** » قَالَ لا وَالله يَا رَسُولَ الله جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ، قَالَ : « **وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ قَالَ أَفَتُحِبُّهُ لأُخْتِكَ** »، قَالَ: لا وَالله جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ، قَالَ : « **وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لأَخَوَاتِهِمْ قَالَ : أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ** » قَالَ : لا وَالله جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ، قَالَ : « **وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ قَالَ أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ** »، قَالَ : لا وَالله جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ، قَالَ : « **وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالاتِهِمْ** »، قَالَ : فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: « **اللهمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلبَهُ وَحَصِّنْ فَرْجَهُ** »، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الفَتَى يَلتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ[2].

الرِّفْقُ في حقِّ الداعية بالمدعوِّين واجبٌ، فيجب على الداعية أن يكون رفيقاً بالمدعوين،لأن الرِّفق هو أقربُ الطرق إلى القلوب، وأهمُّ أسباب القبول، ولذلك

(١) م(٥٣٧/ ٣٨١و٣٨٢/ ١)، د(٩١٨/ ١٩٨-٢٠٣/ ٣)، ن(١٤-١٨/ ٣).

(٢) صحيح: [س.ص:٣٧٠]، حم(١٨٥/ ٧٠/ ١٦).

قال الله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۝ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه:٤٣-٤٤] ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا﴾ هيِّناً، لا عُنفَ فيه ولا صلابة، ولا غِلظَة ولا فظاظة، لعله يتذكرُ ما ينفعه فيأتيه أو يخشى ما يضرُّه فيتركه.

وقد فُسِّرَ هذا القولُ اللَّيِّنُ الذي أمر الله به موسى وهارونَ عليهما السلام بقول الله تعالى: ﴿ فَقُلْ هَل لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ [النازعات:١٨،١٩]، والمتأمِّلُ في هذه الكلمات يرى الرِّفق واللِّين يتدفقَّان من كل حرفٍ فيها، فإنه أتى بحرف "هل" الذي يدلُّ على العَرْض والمشاورة، مما يفيد أنه يجب على الدُّعاة أن يعلموا أنَّ الدعوةَ عَرْضٌ لا فَرْض، عليك أن تُحسِنَ عَرْضَ دعوتك ولا يجوز أن تفرضَها على الناس: ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩].

والقاعدةُ العظيمة في الإسلام ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦]، قاعدةٌ عظيمة يجب على الدُّعاةِ أن يعوها وأن يفقهوها ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ فإنَّما الدَّعوةُ عَرْضٌ لا فَرْض، فاعْرِضْ دعوتَك ولا تفرِضْها، فإنَّ الله قال لنبيِّه ﷺ: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف:٢٩]، فقل الحقُّ من ربكم واترك الناسَ بعدها أحراراً يختارون أن يؤمنوا أو يكفروا، فجزاء الجميع عند الله يوْمَ يُرْجعون إليه: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ۝ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ [الكهف ٢٩، ٣٠]

فالدعوةُ عَرْضٌ لا فرض، فإذا أحسن الداعيةُ عرضَ دعوته، واستخدم الأسلوبَ الهادئ، والكلمةَ اللَّيِّنةَ الرقيقة وصل إلى قلوب الناس من أقصر الطرق

وأقربها واستجاب الناسُ لدعوته.

ثم تأمّل ﴿فَقُل هَل لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾ فهو يدعوه إلى التَّزكية والتطهُّرِ ولكنه لم يقل له تعال أزكيك، ولم يقل له تعال أطهرك، وإنما تُزكِّي أنت نفسَك، أنا أدلك وأنت الذي تزكِّي نفسَك بما دللتك عليه.

ثم ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ (إِلَى رَبِّكَ) الذي ربَّاك بنعمه الظاهرةِ والباطنة، وآتاك مما سألتَه ومما لم تسأله، مما يوجب عليْك أن تذْكُرَ نِعَمَ الله وتقابلَها بالشكر.

وهكذا يجب أن يكونَ الدَّاعيَةُ رفيقاً، ولا يجوز أن يكون عنيفاً غليظاً، فإن الدَّاعيةَ إذا كان عنيفاً غليظاً فقد خالف أمر الذي يدعو إليه، فالدعوةُ إلى الله، والله أمر الدُّعاة أن يكونوا هيِّنين ليِّنين، أمرهم بالرِّفْقَ ونهاهم عن العنف، فإذا خالف الداعيةُ واستخدم العُنف وترك الرفق فقد خالف أمرَ الله، وخالف أيضاً هَدْيَ رسول الله ﷺ الذي يتَّبعه في الدَّعوة إلى الله.

لقد كان ﷺ هيِّناً ليِّناً، سهْلاً رفيقاً، وبذلك أحسن عَرْضَ دَعْوَته فنجح في تبليغ رسالته، ودخل النَّاسُ في دين الله أفواجاً، وامتنَّ الله تعالى عليه بقوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ الله لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّل عَلَى الله إِنَّ الله يُحِبُّ المُتَوَكِّلِينَ ﴾

[آل عمران:١٥٩].

فإذا أُعطِيَ الداعيةُ الرفقَ فقد أعطي مفاتيحَ النجاح في دعوته وتبليغ رسالته، وإذا تخلَّى الداعيةُ عن الرفق وتحلَّى بالعُنف ففشل في دعوته، فأُخذ أَخْذاً أو طُرِدَ طرْداً، أو قُتل قتلاً، فلا يلومنَّ إلا نفسه، فعلى نفسها جنت براقش.

ولذلك لما بعث نستورُ صاحبيْه إلى الملك يدْعُوانِه إلى دين عيسى عليه السلام أمرهما أن يرفقا بالملك، وأن يدعواه إلى دين عيسى بالحكمة والموعظة الحسنة، فخالف الصاحبان نصيحةَ نستور، فدخلا على الملك فأغلظا له القول وعنَّفاه فأخذهما الملكُ وحبسهما وآذاهما، فقال لهما نستور: «ما مَثَلكما إلا كمَثَلِ امرأةٍ لم تلد حتى كبِرَتْ سِنُّهَا فولدت، فاستعجلت شبابَ ولدِها لتنتفعَ به، فأطعمتْه أكثر مما يُطيق فقتَلَتْه، فلم تُحقِّق هدفَها»[1]، ومن هنا قيل: «**من استعجلَ الشَّيْء قبْلَ أوانِه عُوقب بحِرْمانه**».

نسأل الله ﷻ أن يرزقنا الرِّفقَ واللين، والرَّأفةَ والرحمة

---

(١) فيض القدير (٧٥/٦).

وجوب الاكتفاء بما سمانا الله به
المسلمين المؤمنين عباد الله

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي الله حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِالله هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الحج :٧٧، ٧٨].

هاتانِ الآيتانِ هما خواتيمُ سورةِ الحجِّ وفيهما، يوجِّه الله تبارك وتعالى عبادَه المؤمنين إلى أسباب الفلاحِ والنجاح والفوْزِ والصَّلاحِ في الدُّنيا والآخرة، وقد استهلَّ الله تبارك وتعالى هذه التوجيهاتِ بندائه على عباده بلقبِ الإيمان المحبَّبِ إلى نفوسهم ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ مُذكِّرَهُم بما يستلزم الإيمانُ من السَّمْعِ والطَّاعة لله ولرسوله كما قال تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا الله وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال:١] وهم مؤمنون فيلزمهم السَّمْعُ والطاعة :

* ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴾ :

وهذا أمر حلَّ محلَّ ﴿ أَقِيمُوا الصَّلاَةَ ﴾ وإنما عبَّر الله تبارك وتعالى عن هذا الأمْرِ بالرُّكوع والسُّجود لأنهما أعظمُ أركانِ الصَّلاة، ومن لم يُقِمْ صُلبَه في الرُّكوعِ والسجود فلا صلاة له : ﴿ فَاسْجُدُوا لله وَاعْبُدُوا ﴾ [النجم:٦٢]، ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [البقرة :٤٣]، ولا تكونوا من المكذِّبين الذين إذا قيل لهم

اركعوا لا يركعون، فإنهم سينْدَمون يوْمَ الدِّين: ﴿ **يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ** ﴾ [القلم: ٤٢، ٤٣]، أي فيستكبرون ولا يسجدون.

فحافظ يا عبْدَ الله على الصَّلاة فإنَّها المفرِّقة بيْنَ المسِلم والكافر، كما قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام « **العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ** »(١).

حافِظْ يا عبْدَ الله على الصَّلاة فإنَّها البابُ المنيع الذي يمنعُك من الكفْر والشِّرك، كما قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام « **إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالكُفْرِ تَرْكَ الصَّلاَةِ** »(٢).

فإذا ترك الصَّلاةَ فقد فتح باب الكفْر على مصراعيْه وخيف عليه أن يَلِجَه.

حافظ على الصَّلاة فإنها رأْسُ مالِك، وعمُود دينك، وأصْلُ عبادتك.

يقول النبيُّ ﷺ: « **رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلاَمُ وَعَمُودُهُ الصَّلاَةُ** »(٣).

حافظ على الصَّلاة فإنَّها أوَّلُ ما يُحاسِبُ عليه العبدُ من عمله يوْمَ القيامة فإن صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وأَنْجحَ وإنْ فَسَدتْ فَقَدْ خَابَ وخَسِرَ.(٤)

حافِظْ على الصَّلاةِ، فَمَنْ حافَظ عليها كان له عنْد الله عهْدٌ أن يُدْخِلَه الجنَّة، ومن لم يُحافِظْ عليها لم يكن له عنْد الله عَهْدٌ، إنْ شاء عذَّبه، وإنْ شاء غفَر له.(٥)

(١) صحيح: [ص. ج: ٨٨٤]، جه (١٠٧٩/ ٣٤٢/ ١)، ت(٢٧٥٦/ ١٢٥/ ٤)، ن(٢٣١/ ١).
(٢) م (٨٢/ ٨٨/ ١) د(٤٦٥٣/ ٤٣٦/ ١٢)، ت(٢٧٥١/ ١٢٥/ ٤)، جه(١٠٧٨/ ٧٣٤٢).
(٣) صحيح: [الإرواء: ٤١٣]، ت (٢٧٤٩/ ١٢٤/ ٤).
(٤) صحيح: [ص. خ: ٢٠١٦]، ت(٤١١/ ٢٥٨/ ١)، ن(٢٣٢/ ١).
(٥) صحيح: [ص. جه: ١١٥٠]، د (٤٢١/ ٦٣/ ٢)، جه (١٤٠١/ ٤٤٩/ ١).

حـافِظْ عـلى الصَّـلاة فإنَّهـا نـورٌ في قلبـك، ونـورٌ في قـبرك، ونـورٌ بـين يـديْك يـومَ القيامة، ومن لم يحافِظْ على الصلاة لم يجعل الله له نورًا، فوجْهُهُ في الدنيا مسودٌّ، وقلبُه في الدنيا أسـود، وقبْرُه مُظْلِم، ويـوْمَ القيامةِ يتخبَّط في ظُلـماتٍ بعْضُـها فـوْقَ بعـض، فـلا يستطيع أن ينجُوَ من نارِ جهنَّم والعياذ بالله.

حافِظْ على الصَّلاة وأنت سليمٌ صحيحٌ، قُمْ لله واركع، وصَلِّ لله واسْجُدْ، وعفِّرْ وجْهَك في التراب لله ﷻ، فإنَّ المستكبرين عن ذلك سيَدْخلُون جهنَّم داخرين، ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾ [غافر: ٦٠].

حافِظ على الصَّلاة ولا تسْهُ عنها فتكونَ من المعذَّبين، فإنَّ الله تعالى قال: ﴿ **فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ**﴾ [الماعون: ٤، ٥].

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ :

وهذا الأمر الثاني أعمُ من الأول، فالأوَّل أخصُّ والثَّاني أعمُّ، ولكنَّ الله تبارك وتعالى بدأ بالأخصِّ وهو الصَّلاة قبل الأعـمِّ وهـو العبادة تأكيـدًا عـلى الصلاة وتأكيـدًا عـلى المحافظة عليهـا، وكأنـه يُشـير إلى أنـه لا عبـادةَ مـن غـيْرِ صـلاة، فمـنْ صـامَ وزكَّـى وحـجَّ وهـو لا يصـلي فـأنّى يُقْبـلُ صـوْمُه وحجـه وزكاته، وهو تاركٌ للصلاة، مضيِّع لعمودِ الدِّين كما أخبر النبيُّ عليـه الصـلاة والسلام.

﴿ **وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ** ﴾ : عامٌ بعد خاصٍ، وقُدّم الخاصُّ علَيْه تأكيدًا عليه وتـذكيرًا بضرورة المحافظة عليه.

والعبادةُ هي الغايَةُ من خلق الخلق، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

وقال تعالى في الحديث القدسي « يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ »[1].

والعبادةُ اسْمٌ جامِعٌ لكلِّ ما يحبُّه الله تعالى ويرضاه من الأقوالِ والأعمال الظَّاهرةِ والباطنة، وهي لا تختصُّ بعملٍ دون عمل، ولا تكونُ في وقْتٍ دون وقت، وإنَّما تمتدُّ لتشملَ كلَّ عملِ خيْرٍ يَبْتَغِي به المؤمنُ وجهَ الله، وتمتدُّ لتشملَ حياةَ المسلم كلَّها ليلاً ونهارًا، يقظة ونومًا، كما أمر الله نبيَّه أن يقول : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

ولذلك كان معاذُ بنُ جبلٍ رضي الله عنه يقول : " إني لأَحْتَسِبُ نَوْمَتِي كما أَحْتَسِبُ قَوْمَتي "[2] أَحْتَسِبُ على الله عز وجل أن يُعطِيَني أجرًا وثوابًا وأنا نائمٌ كما أعمل وأنا يقظانُ وأَحْتَسِبُ الأَجْرَ والثَّوابَ عند الله، ذلك أنه لا ينام من أجل الخلود إلى الأرْض، ولا إثارةً للبطالة على العمل، ولا إثارةً للكسل على النشاط، إنما ينام بعْد وقتٍ بذل فيه وأعطى واجتهد فيه وجدّ فاحتاج الجِسْمُ إلى الرَّاحة بعد الجهاد والعبادة، وهو حينئذٍ ينام ويرجو الله أن يكتب له أجرًا وثوابًا على النوم.

(١) م (٢٥٧٧/ ١٩٩٤/ ٤).

(٢) متفق عليه : خ (٤٣٤٤ و ٤٣٤٥/ ٦٢/ ٨)، م (١٦٥٢/ ١٤٥٦/ ٣).

﴿ ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ فإن فعلتم ذلك فقد قَوِيَتْ صِلَتُكم بالله ﷻ، ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ ﴾ وجَّههم بعد ذلك إلى فعل الخير لتَقْوِيَةِ الصِّلَةِ بيْن بعْضِهم البعض.

أمرَهم بالرُّكوعِ والسُّجود والعبادة لتقْوِيَةِ صِلَتهم بالله سبحانه، ثُمَّ أمرهم بفِعْلِ الخيْرِ لتقْوِيَةِ صِلَةِ بعْضِهم ببعض، وتقْوِيَةِ العلاقات وزيادةِ المودات، وتأكيدًا على الأُخوَّة.

* ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ ﴾ :

والخيرُ لفظٌ عام يشمل كلَّ ما يعود على البشريَّة بالنَّفع : برُّ الوالديْن خير، صِلَةُ الأرْحام خير، إكرامُ اليتيم خير، إعطاءُ المسكين خير، السَّعْيُ على الأرملة خير، الإحسانُ إلى الجيران خير، كفُّ الأذى عن النَّاس خير، إماطةُ الأذى عن الطريق خير، فِعْلُ كلِّ ما يعود على النَّاسِ بالنَّفْع فهو خيرٌ، والخير كثيرٌ.

ووجوه الخير كثيرة، ولذلك قال النبي ﷺ : « **كُلُّ سُلاَمَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ تَعْدِلُ بَيْنَ الاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلاَةِ صَدَقَةٌ وَإِمَاطة الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ لك صَدَقَةٌ** »[1].

والذي يدقِّقُ النَّظرَ في أحوال المسلمين اليوْم يجدُ أنَّ صِلَتَهم بالله ممزَّقَةٌ وصِلَتَهم بعْضِهم ببعضٍ ممزّقة، فالصلاةُ مهجورة، وكثيرٌ من المسلمين لا يُصَلُّون ولا يرْكعون ولا يسْجُدونَ، والعبادةُ معطَّلة، انشغل النَّاسُ بدنياهم عمَّا خُلِقُوا له، انشغلوا بطلب المَضْمُونِ عن غَيْرِ المضمون، انشَغلُوا بطلبِ الرِّزق وهو المضمونُ عن غَيْرِ المضمونِ

(١) متفق عليه : خ (٢٩٨٩ و ١٣٢/٦)، م(١٠٠٩/ ٦٩٩/ ٢).

وهو الجنَّة، فالله سبحانه وتعالى خلقَنا وتكفّل برزْقنا وضَمِنَه لنا وأقسم على ذلك ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢، ٢٣].

والنبيُّ عليه الصلاة والسلام يقول: « إِنَّ الرِّزْقَ لَيَطْلُبُ العَبْدَ أَكْثَرَ مِمَّا يَطْلُبُهُ أَجَلُهُ »(١)، ويقولُ ﷺ: « لَوْ أَنَّ ابْنَ آدَمَ هَرَبَ مِنْ رِزْقِهِ كَمَا يَهْرَبُ مِنَ الْمَوْتِ لأَدْرَكَهُ رِزْقُهُ كَمَا يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ »(٢).

أما الجنَّةُ وهي غير المضْمونةِ فقد غفل النَّاس عنها، جَرْوا وراء الرِّزق وانْشَغلُوا بلُقْمَةِ العَيْش، وسَهِرُوا اللَّيْلَ مِنْ أجلها، وعَمِلُوا بالنَّهارِ من أجلها، وتركوا العملَ من أجْلِ الجنَّة سِلعةِ الله ﷻ.

أتاك أيها الغافلُ أنَّك للنار واردٌ، ولم يأتك أنَّك منها صادر، فهل انشغلتَ بما يُنْجيكَ من النار: ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ [مريم: ٧١]، ولستَ على يقينٍ من أن تَصْدُر عنها وتخرُج منها، فهل انشغلتَ بالعمل بما يُنْجِيك من عذاب الله، وسَعَيْتَ على رزقِكَ كما أمرك الله سَعْيًا بُتؤدَةٍ وطَمأنينة، تنفيذًا للأمْرِ فقط، وإلاَّ فلَوْ أنك قعدْتَ بدون عملٍ ما نقص من رزقك شيء.

الصِّلَةُ بيْنَنا وبيْنَ الله ممزَّقة مُهَلهَلَة، لا صلاةَ، لا زكاةَ، لا طاعةَ، لا إحسان، لا بر، والصِّلَةُ بيْنَنا أيضًا بعْضِنا ببعْضٍ ممزَّقة، فلا ولدَ يبرُّ أبويْه، ولا أخَ يصلُ أخْتَه، ولا ذا رَحِمٍ يصل رَحِمَه، ولا قريب يعطي ذوى القربى حقوقهم، ولا أب متَّعه الله بأبنائه

(١) حسن: [ص.ج: ١٦٢٦] وعزاه السيوطي للطبراني.

(٢) حسن: [س. ص: ٩٥٢] وقال الشيخ: رواه أبونعيم في "الحلية" (٧/ ٩٠، ٧/ ٢٤٦) وابن عساكر (٢/ ١١/ ١).

ومتّع أبناءه به يعطف على يتيمٍ فقَد أباه، ولا زَوْجَ يعطف على أرملةٍ فقدت زوْجها، ولا جارَ يُحْسِنُ إلى جاره، ولا أخَ يعْطِفُ على أخيه.

صلتنا بعضِنا البعض ممزَّقة مُهَلهَلَة، لذلك فقدت الأمة كثيرًا من الفلاح الذي وعدَها الله به، ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

فلمَّا انقطعَتْ صِلتُنا بالله وانقطَعتْ صلتُنا ببعْضِنا البعض فقدْنا كثيرًا من الفلاح والنجاح، فقدت الأمَّةُ كثيرًا من مجْدها، وفقدتِ الأمةُ كثيرًا من عِزَّتِها، وفقدت الأمةُ كثيرًا من سيْطَرتها، وفقدت الأمة كثيرًا من هيْبتها بل أضاعت الأمةُ أراضٍ كان يملكها آباؤها وأجدادُها من قبل، ولم يقف الأمرُ عند هذا الحدِّ حتى ضاع من الأمَّة ثالثُ الحرَمَيْن، وأُولى القبلتين، ومسْرَى النبيِّ عليه الصلاة والسلام.

ولن تَسْتَرِدَّ الأُمَّةُ هذا المجدَ، ولن تستردَّ الأمةُ هذا العزّ، ولن تستردَّ الأمةُ هذه السيادةَ، ولن يرجع إلى الأمَّةِ ما ضاع منها إلا إن قويَتْ صِلتُها بالله ﷻ، فتقيمَ الصلاة، وتؤتِيَ الزكاة وتَعْبُدَ الله، وتقويّ صلتَها بعْضِها ببعض، يعطفُ بعضُنا على بعض، ويرحَمُ بعضُنا بعضا، ويتواضُع بعضُنا لبعض، حتى نكونَ كما وصف الله رسولَه والمؤمنين ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح:٢٩] وكما وصف الله أولياءه ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة:٥٤].

الأُمَّةُ وضْعُها اليومَ بخلافِ الموْصُوفِ في القرآن الكريم، لا رحمةَ ولا عطْفَ، ولا حنانَ ولا شفَقة، ولا ذِلَّةَ من بعْضِهم لبعض، إنَّما علّوٌ واستكبار، وتنافس على

الدنيا، حِقْدٌ وحسد، وضغينة وشحناء، وعداوة وبغضاء، فأنّى ينصُرنا الله ونحن لا ننصرُ الله ﷻ .

◆ ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ :

أي اسْتَفْرِغُوا وُسْعَكم في الجهاد في سبيل الله، لا تألُوا جُهْدًا في الجهاد في سبيل الله، لا تبْخَلُوا بها في وُسْعِكم وإن قلَّ ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾، بالقلبِ والجَنان، والدَّعوة والبيان، والسلاح والسنان، ولا تتمُّ هذه المجاهدة إلا أن يعرف المجاهدون أعداءهم الذين فُرض عليهم جهادُهم.

وأعداؤنا كثرٌ ولكنَّهم قسمان : عدوٌّ داخلي، وعدوٌّ خارجي، ولا تمكن مجاهدةُ العدوِّ الخارجيِّ، إلا بعدَ مجاهدةِ العدوِّ الداخلي، فإنَّ الجبهةَ الداخليَّةَ هي الدِّرْعُ الواقي للجَبْهة المواجهة، وإنَّ الجبْهةَ الداخليَّةَ هي الجيْش الثاني الذي يمشي وراء الجيش الأول، ويوْمَ أن تنهارَ الجبْهَةُ الداخليَّةُ وتنْهَزِمَ فسُرْعان ما يدور العدوُّ ويدخلُ علينا في تلك الثَّغْرةِ التي أوتينا منها.

فلذلك لابُدّ من تحصين الجبْهةِ الداخليَّة، حتى إذا خرج المجاهدون للعدوِّ في الخارج كان وراءهم حِصْنٌ حصين، ودِرْعٌ واقٍ، لا يأتيهم العدوُّ من قِبَله أبدًا، ولذلك لما خرج النبيُّ ﷺ إلى العدوِّ يوْمَ الأحزاب وخنْدَقَ الخنْدقَ، وكان المنافقون ومعهم اليهودُ في المدينة من ورائهم، التف يهوديٌّ وذهب إلى يهود بني قريظة من وراء ودعاهم إلى نقض العهد، ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴾ لماذا ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ بعد ما كنتم مطمئنينَ آمنينَ على الأسفل فنقض يهودُ بني قريظةَ العهْدَ فخلَتِ الدِّيارَ من ورائكم وانهارت الجبَهةُ الداخليَّةُ فخِفْتم عليها ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴾ .

يوْمَ أن تكونَ الجبْهَةُ الداخليَّةُ دِرْعًا واقيًا، وحصنًا حصينًا، لا يُخْشَى عليها البتة، فهنالك من اليسير جدًا أن نغلب العدوَّ الخارجيَّ وننتصرَ عليه بإذن الله.

العدوُّ الدَّاخِليُّ هو النَّفْس، فلا يمكن للمؤمنِ أن يخرُجَ لجهادِ العدوِّ الخارجيِّ حتى ينتصرَ على نفسِه أوَّلاً.

إني ابتليتُ بأربعٍ ما سُلِّطوا ... إلا لشِدَّةِ شِقْوَتِي وعنائي
إبليسُ والدُّنْيا ونفسي والهوى ... كيف الخلاصُ وكلُّهم أعدائي

أعْدَى أعدائِك نَفْسُكَ التي بيْن جنْبَيْك، لذلك كان جهادُ النَّفْسِ فرْضَ عَيْنٍ على كلِّ مؤمنٍ، وقال النبيُّ ﷺ « المُجَاهِدُ - أي المُجَاهِدُ حقًا - مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ الله »[١].

وجهادُ النَّفْس على أربع مراتب [٢] :

الأولى : أن تُجاهِدَها على تعلّم الهدى ودينِ الحقِّ الذي لا فلاحَ لها ولا نجاحَ في الدُّنيا والآخرة إلا بتعلُّمه.

الثانية : أن تجاهِدَها على العملِ بما عَلِمَتْ من الهدى ودينِ الحقِّ، وإلاَّ فإنَّ مجرَّد العلم إن لم يضرَّك لم ينفعْك، وضَرَرُ العلم الذي لا يُعْمَل به ثابت، وضرَرُ العلم الذي لا يُعمل به متحقِّق، ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة:٥]، ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنْ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف:١٧٥، ١٧٦].

---

(١) صحيح : [ص.ج : ٦٥٥٥]، ت (١٦٧١/ ٨٩/ ٣)، حب(١٦٢٤/ ٣٩١) .

(٢) انظر " زاد المعاد " (٩-١١/ ٣) .

والنبيُّ عليه الصلاة والسلام يقول: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِالرَّحَى فيجيء الناس فَيَقُولُونَ يَا فُلاَنُ مَا لَكَ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُنا بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَانا عَنِ المُنْكَرِ؟ يَقُولُ بَلَى قَدْ كُنْتُ آمُرُكم بِالمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ وَأَنْهَاكم عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ»[1].

الثالثة: أن تُجاهِدَها على تعليم النَّاسِ ما تعلَّمت، فلا يكفي أن تتعلَّم الهدى وتعملَ به لنفسك حتى تعلِّمه غيرَك وتَهْدِيَ النَّاس إليه.

الرابعة: أن تُجاهِدَ نفْسَك على الصَّبْرِ على تحمُّلِ المشَاقِّ في التعلُّم وفي العمل وفي التَّعليم، فمن تعلّم وعَمِلَ وعلَّم فذلكم العالِمُ الربانيُّ الذي يُدعى في ملكوتِ السمواتِ عظيما، فذلكم الربانيون الذين أمرنا الله أن نكونَ منهم ﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩].

فإذا جاهدْتَ نفْسَك وألزمْتَها دينَ الله، وعَمِلتَ بشَرْع الله، قُمْتَ بالواجباتِ وتركْتَ المحرَّمات، وفعلتَ الخيْر، حينئذٍ وجب عليْك أن تُجاهِدَ العدوَّ الخارجيَّ من الكفار والمشركين.

فمَنْ جاهدَ نفْسَه في ذاتِ الله ثم خرجَ لجهادِ أعداء الله، وجد عدوًا وسَطًا قاعدًا له في الطريق يصدُّه عن مقْصِده وعن غايتِه فلا يُمْكِنُه الوصولُ إلى العدوِّ الخارجي حتى يُجاهِدَ ذاك العدوَّ الذي قعدَ في طريقه يصدُّه عن مقْصُودِه ويردّه عن غايته، ذاك العدوُّ الوسَطَ القاعدُ لك بطريق الخيْر هو الشَّيطانُ الرَّجيم الذي أقسم بعزَّة الله ﷻ ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف:١٦].

(١) متفق عليه: خ(٣٢٦٧/ ٣٣١/ ٦)، م(٢٩٨٩/ ٢٢٩٠/ ٤).

فلا تأتي بابًا من أبواب الخير إلاَّ وجدت الشيطان قاعدًا لك عليه يصدُّك عنه ويردّك ولذلك قال النبي ﷺ : « **إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ كلها قَعَدَ لَهُ فِي طَرِيقِ الإِسْلاَمِ فَقَالَ : تُسْلِمُ وَتَتْرُكُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ آبَائِكَ ؟ فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، فَقَعَدَ لَهُ فِي طَرِيقِ الهِجْرَةِ فَقَالَ : تُهَاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ ؟ وَإِنَّمَا مَثَلُ المُهَاجِرِ كَمَثَلِ الفَرَسِ فِي الطِّوَلِ، فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الجِهَادِ فَقَالَ : تُجَاهِدُ ؟ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالمَالِ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ، فَتُنْكَحُ المَرْأَةُ وَيُقْسَمُ المَالُ ؟ فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ** »[1].

فإذا جاهدْنا أنفسَنا في ذات الله، ثم نادى منادِ الجهادِ يا خيْلَ الله اركبي فخرجنا لجهادِ العدوِّ وجدْنا الشَّيطَان قاعدًا لنا في الطريق : لماذا تُجاهدون ؟ الجهادُ معْناه الموْت، معناه أن تُيتَّم الأطفال، وتُرمَّل النساء، وتُقْسَمَ الأموال وكذا وكذا، فلابُد إذًا من جهادِ الشيطان.

وجهادُ الشيطانِ على مرتبتَيْن :

المرتبة الأولى : أن تجاهِدَه على دفع ما يُلقِي في قلبِك من الشهوات، يقولُ النبيُّ عليه الصلاة والسلام « **حُفَّتِ الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ** »[2].

الزِّنا شهوة، الشَّيطانُ يغْريك بها ويُحسِّنُها في نظرك ويُحبِّبها إلى قلبك، فلابدَّ أن تجاهِدَ الشَّيطانَ على أن تحصّن فرجك، أكلُ الحرام شهوة، الشيطانُ يُحبِّبها إلى قلبك ويُزيِّنها في نظرك، لابدَّ أن تجاهِدَ الشَّيطانَ على الامتناع من أكْلِ الحرام، وكذلك قُل في

(١) صحيح : [ص.ج : ١٦٤٨]، ن (٢١ و ٦/٢٢).

(٢) م (٢٨٢٢/ ١٧٤/ ٤)، ت (٢٦٨٤/ ٩٧/ ٤).

جميع الشَّهواتِ الفاسدة التي يُحبِّبها الشيطانُ إلى قلبك، تجاهِدَ الشَّيطانَ على أن لا تستجيبَ لداعِي الشهوة.

المرتبة الثانية : أن تجاهِدَه على دَفْع ما يُلقِي في قلبك من الإراداتِ الفاسدة والنيّات الفاسدة، الشيطانُ يريد أن يُقْعِدكَ عن فِعْلِ الخيْر فيرغِّبك في النِّفاق، ويرغِّبك في الرِّياء، ويرغِّبك في العمل ابتغاءَ وجْهِ الناس، فتجاهده على رفْضِ هذه الشُّبهات والإرادات الفاسدة، فمن فعل ذلك كان من أئمة الهدى كما قال ربنا ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾ [السجدة : ٢٤].

فإذا جاهدْنا أنفُسَنا في ذاتِ الله، وجاهدْنا الشَّيطانَ وانتصرنا عليه، وجب علينا بعد ذلك أن نُجاهِدَ في سبيل الله الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله، لأننا أمةٌ أخرِجَتْ للناس لتأمرَهم بالمعْروف وتنهاهم عن المُنكر، فوجب علينا أن نقومَ بهذه الوظيفةِ وأن نُؤدِّيَ هذا الواجب، فمن وقف في طريقنا يريدُ أن يحُولَ بيننا وبين أداءِ وظيفتنا التي خلقَنا الله من أجلها، فمن وقف في طريقنا يمنع الخيْرَ عن الوصولِ إلى الناس، وجب علينا قتالُه إلى غايتيْن اثنتيْن : إما أن يُعْطِيَ الجزْية، وإما أن يُسلم، وإن أبي قوتل حتى يستجيبَ إلى إحداهما ولا إكراهَ في الدين، الجهادُ في الإسلام لم يُشْرَعْ لإكراهِ النَّاس على اعتناقِ عقيدةِ الإسلام، فإنَّ الرَّجلَ إذا أكْره على اعتناق عقيدةٍ اعتنقها بلسانه دُون قلبه، وهذا هو النِّفاقُ بعيْنه الذي حاربه الإسلام.

الجهادُ في الإسلام لم يُشْرَع لإكراه الناس على الإسلام، إنما شُرِعَ الجهادُ في الإسلام لإزالة العقباتِ من طريقِ الدُّعاةِ إلى الإسلام، نحن نخرج في سبيلِ الله، نبلِّغ دينَ الله، وننشر دَعْوَة الله، فمن دخل في ديننا كان منَّا، له مالنا وعليهْ ما عليْنا، وإنْ أبى

إلا التمسُّكَ بدينه قلنا له ادفع الجزيةَ، ضريبةَ عنايتك وأنت في بلاد الإسلام، فإن دفَعها حُقن دمُه، وصيْن عِرْضُه، وعاش في حماية المسلمين، وأما الذين يأبون من الكفَّار إلا أن يصدُّوا الدُّعاةَ إلى الله عن سبيل الله فهؤلاء الذين يجب على المسلمين جهادُهم.

وهذا الجهادُ جهادُ الكفَّار والمشركين هو ذِرْوَةُ سنَامِ هذا الدِّين، كما قال النبي ﷺ : « رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلاَمُ وَعَمُودُهُ الصَّلاَةُ وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ »[1].

والله تبارك وتعالى قد كتب علينْا هذا الجهادَ وهو يعلم أننا نكرَهُه ولكن كتبه علينا لما لنا فيه من الخيْر ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١٦]، وقد رغَّبنا الله تبارك وتعالى في الجهادِ في سبيله ووعدَنا عليه الخيْرَ الجزيل والثَّواب الوفير، قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ ۝ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ ﴾ [الصف:١٠-١٣].

وكما رغّب سبحانه وتعالى في الجهاد حذّر من التخلُّف عنه والقُعودِ عنه، وعاب على المتخلِّفين القاعدين وأنْكرَ عليهم، وتوعَّدَهم بالعذاب الأليم في الدُّنيا والآخرة، بل هدَّدهم أن يستَبْدِلَ بهم قومًا غيرَهم ثم لا يكونوا أمثالهم، قال سبحانه : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالحَيَاةِ

(١) حسن صحيح : ت (٢٧٤٩/ ١٢٤/ ٤)، وقال : هذا حديث صحيح .

الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِل قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَالله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[التوبة:٣٨،٣٩].

والنبيُّ عليه الصلاة والسلام رغّب كثيرًا في الجهادِ في سبيل الله وحذّر أيضًا من تَرْكه، وقد قال ﷺ : « إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالعِينَةِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، واتبعتم أَذْنَابَ البَقَرِ، وَتَرَكْتُمُ الجِهَادَ في سبيل الله، سَلَّطَ الله عَلَيْكُمْ ذُلاًّ لاَيَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِه »[1].

وهل رأيتَ ذُلاًّ ابتُلِيَتْ به الأمَّةُ المسْلِمَةُ على مدار التاريخ مثْل الذُّلِّ التي ابتُلِيَتْ به في هذا الزمان ؟!! دولةٌ كافرةٌ تسْعَى في الأرْض فسادًا، شَرْقًا وغربًا، وشمالاً وجنوبًا، تحاصِرُ مَنْ شاءت، وتقْتُل من شاءت، وتضْرِب من شاءت، وليس بالأرضِ داعٍ ولا مغيث.

لا أحدَ يستنكف، ولا أحدَ يرفض، ولا أحدَ يقول نحن هنا، هؤلاء إخواننا، إذا أكلتم إخوانَنا اليوم ستأكلوننا غدا، فلابدَّ أن نقف بجوار إخواننا وندافِعَ عنهم، لا.. لا، فأي ذل بعد ذلك، فلابدَّ للأمَّة من إعادة النظر في صِلَتِها بربِّها وصِلَتِها بعْضِها ببعض.

﴿ وَجَاهِدُوا فِي الله حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ جاهدُوا أنفُسَكم أوَّلاً لتقيموا دَوْلَةَ الإسلام في قلوبكم، ثم جاهِدُوا الأعداءَ لتقيمُوا دَوْلَةَ الاسلام في أرْضِ الله ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا الله يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ الله فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ الله عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الله مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد :٧-١١]، أي: ناصِرُهم حين ينْصُرونه، وإذا لم ينْصُروه ترَكهم وتخلّى عنهم.

(١) صحيح : [ص. د : ٢٩٥٦]، د (٣٤٤٥/ ٣٣٦/ ٩).

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمْ الله فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران :١٦٠].

- ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ :

ولما أمر الله تعالى عبادَه المؤمنين بالجهاد حثّهم عليه، وشجّعهم عليه ورغّبهم فيه فقال : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي الله حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ اصطفاكم، اختاركم، فضّلكم على العالمين، وجعلكم خيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للناس أجمعين، وهذه نِعْمَةٌ عظيمة، ومزيّةٌ جميلة، وفضْلٌ كبيرٌ يستوْجِبُ الشُّكر، ومن القيام بالشكر أن تجاهِدُوا في الله حقَّ جهاده.

﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ اصطفاكم واختاركم وفضَّلكم على العالمين، هو اجتباكم وخفَّف عنكم ورفع عنكم الحرج ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ فَكُلُّ ما عجزْتم عنه سقط عنكم، « صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ »[1].

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا ﴾ [المائدة:٦]، ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ [البقرة :١٨٥]، ﴿ وَلله عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران:٩٧]، ﴿ فَاتَّقُوا الله مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦]، ﴿ لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة :٢٨٦]، ﴿ لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا ﴾ [الطلاق: ٧].

الدِّينُ يسير، الدِّين سَهْلٌ، الدِّين سَهْلٌ جدًا ﴿ يُرِيدُ الله بِكُمْ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة :١٨٥].

---

(١) خ (١١١٧/ ٥٨٧/ ٢)، د(٩٣٩/ ٢٣٣/ ٣)، ت(٣٦٩/ ٢٣١/ ١)، جه(١٢٢٣/ ٣٨٦/ ١).

◆ ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ :

ملةَ : منصوبٌ لِفعلٍ محذوفٍ تقديره : الزَمُوا مِلَّةَ أبيكم إبراهيم ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة :٧٧]، ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة :١٣٥، ١٣٦].

مِلَّةَ أبيكم إبراهيم الزَمُوها، الزَمُوا مِلَّةَ أبيكم إبراهيم فإنَّها خَيْرُ المِلَلِ، عليكم بدينِ أبيكم إبراهيم خَيْرِ الأديانِ.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ الله إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء :١٢٥].

◆ ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ :

﴿ هُوَ ﴾ أي الله لا إبراهيم، لأنَّ الضمائِرَ كلَّها المتَّصِلَةَ والمُنْفَصِلَةَ في هذه الآيةِ عائِدةٌ على الله ﷻ : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي الله حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ الضمير المتَّصِلُ عائِدٌ على الله ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ أي الله ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي وما جعل هو أي الله ﴿ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ﴿ هُوَ ﴾ أي الله، الله سمَّاكم المسلمين " من قبل " أي في الكُتبِ السَّابقة في التَّوراةِ والإنْجيل والزَّبُور وصُحُفِ إبراهيمَ وصُحُفِ موسى ﴿ وَفِي هَذَا ﴾ أي وفي هذا القرآن، الله سماكم المسلمين اختار الدِّين وسمَّاه الإسلام ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾ [المائدة :٣].

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران :١٩]، ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران :٨٥].

اختار الله الدِّينَ وسمَّاه الاسلامَ ولم يترك لَمِنْ رَضِيَ بهذا الدِّين دينًا حريَّةَ التصرُّفِ في المسمَّيات والألقاب، لم يترك لأهْلِ الإسلام أن يُسَمُّوا أنفُسَهم كذا أو كذا، إنما اختار الدِّين وسمَّاه الإسلام، وسمَّى أتباعَه مسلمين، ﴿ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا ﴾.

فهل هناك اسمٌ أحسنُ من هذا الاسم ؟ وهل هناك اسمٌ خيرٌ من هذا الاسم؟ وهل هناك اسمٌ أشرفُ من هذا الاسم ؟ وهل هناك اسمٌ أفضلُ من هذا الاسم ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت :٣٣].

أنا مسلم وكفَى، لستُ مسْلِمًا كذا وكذا، لا شرقيَّة ولا غربيَّة، ولا حزبيَّة ولا ولا، وإنما إسلاميَّة إسلاميّة.

أبي الإسلامُ لا أبَ لي سواه إذا اعتَزُّوا بقَيْسٍ أو تميم

فاحفظْ هذه الآيَةَ أيُّها المسْلمُ، واحفظْ هذه الآيَة أيُّها الشابُّ، إذا سئلتَ عن نَسبِكَ فقل الإسلام، وإذا سئلتَ عن شيْخِكَ فقل الرسول، وإذا سئلت عن طريقتك فقل الاتِّباع، وإذا سئلت عن مذْهبك فقل السنة، وإذا سئلت عن قَصْدِكَ قل ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ وإذا سئلت عن رباطك فقل بيوتٌ أَذِنَ الله أنْ تُرْفَعَ ويُذْكَرَ فيها اسْمُه.

نحن مسلمون مسلمون، لسنا حِزْبيِّين، لسنا شِيَعة، لسنا كذا ولسنا كذا، نحن مسلمونْ سمَّانا الله مسلمين فرضينا بما سمَّانا الله به.

رضينا بالله ربا، وبمحمدٍ رسولا، وبالإسلام دينا، وباسم المسلم اسما ولقبا وكفى.

بذلك أمرنا الله ورسولُه، ومن خالف فالنَّار أوْلى به؛ ولذلك قال عليه الصلاة والسلام « وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ مِنْ جُثَاءِ جَهَنَّمَ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ، فَادْعُوا عباد الله بِمَا سَمَّاكُمُ الله به المُسْلِمِينَ المُؤْمِنِينَ عِبَادَ الله » [١].

في غزوة بني المُصْطَلِق لما دفع مهاجريٌّ أنصاريًا وثارت حميَّةُ الجاهليَّة، ودعى كلٌّ لنفسه - وإن كانوا قد أُقروا على هذه التَّسْمِيَةِ من قبل - لكن لما ثارتْ حميَّة الجاهليَّة. وقال المهاجريُّ يا للمهاجرين، وقال الأنصاريُّ يا للأنصار، قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام « أَبِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَة » [٢] دعوكم من هذه المسمَّيات التي فرَّقَتِ الأمَّة ومزَّقَتْ شمْلَها، وأنهكت قوَّتَها.

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الله لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [آل عمران :١٠٣ - ١٠٦].

قال ابنُ عبَّاسٍ : يوْمَ تبيضُّ وجوُه أهْلِ السنَّةِ والجماعة، وتسودُّ وجوهُ أهل الفُرقة والزيغ والضلالة [٣].

---

(١) صحيح : ص.ج : [١٧٢٠٧] ، ت(٣٠٢٣/ ٢٢٥/ ٤)، حب(١٥٥٠/ ٣٧٢) ، ك(٤٢٦/ ١).

(٢) متفق عليه : خ (٤٩٠٥/ ٦٤٨/ ٨)، م(٢٥٨٤/ ١٩٩٨/ ٤) ، ت(٣٣٧٠/ ٩٠/ ٥) .

(٣) الدر المنثور (٢٩١/ ٢) .

عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وستفترق هذه الأمة إلى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كلها في النار إلا وَاحِدَةٌ، قالوا ماهي يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ الْجَمَاعَةُ »[1].

فعليك بالجَماعة ، عليك بالأمْرِ الأوَّلِ الذي كانوا عليه قبل أن يتفرَّقوا.

متى بدأ التفرُّق، ودبَّ الخلاف، وصارت الأحزاب، وصار المسلمون شيعًا وفرقًا ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ فدَعْك من هذه الأحزاب كلِّها وانْفُض يديْك منها جميعا، وارجع إلى النُّقْطَةِ الأولى التي التَقْوا عليها « مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي »، « عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ من بعدي، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ » تلك وصيَّةُ رسُولِ الله لكلِّ من أراد النَّجاة، قالها وهو في آخر أيام الحياة.

عَنِ العِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رضي الله عنه قَالَ : وَعَظَنَا رَسُولُ الله ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، فقلنا يارسول الله كأنها مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فأوصنا قَالَ : « أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تأمر عليكم عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بعدي فسيَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيرًا فَعَلَيْكم بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ من بعدي، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضَلاَلَةٌ »[2].

﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ فاكتفوا بما سماكم الله به، ولماذا ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣].

(١) صحيح : [ص. جه :٣٢٢٦]، جه (٣٩٩٢/ ١٣٢٢/ ٢) .

(٢) صحيح : [ص.د :٣٨٥١]، د(٤٥٨٢/ ٣٥٨/ ١٢)، ت(٢٨١٦/ ١٤٩/ ٤)، جه(٤٢/ ١٥/ ١) .

جاء في الصَّحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال : « يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَقُولُ الله : هَلْ بَلَّغْتَ ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، أَيْ رَبِّ، فَيَقُولُ لأُمَّتِهِ هَلْ بَلَّغَكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ لاَ، مَا جَاءَنَا مِنْ شَيْءٍ، فَيُقَالُ لِنُوحٍ مَنْ يَشْهَدُ لَكَ ؟ يَقُولُ : مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَنَشْهَدُ أنه بَلَّغَ، وهو قَوْلُهُ تعالى: ﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ »[1].

◆ ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ ﴾ :

ومرَّةً ثانيةً يُذَكِّرُهم بتَقْوِيَةِ الصِّلَةِ بربّهم، وتقوية صلة بعضهم ببعض، فيقول : ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ ﴾، الصلاة هي الصلة بيْنَنا وبيْن الله، متَى أُقيمَتِ فالصلة موْصولة، إذا رأيت المساجدَ في الظُّهر والعَصْر والفَجْر كما تراها في الجُمعة فاعلم أنَّ الأمة موصولة بالله ﷻ ، وإذا رأيت المساجدَ خاويةً على عروشها في الأوقات الخَمس إلا يوْمَ الجمعة فاعلم أن الصلة بالله ما زالت مقطوعة.

هل فرض الله عليْنا الجُمعَة فقط ؟ لماذا تمتلأ المساجدُ يوْمَ الجُمُعةِ بالمصلِّين، لماذا تضيقُ المساجدُ بالمصلِّين يوْمَ الجمعة ؟ أفرَضَ الله علينا الجُمُعةَ فقط ! لا والله. « خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ الله عَلَى العِبَادِ في اليوم والليلة»[2]. وحقٌّ على كل مَنْ سَمِعَ النداءَ من المسجد أن يُصَلِّيَ في المسجد.

جَاءَ رجل إِلَى النبي عليه الصلاة والسلام يقول : يا رَسُولَ الله إِنَّهُ رَجُلٌ أَعْمَى، وإِنَّ المَدِينَةَ كثيرةُ الدَّوابِّ والهَوامِّ، ولَيْسَ لِي قَائِدٌ يَقُودُنِي، فَأْذَنْ لي أَنْ أُصَلِّيَ فِي الدار، فرخَّص لَهُ، فَلَمَّا أدبرَ الأعْمى نادَاهُ فقَالَ : « أَتَسْمَعُ النِّدَاءَ أَتَسْمَعُ حَيَّ عَلَى الصَّلاةِ حَيَّ

(١) خ (٤٤٨٧/ ١٧١/ ٨)، ت(٤٠٤٠/ ٢٧٥/ ٤).

(٢) صحيح : [ص. جه: ١١٥٠]، جه (١٤٠١/ ٤٤٩/ ١)، ن(٢٣٠/ ١)، د(٤٢١/ ٩٣/ ٢).

عَلَى الفَلاَحِ ؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَ فَأَجِبْ »[1]. الأعْمَى غَيْرُ معْذُورٍ عن التخلُّفِ عَنِ الجماعة، فما بالك ياذا البصر !

* ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ ﴾ :

﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ ﴾ لتقوى صِلَتُكم بالله، ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ لتقْوى صلَتُكم بعْضِكم ببعض، ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ ﴾ فإنْ فعلتُم فُزْتُم بنَصْرِ الله ﴿هُوَ مَوْلاَكُمْ﴾، ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ ﴾ [محمد:١١].

يَوْمَ أُحدٍ لمَّا أصيبَ المسلمون، وقف أبو سفيان يضْحك ويشْمَتُ ويقول : اعْلُ هُبَلُ، اعْلُ هُبَلُ، لنا العُزَّى وَلاَ عُزَّى لَكُمْ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « أَلاَ تُجِيبُوهُ ؟» قَالُوا ماذا نجيب يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : قُولُوا : « اللهُ مَوْلاَنَا وَلاَ مَوْلَى لَكُمْ »[2].

الله مَوْلاَنا . . . الله ناصِرُنا . . . عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا . . . ﴿ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ القَوْمِ الكَافِرِينَ ﴾ [يونس :٨٥، ٨٦].

---

(١) م (٦٥٣/ ٤٥٢/ ١)، ن (١٠٩/ ٢).

(٢) خ (٤٠٤٣/ ٣٤٩/ ٧).

كيف تكون من أهل السنة والجماعة ؟

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣].

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يُجَاءُ بِنُوحٍ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ هَل بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ، فَتُسْأَلُ أُمَّتُهُ هَل بَلَّغَكُمْ فَيَقُولُونَ: مَا جَاءَنَا مِنْ نَذِيرٍ فَيَقُولُ: مَنْ شُهُودُكَ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَيُجَاءُ بِكُمْ فَتَشْهَدُونَ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ الله ﷺ ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ قَالَ عَدْلاً ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ »[1].

وقد ترجم البخاريُّ باباً في 'كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة' سمَّاه باب ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ وما أمر به النبيُّ ﷺ بلزُوم الجماعة، وهم أهْلُ العلم. ثم أسند الحديثَ المذكور.

قال الحافظ: ومُرادُه بيان أَنَّ الخطابَ في قوله ﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾ وإنْ كان عاماً إلاَّ أَنَّ المرادَ به الخاصُّ، لأَنَّ أهلَ الجهل ليسوا عُدولاً، لأَنَّ العِلمَ شرْطٌ في قبُول الشَّهادة، كما قال تعالى : ﴿إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦]، فالجاهلُ لا يُسْتَشْهَدُ به ولا تُقْبَلُ شهادتُه إذا شَهِد، وكذلك المبتدع ليس عدلاً فلا تُقبل شهادته، فتبيَّن أَنَّ المراد بالوصفِ المذكورِ أهْلُ السنَّة والجماعة وهم أهلُ العلم الشَّرعيِّ، لأَنَّ النبيَّ ﷺ عدّلهم فقال: «يَحْملُ هذا العِلمَ مِنْ كُلِّ خَلفٍ عُدولُه »[2].

---

(١) خ(٤٤٨٧/ ١٧١و١٧٢/ ٨)، ت(٤٠٤٠/ ٢٧٥/ ٤) .

(٢) صحيح: [تحقيق المشكاة:٢٤٨] .

ولذلك ترجمَ البُخاريُّ ترجمةً أُخرى في الكتاب المذكور فقال: باب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: « **لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ يُقَاتِلُونَ وَهُمْ أَهْلُ العِلم** »[1].

وبذلك صرَّح التِّرمذِيُّ أيضاً فبوَّب في كتاب الفتن "باب لزوم الجماعة" **ثم أسند عَنْ عُمَرَ قَالَ: قَالَ** ﷺ « **مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الجَمَاعَةَ** »[2].

ثم قال الترمذيُّ: **وَتَفْسِيرُ الجَمَاعَةِ عِنْدَ أَهْلِ العِلمِ هُمْ أَهْلُ الفِقْهِ وَالعِلمِ وَالحَدِيثِ قَالَ: وَسَمِعْت الجَارُودَ بْنَ مُعَاذٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ الحَسَنِ يَقُولُ: سَأَلْتُ عَبْدَ الله بْنَ المُبَارَكِ مَنِ الجَمَاعَةُ ؟ فَقَالَ: أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ قِيلَ لَهُ: قَدْ مَاتَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، قَالَ فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ، قِيلَ لَهُ: قَدْ مَاتَ فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ فَقَالَ: عَبْدُ الله بْنُ المُبَارَكِ وَأَبُو حَمْزَةَ السُّكَّرِيُّ جَمَاعَةٌ**[3].

وإذ قد اتَّفق أولئك الأكابرُ على أنْ الطائفةَ المنْصُورة، والفِرْقةَ النَّاجيةَ، وأهلَ السُّنة والجماعةِ هم أهْلُ العِلم الشَّرْعِيِّ فليُعلَم أنْ أعلَم العُلَماءِ بالشَّريعة هم أصحابُ النبيِّ ﷺ، وذلك بشهادةِ الله ﷻ لهم ﴿**وَكَفَى بِالله شَهِيدًا**﴾ [الفتح:٢٨].

قال تعالى: ﴿**وَمِنْهُم مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ**﴾ [محمد:١٦]، يعني المنافقين ﴿**حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا العِلمَ**﴾ [محمد:١٦]، يعني الصحابةَ ﴿**مَاذَا قَالَ ءَانِفًا**﴾ [محمد:١٦].

وقال تعالى: ﴿**وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا العِلمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ**﴾ [سبأ:٦].

وقال تعالى: ﴿**وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلمَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ**

---

(١) خ(٢٩٣/١٣).

(٢) صحيح: [ص.ت:٢١٦٥]، ت(٢٢٥٤/٣١٥/٣).

(٣) ص.ت: (٤٥٨و٤٥٩/٢).

﴿قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلمَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وإذ قد شَهِدَ الله لأصحاب رسوله أنَّهم أوتوا العِلم واتَّفقت كَلِمَةُ الأكابر على أنَّ المرادَ بالجماعةِ أهلُ العلم، فقد ظهرَ أنَّ الجماعةَ هم أصحابُ رسولِ الله ﷺ، وقد صرَّح بذلك رسولُ الله ﷺ حيث قال: «أَلاَ إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً وَإِنَّ هَذِهِ المِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الجَنَّةِ وَهِيَ الجَمَاعَةُ»(١).

ثم فسَّر الجماعةَ فقال في روايةٍ أخرى «إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلاَّ مِلَّةً وَاحِدَةً قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»(٢).

ما أنا عليه وأصحابي في العقيدةِ والأحكام، والعباداتِ والمعاملات والأخلاقِ والآداب، والسياسة والاقتصاد، والحرْبِ والسِّلم، والولاء والبراء، والدَّعوة إلى الدين على بصيرة، وإنَّما يتمُّ ذلك بأَنْ يُحكِّم المُسْلِمَ القُرْآنَ والسُّنَّةَ على نفسِه في كلِّ شيءٍ حتى يكون شِعارُه ما أمرالله به رسولَه ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ

(١) حسن: [ص.د: ٤٨٤٣]، د(٤٥٧٣/ ٤١٣و٣٤٢/ ١٢).

(٢) حسن: [ص.ت: ٢٦٤١]، ت(٢٧٧٩/ ١٣٥/ ٤).

الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[الأنعام: ١٦١-١٦٣]، وحتى يكونَ كما قال الثَّوري: إنْ استطعتَ ألاَّ تحُكَّ رَأسَك إلاَّ بأثرٍ فافعل »[1].

فمن أراد بحْبُوحَةَ الجنَّة فليلزم الجماعة، ومن أراد أنْ يُزَحْزَحَ عن النَّار فعليه أنْ يستمسك بهذه العبارة وهي « **مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي** ».

ولقد وعى السابقون الأوَّلون هذه الحقيقةَ فاستمسكوا بها وعَضُّوا عليها بالنواجذ، حتى « مضت القرونُ الثلاثةُ الأولى، والأُمَّةُ فيها على نَسَقٍ واحدٍ في التَّفكير والسُّلوك والاعتقاد والعمل، ولا يختلف اثنان عليه إلاَّ ما يكون من سلوك في الوصول إلى النَّتيجة الواحدة، التي لا تختلف قطُّ مع هذا النَّسق الواحد، لهذا استحقَّت ثناء ربِّها سبحانه في مواطنَ عديدةٍ من كتابه، كقوله تعالى: **﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾**[التوبة: ١٠٠] »[2].

ولقد أثنى عليها نبيُّهاﷺ في قوله: « **خَيْرُكُمْ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ قَالَ عِمْرَانُ لاَ أَدْرِي أَذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدُ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةً** »[3].

« وما كان للأمَّةِ أنْ تتفَّرق على هذا النَّسق الواحد لو أنَّها ظلَّت تَعْتَصِمُ بحبْل الكتاب والسنة، تستهدي بهما، وتلتَزِم العملَ بهما، وتدعُو إليهما، لكنَّها اختلفَت وتفرَّقت وتناثرت رَغْمَ تحذيرِ الله ورسولِهِ لها من التفرُّق والاختلاف »[4].

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١٧٤/ ١٤٢/ ١).

(٢) مجتمعنا المعاصر (٩٥).

(٣) متفق عليه: خ(٢٦٥١/ ٢٥٨و١٥٩/ ٥)،م(٢٥٣٥/ ١٩٦٤/ ٤)،ت(٢٣٢٠/ ٣٣٩/ ٣)،ن(١٧و١٨/ ٧)،د(٤٦٣٢/ ٤٠٩-٤١١/ ١٢).

(٤) مجتمعنا المعاصر (٩٦).

يقول الله تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعًا وَلاَتَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران:١٠٣]، ثم يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ الله هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٥-١٠٧]، قال ابنُ عبَّاس: يومَ تبيضُّ وجوهُ أهلِ السُّنة والجماعة، وتسودُّ وجوهُ أهل الخلاف والفرقة.[1]

وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم:٣١،٣٢].

ولقد أخبر النبيُّ ﷺ عن وُقوع هذا الاختلافِ والتَّفرُّقِ وبيَّن أنَّ المَخْرجَ منه هو العَوْدَةُ إلى « مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي » .

عَنْ العِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ وَعَظَنَا رَسُولُ الله ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ فَقَالَ: قَائِلٌ يَا رَسُولَ الله! كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا فَقَالَ: « أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا فَإِنَّهُ مَنْ يَعِش مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ»[2].

فقرَن ﷺ سُنَّةَ الخلفاءِ بسُنَّته، وأمر باتِّباعِها كما أمر باتِّباع سُنَّته، وبالغ في الأمر بها حتى أمر بأَنْ يُعَضَّ عليها بالنواجذ، وهذا يتناول ما أفْتَوْا به وسنُّوه للأُمة وإنْ لم يتقدَّم من نبيهم فيه شيء، وإلاَّ كان ذلك سنته، ويتناول ما أفتى به جميعُهم أو أحدُهم أو

(١) ابن كثير (٣٩٠/ ١).

(٢) صحيح: [ص.د:٣٨٥١]، د(٤٥٨٣/ ٣٥٨/ ١٢).

بعضُهم لأنَّه علَّق ذلك بما سنَّه الخلفاءُ الراشدون، ومعلومٌ أنهم لم يَسنُّوا وهم خلفاء في آنٍ واحدٍ فعُلِمَ أنَّ ما سنَّه كلُّ واحدٍ منهم في وقتِهِ فهو من سُنَّةِ الخلفاء الراشدين»(١).

والذي يُمْعِنُ النَّظرَ في القرآنِ الكريم يستخرجُ منه الكثيرَ من الآيات التي تأمر باتِّباع النبيِّ ﷺ وأصحابه، ومنها:

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران:٣١]، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨].

فأمر باتِّباعه ﷺ وعلَّق الهداية عليه، وقد أخبر سبحانه أنَّ الصَّحابة اتَّبعُوا النبيَّ ﷺ في العُسْر واليُسْر والمَنْشَط والمَكْره، فهم إذاً مهتدون، قال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:١١٧]، ومن كان مهتدياً في نفسه وجب اتِّباعُه إلى الهدى إذا ما دعا إليه قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [يس:٢١].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾[لقمان:١٥]، وإنَّما الصَّحابَةُ مهتدون لإنابتهم إلى الله القائل : ﴿الله يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى:١٥]، فوجب اتِّباع سبيلهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا الله وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، قال غيرُ واحدٍ من السلف هم أصحابُ محمد ﷺ.

ولقد كان السلف من الصحابة والتابعين يوصُون باتِّباع السَّابقين الأولين من الأنصار والمهاجرين:

---

(١) إعلام الموقعين (٤/ ١٤٠).

يقول ابنُ مسعود: «إنَّ الله نظر في قُلوب العبادِ فوجد قلبَ محمدٍ خيرَ قلوب العباد فبعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد محمدٍ ﷺ فوجد قلوبَ الصحابة خيرَ قلوب العبادِ فاختارهم لصُحْبَة نبيِّه ونُصْرَة دينه، فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون قبيحاً فهو عند الله قبيح.

ويقول: من كان متأسِّياً فليتأس بأصحاب رسول الله ﷺ فإنَّهم كانوا أبرَّ هذه الأُمة قلوباً، وأعمقَها علماً، وأقلَّها تكلُّفاً، وأقومَها هَدياً، وأحسنَها حالاً، قومٌ اختارهم الله لصُحْبَة نبيِّه وإقامةِ دينه فاعْرَفُوا لهم فضلَهم واتبعوهم فإنَّهم كانوا على الهدى المستقيم»(١).

«وعن سُفيانَ بن عُيَيْنَة قال: سمعتُ عاصِماً الأحولَ يحدِّث عن أبي العالية قال: عليكم بالأمر الأَّول الذي كانوا عليه قبلَ أَنْ يتفرَّقوا.

قال عاصم: فحدَّثْتُ الحسنَ فقال: قد نصحَك والله وصدقَك.

وقال الأوزاعي: اصبرْ نفسَك على السنَّةِ، وقِفْ حيث وقَفَ القوم، وقُل بما قالوا، وكُفَّ عما كفُّوا، واسلُكْ سبيلَ سَلفِكَ الصَّالح، فإنَّه يَسعُك ما وَسِعَهم»(٢).

«وقال عمرُ بن عبد العزيز: قِفْ حيثُ وقفَ القوم وقُل كما قالوا، واسْكُتْ كما سكتوا، فإنَّهم عن عِلم وقَفوا، وببصيرة قد كفُّوا، وهم على كَشْفِها كانوا أقوى، وبالفضلِ لو كان فيها أحرى.

وقال أيضاً: سنَّ ﷺ لوُلاةِ الأمر بعده سُنناً، الأخذُ بها تصديقٌ لكتاب الله واستكمالٌ لطاعته وقُوةٌ على دينه، ليس لأحدٍ تغييرُها ولا تبديلُها ولا النظرُ في رأي مَنْ

(١) إعلام الموقعين (١٣٨و١٣٩/ ٤).

(٢) تلبيس إبليس (٨و٩).

خالفهم، فمَنِ اقْتدَى بها سَنُّوا فقد اهتدى، ومن استنصرَ بها منصور، ومن خالف واتَّبع غيرَ سبيل المؤمنين ولاَّه الله ما تولَّى وأصلاه جهنّم وساءت مصيراً.

وقال الشَّعبِيُّ: عليك بآثار مَنْ سلف وإنْ رفضَك الناس، وإيَّاك وآراءَ الرجال وإنْ زَخْرَفُوها لك بالقول »[1].

وقال الشافِعيُّ في تعظيم الصَّحابة: «هم فَوْقَنا في كُلِّ عِلمٍ واجتهادٍ وورع وعقلٍ وأمرٍ اسْتُدْرِك به علم، وآراؤهم لنا أحمدُ وأوْلى بنا من آرائنا، ومَنْ أدركنا ممن نَرْضَى أو حُكِيَ لنا عنه ببلَدِنا صارُوا فيما لم يعلَمُوا فيه سُنَّةً إلى قولهم إنْ اجتمعوا أو قَوْلِ بعضِهم إنْ تفرَّقوا، وكذا نقول، ولم نَخْرج من أقوالهم كلِّهم»[2].

وإذ قد تبيَّن لنا وجوبُ اتِّباع الصَّحابة ولزُوم جَماعتُهم فليُعلَم أَنَّ المرادَ بلزُوم جماعتهم لزُومِ مَنْهجِهم وطريقتهم في فَهْمِ الدِّين والعَملِ به، كما قال الإمامُ الشافعي: «ليس للزُومِ جماعتِهم معنى إلاَّ ما عليه جَماعتُهم من التَّحليل والتَّحريم والطَّاعة فيهما، فمن قال بما يقولُ به جماعةُ المسلمين فقد لَزِمَ جماعتَهم، ومن خالفَ ما يقولُ به جماعةُ المسلمين فقد خالفَ جماعتَهم التي أُمر بلزومها»[3].

ومَثَلُ ذلك مَثَلُ الطَّالب الذي يَنْتَسِبُ إلى إحدى الكليَّات انتساباً ولا ينْتَظِمُ بيْن طُلاَّبها، وإنَّما يأخُذ المَنْهجَ ويدرسُه ثم يُمْتَحَنُ فيه فإنْ نجحَ مُنِحَ الشَّهادةَ كما يُمْنَحُها المُنتَظِمُون، وهو لم يجْتَمِعْ بهم أثناءَ الدِّراسة ولم يَعْرِفْ أعيانهم وإنَّما التزم منهجهم.

---

(١) إعلام الموقعين (١٥١و١٥٢/ ٤).

(٢) المصدر السابق (١٢٢/ ٤).

(٣) الرسالة (١٣١٩و١٣٢٠/ ٤٧٥).

وهكذا مَنْ أراد أنْ يكون من أهلِ السُّنة والجماعة، والفِرْقة النَّاجية، والطَّائفة المنْصورة، فليلزم المنهجَ الذي كانت عليه الجماعةُ الأولى جماعةُ الرسول ﷺ وأصحابه، فمن التزم مَنْهجَهم كان منهم وإنْ لم يصْحَبْهم، وفي ذلك يقول القائل في أهل الحديث جماعةِ المسلمين:

أهــلُ الحديــثِ هُــمْ أهــلُ النبــيِّ وإنْ لم يصْحَبُوا نَفْسَه أنْفاسَه صَحِبُوا

ولقد كان هذا المعنى مستقراً في نفُوس الصَّحابة والتابعين لهم بإحسان، ولذلك لَمَّا سُئِل عَبْدَ الله بْنَ الْمُبَارَكِ مَنِ الجَمَاعَةُ فَقَالَ: أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، قِيلَ لَهُ: قَدْ مَاتَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ: قَالَ: فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ، قِيلَ لَهُ: قَدْ مَاتَ فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ، فَقَالَ: عَبْدُ الله بْنُ الْمُبَارَكِ: وَأَبُو حَمْزَةَ السُّكَّرِيُّ جَمَاعَةٌ، قَالَ أَبُو عِيسَى: وَأَبُو حَمْزَةَ هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ مَيْمُونٍ وَكَانَ شَيْخًا صَالِحًا وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا فِي حَيَاتِهِ عِنْدَنَا »[1].

وقال أبو شامة: « حيث جاء الأمرُ بالجماعة فالمرادُ به لزُومُ الحقِّ واتِّباعه، وإنْ كان المتمسِّك به قليلاً، والمخالِفُ له كثيراً.

قال ابنُ القيم: لأَنَّ الحقَّ هو الذي كانت عليه الجماعةُ الأولى من عهد النبيِّ ﷺ وأصحابه، ولا نظرَ إلى كَثْرةِ أهل البدع بعدهم.

وقال عمرو بنُ ميمون: صَحِبْتُ معاذاً فما فارَقْته حتى واريتُه في التُّراب بالشَّام، ثم صحبتُ بعدَه أفقهَ النَّاس عبدَ الله بنَ مسعود فسمعتُه يقول: عليكم بالجماعة، فإنَّ يدَ الله على الجماعة. ثم قال: يا عمرُو بنَ ميمون تدري ما الجماعة؟ الجماعةُ ما وافقَ الحقَّ وإنْ كنتَ وحدك، وفي رواية: الجماعةُ ما وافقَ طاعةَ الله ﷻ.

(١) [ص.ت: ٤٥٨و٤٥٩/ ٢].

قال نُعيم بن حماد: يعني إذا فسدَتِ الجماعةُ فعليك بما كانتْ عليه الجماعةُ قبل أنْ تَفْسُد، وإنْ كنتَ وحَدك، فإنَّك أنتَ الجماعةُ حينئذ.

وكان محمد بن أسلم الطوسي الإمامُ المتَّفقُ على إمامته أتبَع الناس للسُّنة في زمانه، حتى قال: ما بلغني سُنَّةٌ عن رسول الله ﷺ إلاَّ عمِلتُ بها، ولقد حَرِصْتُ على أنْ أطوفَ بالبيْتِ راكباً فما مُكِّنْتُ من ذلك.

فسُئِل بعضُ أهلِ العلم في زمانه عن الجماعة فقال: محمد بن أسلم الطوسي هو الجماعة.

قال ابنُ القيم: وصدَق والله، فإنَّ العصرَ إذا كان فيه عالمٌ بالسُّنة داعٍ إليها فهو الحُجَّةُ وهو الإجماعُ وهو الجماعة، وهو سبيلُ المؤمنين التي مَنْ فارقَها واتَّبع سواه ولاَّه الله ما تولَّى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً »[1].

فيجبُ أنْ يعرِفَ أصحابُ هذا الدِّين جيِّداً أنَّه كما أنَّ هذا الدِّينَ دينٌ ربَّانيٌّ فإنَّ مَنْهَجه في العملِ مَنْهَجٌ ربانيٌّ كذلك، وإنَّه لا يُمْكِنُ فَصْلُ حقيقةِ هذا الدِّين عن مَنْهجِه في العمل.

ويجبُ أنْ يُعرَفَ أنَّ هذا المنهجَ أصيلٌ، وليس منهجَ مرْحلَةٍ ولا بيئةٍ ولا ظُروفٍ خاصَّة بنشأةِ الجماعةِ المسلمةِ الأولى، وإنَّما هو المنهجُ الذي لا يقوم بناءُ هذا الدِّين إلاَّ به.

ومن واجبِ أصحابِ الدَّعوة أنْ يرفُضُوا إملاءَ أي منهجٍ غريب، وأنْ يتحرَّكوا بدينهم وِفْقَ منهج هذا الدين، وأنْ يعلموا أنَّ المنهجَ في الإسلام يُساوِي الحقيقة، ولا انْفِصَام بينهما، وأنَّ كلَّ منهجٍ غريبٍ لا يُمْكِنُ أنْ يُحَقِّقَ الإسلامَ في النهاية، فالتزامُ المَنْهَجِ ضروريٌّ كالتزام العقيدة وكالتزام النظام في كل حركةٍ إسلامية، لا في الحركة الإسلامية الأولى كما يظنُّ بعض الناس.

(١) إغاثة اللهفان (٦٩و٧٠/ ١) بتصرف.

فيا أصحابَ الدَّعوات وأتباعَ الجماعات « **اتَّبِعُوا ولا تَبْتدِعُوا فقد كُفِيتُم** » !!

كلمةٌ جامِعَةٌ ووصيَّةٌ مباركةٌ وصَّاكم بها الصحابيُّ الجليلُ عبدُ الله بن مسعود، وفيها يقول الدُّكتور عبدُ الحليم محمود: « كَلمةٌ موجزةٌ كأنَّها إعجازٌ من الإعجازات وهي كلمةُ حقٍّ وصِدْق، ثَرِيَّةٌ بالمعاني الطَّويلة العريضة، يُبَرْهِنُ آخرُها على أوَّلها، والنَّهْيُ في وسَطِها يُبرْهِنُ عليه أيضاً آخرُها، أي: « **اتَّبِعُوا فقد كُفِيتُم** »، والكافي هو الله سبحانه وتعالى الذي أَوْحى الشَّرْعَ والأصولَ والقواعد، وطبَّق رسولُ الله ﷺ كلَّ ذلك وبيَّنه، فكان تطبيقُه مقياساً وبياناً ومرجعاً يرجع إليه المُخْتلِفون.

« **ولا تَبْدِعوا فقد كُفيتم** » إنَّ الذي يبتدعُ هو من لا كِفَايةَ له، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى بعد أَنْ أعلى الدِّين وأتمَّ النِّعمة فليس هناك من مجال ولا من حاجةٍ إلى الابتداع، لقد كفانا الله ورسولُه ﷺ كلَّ ما أهمَّنا من أمر الدِّين ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا**﴾ [المائدة:٣].

ثم يقولُ ﷺ في فضل الاتباع: أن إقامةِ منهج الاتِّباع هو الخُلاصة الجوهريةُ لتجاربي الخاصة بالطريق الذي ينبغي أَنْ يسلكه المسلم في حياته، وإذا سار فيه المسلمُ فرْداً أو سار فيه المجتمعُ مجْتمعاً فإنَّ الله سبحانه وتعالى يكتبُ له الهدوءَ والطُّمأنينةَ والسَّعادة لأنَّه في جوٍّ ربَّاني وفي رعايةِ الله سبحانه وتعالى وعنايته.

وإنَّ منهج الاتباع يقي الجَوَّ الإسلاميَّ الانحرافَ الفِكْريَّ ثم إنَّه ينشُر رعايةَ الله وتوفيقَه وحمايتَه ونصرَه، ويجب نشرُه في جميع الأجواء الإسلامية لأنَّه المنهج الإسلامي ﴿**وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِالله فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ [آل عمران:١٠١] »[1].

(١) الفلسفة (٤٣و٣٥و٤٧).

هذا، وإنَّ مما يجب التَّنبيهُ عليه أنَّ هذه الجماعةَ جماعةَ أهلِ العلم تَخْتَلِفُ عن جَماعةِ العَدالة، فإنَّ الجماعة جَماعتان: جماعةُ العِلم وجماعةُ العدالة »[1].

فجماعةُ العِلم هي التي بيَّناها ولزُومها يتمُّ بلزُوم منهجها، ولا يلزَمُ لها بيعةٌ ولا يجب بها سمعٌ ولا طاعة، وإنَّما البَيْعَةُ واجِبةٌ للإمام الذي يُقِيمُه المسلمون لهم ليقيمَ لهم العدلَ ويحقّق الأمن.

فبَيْعةُ هذا الإمام واجبةٌ وطاعتُه في المعروف واجبة، والخرُوج عليه حرام، وقد جاءت الأحاديث تأمر بلزوم جماعته وتُحذِّر من مفارقته:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: « **مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الجَمَاعَةَ فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً** »[2].

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: « **مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ لَقِيَ الله يَوْمَ القِيَامَةِ لاَ حُجَّةَ لَهُ وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً** »[3].

والمرادُ بالجماعة هي جماعةَ العَدالة، والمُرادُ بالبَيْعةِ بَيْعةُ أمير المؤمنين، وقد بيَّنتْ هذا المعنى الرِّواياتُ الأخرى المصرِّحةُ بالإمارة والسلطة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « **كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ وَإِنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي وَسَتَكُونُ خُلَفَاءُ تَكْثُرُ قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا قَالَ: فُوا بِبَيْعَةِ الأَوَّلِ فَالأَوَّلِ وَأَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ فَإِنَّ الله سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ** »[4].

---

(١) العارضة (٩/ ٩).

(٢) م(١٨٤٨/ ١٤٧٦/ ٣)، ن(١٣٣/ ٧).

(٣) م(١٨٥١/ ١٤٧٨/ ٣).

(٤) متفق عليه: خ(٣٤٥٥/ ٤٩٥/ ٦)، م(١٨٤٢/ ١٤٧١/ ٣).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ يَرْوِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ فَمِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ**»[1].

فالبَيْعةُ والسَّمعُ والطَّاعة إِنَّما تكون للإمام، أَمَّا جماعةُ العِلم فمَنْ كان على مِثْلِ ما كان عليه النبيُّ ﷺ وأصحابُه فهو من جماعة العلم ولو كان وحده، دون أَنْ يَنْخَرِط في أيِّ جماعةٍ من الجماعات، ولا يلزم أَنْ يرفعَ رايةً ولا شِعاراً، ولا أَنْ يبايعُ أميراً.

يقول شيخُ الإسلام ابنُ تيمية: «ليس للمعلِّمين أَنْ يحزِّبوا النَّاس ويفعلوا ما يُلقِي بينَهم العداوةَ والبغضاءَ بل يكونوا مِثْلَ الإخْوة المُتعاونين على البرِّ والتقوى كما أمر الله ﷻ، وليس لأحدٍ منهم أَنْ يأخذ على أحدٍ عهداً بمُوافَقتِه على كلِّ ما يُريده ومُوالاةِ مَنْ يواليه، ومُعادَاةِ مَنْ يُعاديه، بل مَن فعلَ هذا كان من المعتدين»[2].

---

(١) متفق عليه: خ(٧٠٥٣/ ٥/ ١٣)، م(١٨٤٩/ ١٤٧٨/ ٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥و١٦/ ٢٨).

بيعة النساء

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لاَ يُشْرِكْنَ بِالله شَيْئًا وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَـزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُـنَّ وَلاَ يَـأْتِينَ بِبُهْتَـانٍ يَفْتَرِينَـهُ بَـيْنَ أَيْـدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِـنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ الله إِنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الممتحنة :١٢].

تُسمى هذه الآيةُ آيةَ البيْعة، بَيْعةِ النساء، وقد نزلَتْ بعد صُلح الحُدَيبية، وكان من شروطه؛ أنَّ من جاء محمدًا من قريش ردّه على قريش، ومن جاء قريشًا من محمدٍ لم يردُّوه عليه، فنزلت الآيةُ تستثْني النِّساءَ لضعْفِهنَّ وعجزهنَّ، وعدمِ الأمن عليهنَّ إذا هاجرْن إلى النبيِّ ﷺ ثم رَدَّهن، فكان ﷺ يمتحنُ من هاجر إليه من النساء بهذه الآية، ثم كان يذَكّرهُنَّ بها في الأعياد وغيرها :

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ، قَالَ : « شَهِدْتُ الصَّلاَةَ يَوْمَ الفِطْرِ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، وَأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ ﷺ، فَكُلُّهُمْ يُصَلِّيهَا قَبْلَ الخُطْبَةِ، ثُمَّ يَخْطُبُ بَعْدُ، فَنَزَلَ نَبِيُّ الله ﷺ، فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ حِينَ يُجَلِّسُ الرِّجَالَ بِيَدِهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ يَشُقُّهُمْ حَتَّى أَتَى النِّسَاءَ مَعَ بِلاَلٍ، فَقَالَ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لاَ يُشْرِكْنَ بِالله شَيْئًا.. ﴾ حَتَّى فَرَغَ مِنَ الآيَةِ كُلِّهَا »[1].

كما كان ﷺ يبايع الرِّجالَ أيضًا على هذه الآية :

عَنْ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ ﷺ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: « أَتُبَايِعُونِي عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِالله شَيْئًا وَلاَ تَزْنُوا وَلاَ تَسْرِقُوا ؟» وَقَرَأَ آيَةَ النِّسَاءِ – يعني :

(١) متفق عليه : خ (٤٨٩٥/ ٦٣٨/ ٨)، م(٨٨٤/ ٦٠٢/ ٢).

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾ -[١].

وأصل البَيْعَةِ المُعاقَدَةُ والمُعاهَدةُ على السَّمْع والطَّاعة وعدَم المعْصية، وهي لا تكونُ إلا من أهْل الحَلِّ والعَقْدِ - وهم العلماء - لِمَنْ يَرْضَوْنَه إمامًا للمسلمين وأميرًا لهم، ولا يجوز أن تتعدَّد هذه البَيْعة، ولذلك قال ﷺ : « إِذَا بُويِعَ لِخَلِيفَتَيْنِ فَاقْتُلُوا الآخَرَ مِنْهُمَا »[٢].

ولا يجوز لأيِّ شخصٍ كان غيرِ إمام المسلمين أن يأخذَ من أتباعه بيعة، ولا يُعْطي مريديه عهدًا يشترط عليهم به الطاعة له مطلقًا، ويُحرِّم عليهم به معصيَته مطلقًا، أو يشترطُ عليهم الولاءَ لأتباعه ومريديه دون غيرُهم من صالح المؤمنين.[٣]

فمن فعل ذلك فقد اتَّبع الهوى وخالف الهدى، وشاقّ الله ورسولَه، وخالف جماعة المسلمين، واتَّبع غيرَ سبيل المؤمنين؛ لأنَّ هذه البَيْعاتِ والعهُودَ التي يُعطيها مشايخُ الطُّرُق وأُمراءُ الأحزاب والجماعاتِ شقَّت عصا جماعة المسلمين، وفرَّقت جمْعَهم، ومزَّقت شمْلَهم، وجعلتهم شيعًا وأحزابًا : ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون:٥٣].

والأصلُ في المسلمين أنهم أمةٌ واحدة، يسعى بذمَّتهم أدناهم، وهم يدٌ على مَنْ سواهم، وأصلُ الولاءِ والبراءِ عندهم مبنيٌّ على قاعدتين :

الأولى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ الله وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۝ وَمَنْ يَتَوَلَّ الله وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ الله هُمُ الغَالِبُونَ ﴾[المائدة:٥٥، ٥٦].

---

(١) متفق عليه : خ(٤٨٩٤/ ٦٣٧/ ٨)، م(١٧٠٩/ ١٣٣٣/ ٣)، ت(١٤٦٧/ ٤٤٧/ ٢)، ن(١٤٨/ ٧).

(٢) م(١٨٥٣/ ١٤٨٠/ ٣).

(٣) " مجموع فتاوي ابن تيمية " (ج٢٨ ص ١٥، ١٦).

الثانية: ﴿ لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ الله وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الله أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الله هُمْ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة :٢٢].

فالأصل في المؤمنين أنّهم إخْوَةٌ متحابُّون، وكلُّ مؤمنٍ يدين لله بحبِّ الصَّالحين من المؤمنين في كل مكان، مَنْ يعرِفُ منْهم ومن لا يعرف، ولكنَّ العهودَ والبيْعاتِ تجعل الولاءَ لكلِّ من أخذ العهد من الشيخ أو الأمير أو أعطاه البيعة، والبراءَ من كلِّ من لم يأخذ عهدًا ولم يُعْطِ بيعة، وقد يكون مِنْ حَمَلَةِ العهود الفسقة، وممَّن لم يحملوها الصالحون، ومع ذلك فالعهْدُ والبيْعَةُ تُلزِمُ آخِذَها بولاءِ إخوانه فيها، والبراءِ ممَّن لم يأخذوها، فيقع المسلمُ في محْظُورٍ شديدٍ وهو محاربة أولياء الله وهو لا يدري.

فعلى شباب المسلمين أن ينْتَبِهُوا لخُطورَةِ هذه البَيْعاتِ، وأن يكونوا منها على حذر، فإنه ليس في الإسلام إلا بَيْعَةٌ واحدةٌ، هي بَيْعَةُ أهْلِ الحلِّ والعَقْدِ لمن يرتَضُونَه إمامًا للمسلمين، فيُبايِعُونه، ثم يُبايِعُه العامَّة، ومابعد ذلك إلا التَّناصُح والتَّشاور، والأمرُ بالمعْروف والنَّهْيُ عن المنكر، والتَّواصِي بالحقِّ، والتَّواصِي بالصَّبر.

وعلى كل من أعطى بيْعةً أو أخذ عهدًا أن يعلم أنها ليسَتْ مُلزِمةً، وأنه في حلٍّ منها دون مراجعةِ شيخه أو أميره، لقول النبي ﷺ: « مَا بَالُ أُنَاسٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيْسَتْ فِي كِتَابِ الله ؟ مَنِ اشْتَرَطَ شَرْطًا لَيْسَ فِي كِتَابِ الله فَلَيْسَ لَهُ، وَإِنْ شَرَطَ مِائَةَ مَرَّةٍ »[1].

وقد استفتحت الآية بهذا النداء: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾، وهكذا جرت سنَّةُ الله تعالى

(١) متفق عليه: خ(٤٥٦/ ٥٥٠/ ١)، م(١٥٠٤/ -٦-/ ١٤٤١/ ٢)، د(٣٩١٠/ ٤٣٨/ ١٠)، ن(٣٠٥/ ٧).

في نداء خليله محمد ﷺ: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾، ﴿ يَاأَيُّهَا الرسول ﴾، تعليمًا للمؤمنين أنه يجب عليهم أن يعزِّروا النبيَّ ﷺ ويوقِّروه، ويُجلّوه ويحترموه، حتى في النداء والمخاطبة، كما قال تعالى: ﴿ لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ [النور:٦٣].

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ ﴾ مهاجراتٍ ﴿ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لاَ يُشْرِكْنَ بِالله شَيْئًا ﴾، فهذا هو مِفْتَاحُ الدُّخول في الإسلام، وهو أوّلُ واجبٍ على المكلَّف، أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسولُ الله، ومعنى لا إله إلا الله؛ أي لا معبود بحقٍّ إلا الله؛ لأنه: ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴾ [الأعلى:٢-٤]، ﴿ هَل مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الروم:٤٠]، ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ ﴾ [النحل: ١٧]، فالله تعالى هو الذي خلق وحْدَه فوجب أن يُعبَدَ وحده، ومَنْ عَلِمَ أنه لا إلَه إلا الله، فلا يجوز له أن يدْعُو مع الله إلهًا آخر، فإن فعل فقد ضلَّ ضلالاً مبينًا، وظلَم نفْسَه ظلمًا عظيمًا.

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ الله مَنْ لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف:٥، ٦].

وقال تعالى: ﴿ وَلاَ تَدْعُ مِنْ دُونِ الله مَا لاَ يَنْفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [يونس:١٠٦].

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِالله فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا ﴾ [النساء:١١٦].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣].

ولقد جرت سُنّةُ الله تعالى بإرْسَالِ الرُّسُلِ من الشِّرْكِ مُحَذِّرين، وإلى التَّوْحيد داعين؛ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥].

وقال تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ المَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ [النحل :٢].

فيا معْشَرَ المسلمين والمسلمات لا تُشْرِكُوا بالله شيئًا، ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِالله فَقَدْ حَرَّمَ الله عَلَيْهِ الجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة:٧٢]، واصْبِرُوا على التَّوحيد حتى تَلقَوْا الله، فإنَّ الله تعالى قال في الحديث القدسي: « يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً »[1].

﴿ وَلاَ يَسْرِقْنَ ﴾ من أزواجهنَّ ولا من غيرهم، فإنَّ السَّرِقَةَ حرام، حرّمها الله ورسولُه، فهي حرامٌ إلى يوم القيامة، وهي كبيرةٌ من الكبائر توجب قَطْعَ اليد في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنْ الله وَالله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة :٣٨].

ويُلحَقُ بالسّرقة الغلولُ والخيانَةُ والنَّهْبُ والاختلاس من الأموال العامة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [آل عمران :١٦١].

---

(١) حسن: [ص ج: ٤٢١٤]، ت (٣٦٠٨/٢٠٨/٥).

وقال ﷺ: «مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَكَتَمْنَا مِخْيَطًا فَمَا فَوْقَهُ كَانَ غُلُولاً يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1].

﴿ وَلاَ يَزْنِينَ ﴾ فإنَّ الزنا حرام، حرَّمه الله ورسولُه، فهو حرامٌ إلى يوم القيامة، ولقد شدَّد الله العقوبةَ فيه، فجعلها في حقِّ الأعزب مائةَ جلدةٍ ونفيَ عام، وجعلها في حقِّ من أُحْصِنَ من الرِّجال والنِّساء الرَّجْمَ بالحجارة حتى الموت.

فيا معشر المسلماتِ احفَظْنَ فُروجَكُنَّ، ولا تُوطِئْنَ فُرُشَكُنَّ غَيْرَ أَزْواجِكُنَّ: ﴿ وَاتَّقِينَ الله إِنَّ الله كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ [الأحزاب: ٥٥].

ويامعْشَرَ المسلمين: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ»[2]، فعظِّموا حُرماتِ المسلمين، وصُونوا أعْراضَهم، وإذا هَمَّ أحدُكم بانْتِهَاكِ عِرْضِ مسلمٍ فليسْأَل نفْسَه: أَتَرْضَاه لأمِّك؟ أترْضاه لأختك؟ أترضاه لزوجتك؟ أترضاه لابنتك؟ وليعلم أنَّ الجزاء من جنْس العمل، وكما تدين تُدان.

﴿ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ ﴾ خشيةَ الفقر أو العار، كما كانت عادةُ الجاهلية، وقد حرَّمها الإسلام، كما قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٣١].

﴿ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ أي: لا تأتي بولدٍ تلتقِطُه من الطريق، وتقول لزوْجها: هذا ولدي منك وتنْسِبُه إليه، فإن ذلك حرام.

﴿ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ تعميمٌ بعد تخصيص، ويدخل فيه كُلُّ ما يأمرُ به النبيُّ ﷺ من الخيْر، وكُلُّ ما ينْهَى عنه من الشرِّ، لكنه قد خُصِّصَ ببعْض الأفراد،

(١) م(١٨٣٣/ ١٦٥٤/ ٣)، د(٣٥٦٤/ ٤٩٧/ ٩).

(٢) م(٢٥٦٤/ ١٩٨٦/ ٤)، د(٤٨٦١/ ٢٢٦/ ١٣)، جه(٩٣٣/ ١٢٩٨/ ٢).

كالحجاب، والحِشْمَة، والتبرُّج، والسُّفور، والرضا والصبر عند المصيبة، ولطْم الخدود، وشق الجيوب.

ولكنَّ تقييده سبحانه لطاعة نبيِّه بالمعروف - وهو لا يأمرُ إلا به - إنَّما هو تأكيدٌ على عباده أن لا طاعَة لمخْلُوقٍ في معصية الخالق، ولو كان الآمرُ بها رسولَ الله ﷺ - وحاشاه - فما دونه أولى.

فعلَى شَبابِ المسْلمين أن يعوا هذه الحقيقَة ؛ وأن يعْلَمُوا أنَّه ليس هناك أحدٌ تَجِبُ طاعته مطلقًا سوى رسولِ الله ﷺ، وكُلُّ من عداه يُؤْخَذُ منه ويُرّد عليه، فعلينا أن نُجِلَّ العلماءَ ونحترِمَهم، وليس لنا أن نغْلُوَ فيهم حتى نعتقدَ إحاطتَهم علمًا بكل شيء، وعِصْمَتِهم من الزَّلل، فما أمَرُوا به ائتمرنا به مطلقًا ولو كان خطأً، وما نَهَوْا عنه انتهيْنا عنه مطلقًا ولو كان صوابًا، بل يجب علينا أن نوطِّن أنفسنا على قبولِ الحقِّ من أيِّ أحد، ورَفْضِ الباطل ولو كان من الشيخ أو الأمير.

﴿ **فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ ؛ قالت عَائِشَةَ رضي الله عنها : كان رَسُولُ الله ﷺ يَمْتَحِنُ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ بِهَذِهِ الآيَةِ، فَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا الشَّرْطِ مِنهن قَالَ لَهَا رَسُولُ الله ﷺ : « **قَدْ بَايَعْتُكِ كَلامًا** »، وَلاَ وَاللهِ مَا مَسَّتْ يَدُهُ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ فِي الْمُبَايَعَةِ، مَا يُبَايِعُهُنَّ إِلاَّ بِقَوْلِهِ: « **قَدْ بَايَعْتُكِ عَلَى ذَلِكِ** »[1].

أرادت عائشةُ رضي الله عنها بذلك نَفْيَ أن يُفْهَم من العادة أنَّه عند البَيْعَةِ يأخذ الرسولُ ﷺ بيد من يبايعه، أنه قد أخذ أيضًا بأيدي النساء، فصرَّحت بالنَّفْي، ولم تكْتَفِ به حتى أكَّدته بالقَسم : لا والله ما مسَّت يدهُ يد امرأةٍ قط في المبايعة.

---

(١) متفق عليه : خ (٤٨٩١/ ٦٣٦/ ٨)، م(١٨٦٦/ ١٤٨٩/ ٣).

فمسُّ الرجلِ يدَ المرأة حرام، حذَّر منه النبيُّ ﷺ بقوله: « **لأن يُطْعَنَ فِي رَأْسِ أَحَدِكُمْ بِمِخْيَطٍ مِنْ حَدِيدٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمَسَّ امْرَأَةً لاَ تَحِلُّ لَهُ** »[١].

فاتقوا الله معْشَرَ المسلمين ولا تُصافِحُوا النِّساء، فإنَّ مصافَحتَهُنَّ حرام، واتَّقينَ الله معْشَرَ المسلمات، ولا تمدَّن إحداكُنَّ يدَها إلى أجنبي، فإنَّ وَضْعَ يدك في يد رجلٍ أجنبيٍّ يُعدُّ في نَظر الإسلام زنا، كما قال ﷺ: « **كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنَ الزِّنَا مُدْرِكٌ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ ؛ فَالعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الإِسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الكَلاَمُ، وَاليَدُ زِنَاهَا البَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الخُطَا، وَالقَلبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ** »[٢].

(١) صحيح: [ص ج: ٤٩٢١]، وقال الألباني في "الصحيحة" (٣٩٦/ ١)" وقال المنذري في "الترغيب" (٦٦١٣):
رواه طب، وهق، ورجال طب ثقات رجال الصحيح.

(٢) م (٢٦٥٧/٤٠٤٦/٤).

المستقبل لهذا الدين

﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ [النور:٥٥].

بعث الله رسولَه محمدًا ﷺ بالهدى ودينِ الحق، فقام يدعو إلى الله على بصيرة، فما آمن معه مِنْ مكَّةَ إلا قليل، كانوا مستَضعَفِينَ في الأرْض تسلَّطَ عليهم كفَّارُ قريْشٍ فساموهم سُوءَ العذاب، حتى ماتَ منهم مَنْ مات تحْتَ وطأة التَّعذيب، وهمَّتْ طائِفَةٌ منْهم أن تُقاتِل، فلأنْ يُقاتِلوا المشركين فيُقْتَلوا خَيْرٌ لهم من أنْ يَقْتُلَهم المشركون وهم مُسْتَسْلِمون، فنهاهم الله تعالى عن ذلك و ﴿قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [النساء:٧٧]، فوقَفُوا عند كتاب الله، واستمرَّت قُريْشٌ في تعذيب المستضعفين، فجاءوا يشْكُون إلى النبيِّ ﷺ.

عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ رضي الله عنه قَالَ : شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ، فَقُلْنَا : أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا ؟ أَلاَ تَدْعُو لَنَا ؟ فَقَالَ : « قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، ثم يؤتى بِالمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ مَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَالله لَيُتِمَّنَّ الله هَذَا الأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لاَ يَخَافُ إِلاَّ الله وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ »[1].

---

(١) خ (٣٦١٢/ ٦١٩/ ٦)، د (٢٦٣٢/ ٣٠٨/ ٧).

ثم أذِنَ الله لنبيِّه ﷺ في الهجْرَةِ إلى المدينة، فطاردَتْهم قُرَيْشٌ أيضًا، وأرْسَلتْ إلى عبدِ الله بن أُبي - وكان رئيسَ الخزْرج - يقولون : إنّكم آويْتُم صاحِبَنا، وإنَّا نُقْسِمُ بالله لتقاتلنّه أو لنسيرنَّ إليكم بأجْمَعِنا حتى نَقْتُلَ مُقاتِلَتكم ونستبيحَ نساءكم، ووافقَ ذلك هوًى في نَفْسِ ابن أُبي، إذ كان قومُه يعدُّون له تاجَ المُلك ليُتَوِّجوه به، فلما جاءهم الرسولُ ﷺ انصرفوا عنه، فكان يعتقد أن النبيَّ ﷺ سلَبه المُلك، فأخذ يجْمَع النَّاس لقتالِ الرَّسولِ ﷺ فأتاهم النبيُّ ﷺ فقال: « **لَقَدْ بَلَغَ وَعِيدُ قُرَيْشٍ مِنْكُمُ المَبَالِغَ، مَا كَانَتْ تَكِيدُكُمْ بِأَكْثَرَ مِمَّا تُرِيدُونَ أَنْ تَكِيدُوا بِهِ أَنْفُسَكُمْ، تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا أَبْنَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ؟!** » فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ تَفَرَّقُوا.(١)

ولكنَّ قريشًا لم تكفّ عن مناوشَةِ المسلمين وإثارَةِ الفزَعِ والرُّعْبِ في صفُوفهم، فأرْسلَتْ إليهم تقول : لا يَغُرَّنّكم أنَّكُمْ أفلتُّمونا إلى يَثْرِبَ، سَنَأْتِيكُم فَنسْتَأْصِلُكم ونَبِيدُ خَضَراءَكُم فِي عُقْرِ دَارِكُم.(٢)

ولقد تأكَّد الرسولُ ﷺ أنَّ هذا ليس مجرَّد تهديد، وأنَّ قريشًا قد تهاجِمُهم بالفعل في أيَّةِ ساعةٍ من ليْلٍ أو نهار، مما جعل الرَّسُولَ ﷺ يسْهَرُ بالليل ولا ينام، ويطلبُ من يحرسُه من أصحابه.

عَنْ عائشة ﵂ قالت : سهر رسول الله ﷺ مقدمه المدينة ليلة فقال : « **لَيْتَ رَجُلاً صَالِحًا مِنْ أَصْحَابِي يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ** ». قالت فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح، فقال « **مَنْ هَذَا؟** »، قال : سعد بن أبي وقاص، فقال له رسول الله ﷺ : « **ما جاء بك ؟** »، فقال : وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله ﷺ، ثم نام »(٣).

(١) صحيح الإسناد : [ص. د : ٢٥٩٥]، د (٢٩٨٨/ ٢٣٤/ ٨).

(٢) "الرحيق المختوم" : (ص ١٩٦).

(٣) متفق عليه : خ(٢٨٨٥/ ٨١/ ٦)، م(٢٤١٠/ ١٨٧٥/ ٤)، ت (٣٨٤٠/ ٣١٥/ ٥).

واستمر الحال على ذلك، ولم يكن هذا السهر خاصًا بالنبي ﷺ، بل كان المسلمون أجمعون لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه، حتى قال قائلهم : يارسول الله، أبد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح ؟ فقال ﷺ : « لن تصبروا إلا يسيرًا، حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبيًا ليست في حديدة »، وأنزل الله هذه الآية : ﴿ **وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا** ﴾[1].

وأخذ ﷺ يبشر المؤمنين بالنصر والتمكين وفتح بلاد المشركين، وأكثر عليهم في ذلك تطمينا لقلوبهم، ومن ذلك، قوله ﷺ : « **بَشِّرْ هَذِهِ الأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ وَالرِّفْعَةِ وَالدِّينِ وَالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ فِي الأَرْضِ** »[2].

وقوله ﷺ : « **إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ مُلكَ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا** »[3].

وقوله ﷺ : « **إن الله استقبل بي الشام وولّى ظهري اليمن، وقال لي : يامحمد، إني جعلت لك ما تجاهك غنيمة ورزقًا، وما خلف ظهرك مددًا، ولايزال الإسلام يزيد وينقص الشرك وأهله، حتى تسير المرأتان لا تخشيان إلا جورًا، والذي نفسي بيده لا تذهب الأيام والليالي حتى يبلغ هذا الدين مبلغ هذا النجم** »[4].

---

(١) الدر المنثور (٦/٢١٥).

(٢) صحيح : [ص ج: ٢٨٢٢]، حم (٢٣/١٩٩/٤٢٢)، ك(٤/٣١١)، حب(٦١٨/٢٥٠١).

(٣) م (٤/٢٢١٥/٢٨٨٩) ت(٣/٣١٩/٢٢٦٧)، د(١١/٣٢٢/٤٢٣٢).

(٤) حسن : [س. ص:١/٤٦/٣٥] وقال : رواه أبونعيم (٦/١٠٧-١٠٨) وابن عساكر في "تاريخ دمشق" (١/٣٧٧-٣٧٨ط).

وقوله ﷺ : « لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلاَ يَتْرُكُ الله بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ أَدْخَلَهُ الله هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ الله بِهِ الإِسْلاَمَ وَذُلاًّ يُذِلُّ الله بِهِ الكُفْرَ »[1].

وهذه كلها بشارات عامة، وقد بشّر ﷺ بفتح بعض البلاد وسماها، ففتحت كما بشر به، من هذه البلاد مصرنا الحبيبة، أرض الكنانة، فقد قال ﷺ : « إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا القِيرَاطُ فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فاستوصوا بِأَهْلِهَا خيرًا، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا »[2].

ومنها اليمن والشام والعراق، كما قال ﷺ : « تُفْتَحُ اليَمَنُ فَيَأْتِي قَوْمٌ يُبِسُّونَ فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ، وَالمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، وَتُفْتَحُ الشَّامُ فَيَأْتِي قَوْمٌ يُبِسُّونَ، فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ، وَالمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، وَتُفْتَحُ العِرَاقُ فَيَأْتِي قَوْمٌ يُبِسُّونَ، فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ، وَالمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ »[3].

وقد فتحت مصر واليمن والشام والعراق كما أخبر ﷺ.

وهناك بلادٌ بشّر ﷺ بفتحها ولمّا تفْتَحْ بعد – وهي مفتوحة إن شاء الله – كما أخبر رسولُ الله ﷺ ، من هذه البلاد " روما " عاصمة إيطاليا : عن عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو قال : بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ الله ﷺ ونحن نَكْتُبُ، إِذْ سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ أَيُّ المَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوَّلاً ؟ أَقُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةُ. فَقَالَ: «مَدِينَةُ هِرَقْلَ تُفْتَحُ أَوَّلاً »[4].

---

(١) صحيح : [س. ص: ٣/ ٧/ ١]، حب(١٦٣١و ١٦٣٢/ ٣٩٣و ٣٩٤)، حم (٤٦/ ٩٠/ ١) .

(٢) م (٢٥٤٣/ ١٩٧٠/ ٤) .

(٣) متفق عليه : خ(١٨٧٥/ ٩٠/ ٤) ، م(١٣٨٨/ ١٠٠٨/ ٢) .

(٤) صحيح : [س. ص: ٤/ ٧/ ١] ، وقال الشيخ : رواه : حم (٢/ ١٧٦) ، مي (١/ ١٢٦) وغيرهما .

وقد فتحت قسطنطينية، ونحن في انتظار فتح رومية، وقال ﷺ: «عُصَيْبَةٌ مِنَ المُسْلِمِينَ يَفْتَحُونَ البَيْتَ الأَبْيَضَ بَيْتَ كِسْرَى»(١).

وقد فتح بيت كسرى، ونحن ننتظر فتح البيت الأبيض بواشنطن.

وهنا قد - تثور الشكوك، وتجوس الهواجس في النفوس، فتح روما ؟! فتح البيت الأبيض ؟! أهذه أحلام اليقظة ؟! أو أماني الغرور ؟ ولا والله، إنها وعود الذي لا ينطق عن الهوى، وبشارات الذي يأتيه الخبر من السماء، ولقد بشر بها أصحابه وهم في مكة مستضعفون في الأرض، تسومهم قريش سوء العذاب، ثم كان ما وعدهم به حقًا، وامتن الله عليهم بذلك فقال: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال:٢٦].

ولكن تحقق هذا الوعد الرباني، وظهور هذه البشارات النبوية لابد لها من أسباب، ومن أسبابها الاتصاف بحال أهلها، فإن الله وصف أهل هذا الوعد بقوله: ﴿ يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾، فإن نحن عبدنا الله حق عبادته، وكان رجاؤنا فيه، وخوفنا منه، وتوكلنا عليه وإنابتنا إليه، إن نحن أسلمنا وجوهنا له سبحانه، وصار شعار كلٍّ منا: ﴿ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ العَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لاَ شَرِيكَ لَهُ ﴾ [الأنعام:١٦٢،١٦٣].

فالوعد سيتحقق قريبًا بإذن الله، لكن منا من لا يعبد الله، ما من لا يصلي، ولا يصوم، ولا يزكي، ولا يحج، ويزعم أنه مسلم، ومنا من يدعو غير الله، ويرجو غير الله،

(١) م (١٨٢٢/ ١٤٥٣/ ٣). والعُصَيْبَة: تصغير عصبة، وهي جماعة قليلة من المسلمين.

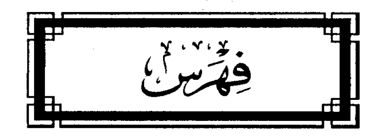
ويخشى غير الله، ويتوكل على غير الله، ويزعم أنه مسلم، ومنا من يذبح لغير الله، وينذر لغير الله، ويزعم أنه مسلم، ومنا من يذبح لغير الله، وينذر لغير الله، ويزعم أنه مسلم، ومنا من يلجأ في الشدائد والأزمات إلى قبور الأموات، ويسألهم تفريج الكربات وقضاء الحاجات وفك الأزمات ويزعم أنه مسلم !!

فشرط التمكين في الأرض إذن غير متوفر فينا، فلنعد النظر في عقيدتنا، ولنعد النظر في عبادتنا، ولنعد النظر في معلوماتنا، ويوم أن نتصف بهذا الوصف: ﴿ يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ سيحقق الله لنا وعده، وينصر جنده، ويهزم الأحزاب وحده، فلنَفِ لله بعهده حتى يفي لنا، كما قال تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:٤٠]، ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ﴾ [التوبة:١١١].

﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللهِ يَنصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ وَعْدَ اللهِ لاَ يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٤-٦].

شرح الرموز المستخدمة في التخريج والتحقيق

الرمز	الشـرح	الرمز	الشـرح
بز	البزار	ص.خد	صحيح الأدب المفرد
ت	ترمذى	ص. د	صحيح أبى داود
جه	ابن ماجه	ص.نس	صحيح النسائى
حب	ابن حبان	طب	الطبرانى في الكبير
حم	مسند أحمد (الفتح الربانى)	طح	الطحاوى شرح معانى الآثار
خ	البخارى (فتح البارى)	طس	الطبرانى في الأوسط
خز	صحيح ابن خزيمة	طص	الطبرانى في الصغير
د	أبو داود (عون المعبود)	قط	الدارقطني
س.ص	السلسلة الصحيحة	كم(ك)	الحاكم
ش	مصنف ابن أبى شيبة	م	مسلم
ص.ت	صحيح الترمذى	مى	الدارمى
ص.جه	صحيح ابن ماجه	نس(ن)	النسائى
ص.تغ	صحيح الترغيب والترهيب	هق	البيهقى



فهرس




صف
الألفي
تجهيز
الإسكندرية
012 91 99 456